جامعة البعث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية _ دراسة مقارنة بين العصر الأيوبي في بلاد الشام وعصري المرابطين والموحدين في الأندلس

رسالة مقدمة من الطالب

باسل مطانس كاسوحة

لنيل درجة الماجستير في كلية الآداب والعلوم الإنسانية

من قسم التاريخ

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد السلام محمد زيدان

أستاذ تاريخ العصور الوسطى في قسم التاريخ

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة البعث

الإهداء

أبي: البيتُ يشمخُ، ويعلو بعلو قامتك. وبجناحي الحب والحنان تحمينا، بك نكبر ونعلو ... لأنك الجذر الذي أنبتنا .... **أبي**

أمي: يتدّفق الحنان والعطاء نبعاً... يغمرنا الدفءُ، فيملأ قلوبنا الأمان كأنك الشمس نوراً ودفئاً... **أمي**

أخواتي: حنان، حياة، حسناء. ثالوث المحبة، وشموعٌ أضاءت البيت. وفاض نورها على بيوتٍ امتدادها لنا، كنتنّ نبض البيت وتبقينَ في الروحِ شامخات... أخواتي **حنان. حياة. حسناء.**

أخي: الجناح الثاني الذي به أطير... الأخ والرفيق والصديق من نجاحكَ أستمدُّ الاندفاع، ونجاحي يعني أنكَ تمتلئُ فرحاً... دمتَ في عزّ وعطاء... أخي **حيان.**

باسل

شكر وتقدير

إنني أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى كل من قدم لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه الرسالة، وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور: عبد السلام محمد زيدان، الذي شرفني بقبوله الإشراف على هذه الرسالة، وأمدني بتوجيهاته.

كما أتوجه بالشكر للدكتور: نضال سطوف عميد كلية الهندسة المعمارية، والدكتور خليل الحسين، والدكتورة: شيرين حمودي، وجميع مدرسي قسم التاريخ، الذين كانوا سنداً علمياً حقيقياً، فتحوا مكتباتهم العامرة ومنحوني ما أحتاجهُ من المصادر والمراجع.

آملاً من المولى عز وجل أن يوفقهم ويسدد خطاهم.

فهرس المحتويات

أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية_ دراسة مقارنة بين العصر الأيوبي في بلاد الشام وعصري المرابطين والموحدين في الأندلس

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

قائمة الرموز

١- هـ: الهجري.
٢- م: الميلادي.
٣- د ت: دون تاريخ.
٤- ت: توفي في عام.
٥- تر: ترجمة.
٦- تح: تحقيق.
٧- ج: جزء.
٨- ق: قسم.
٩- مر: مراجعة.
١٠- م: متر.
١١- كم: كيلو متر.
١٢- ص: الصفحة.
١٣- eds: عدة مؤلفين.
١٤- ed: كاتب واحد.
١٥- Vol: عدد أجزاء.
١٦- Page: p: صفحة.
١٧- Trad: tr: ترجمة.
١٨- N: رقم.
١٩- Fig: صورة.

المقدمة

منذ بداية ظهور الدعوة الإسلامية أخذت بعض المدن الإسلامية مظهراً حربياً، فقد كانت تعد بمثابة معسكرات حربية تفي بمتطلبات الجيوش الفاتحة، وكانت مراكز للانطلاق نحو فتوحات أخرى، وكانت استراتيجية اختيار مواقع هذه الأماكن هي أن تكون على اتصال بري مباشر بمركز الخلافة في المدينة المنورة، ولا يفصلها عنها أي موانع مائية، وكانت هذه رؤية الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب، الذي أكد هذا الأمر في اختياره مواقع البصرة، والكوفة، والفسطاط.

شهدت البلاد العربية الإسلامية في (القرنيين الخامس والسادس الهجريين / القرنيين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، أحداثاً دامية لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، جمعت بين الحروب الصليبية والغزو التتري المغولي في المشرق العربي والهجوم الإسباني في الأندلس.

حيث تركت تلك الحروب بصمتها العميقة على جميع أوجه الحياة في المشرق العربي الإسلامي في بلاد الشام والمغرب العربي الإسلامي عامةً والأندلس خاصةً، وانعكاسه على أوربة عامةً وأوربة الغربية خاصةً، بل كانت تلك الحروب بداية الطريق الذي أوصلها إلى حضارتِها المعاصرة، بأن نقل عن المشرق العربي الإسلامي آخر إبداعاتهِ في العلوم والفنون بما فيه فن الحرب والتحصين.

إن القلاع التي خلفتها تلك الحروب خير دليل على ضراوتها وعنفها من جهة، وعلى التطور الكبير الذي بلغتهُ القوات المتحاربة في فن التحصين وأنظمة الدفاع والبناء خاصة وفن الحرب عامةً. ولابد لكل من يتأمل موقع تلك القلاع، وبنيانها الشامخ، وأسوارها الحصينة، من أن يرسم في ذهنهِ صورة للوقائع الحربية الضارية التي دارت حولها، وهو مدرك على هذا النحو مدى الأهمية العسكرية التي كان يعول عليها شاغلوها، ولم تكن تلك القلاع منشآت منفردة قائمة وحدها مطلقاً، وإنما كانت تشكل سلسلة من الحصون والتحصينات العسكرية المتكاملة المترابطة فيما بينها. ومنها ما كان قائماً من عهد سابق لتلك الحروب ومنها ما شيد إبانها، لقد استغلها الفرنجة استغلالاً كاملاً حامية لوجودهم في هذه البلاد، إلا أن فن الحرب المتطور الذي مارستهُ القوات العربية الإسلامية، والقيادة الحكيمة التي تحلى بها قادتها إلى جانب الظروف التي هيأتها

الحتمية التاريخية لإنهاء الوجود الأجنبي في هذه البلاد، أدى إلى إفشال مخططات الفرنجة في إقامة دولهم اللاتينية في بلاد الشام وإلى طردهم منها نهائياً.

فقد كان دخول المرابطين للأندلس لصد هجمات الاسبان القادمة من الشمال، ومن ثم القضاء على دول الطوائف وتوحيد الأندلس مع المغرب العربي الإسلامي، فكانوا دائماً في حالة هجومية لرد وصد هجمات الإسبان، الأمر الذي جعل اهتمامهم بالتحصينات الدفاعية يأتي بشكل متأخر بعد استقرارهم بالأندلس الذي لم يستمر لفترة طويلة، ليحل مكانه الوجود الموحدي في الأندلس مع إعطاء العمارة العسكرية والأنظمة الدفاعية بصمات الموحدين كما سيتم ذكره في البحث.

هناك العديد من الأشكال للعمارة الحربية الإسلامية منها الأسوار التي بنيت لحماية المدن أو القلاع والحصون، أما البوابات فتعد جزءاً أساسياً من الأسوار وتستخدم في الدفاع والهجوم لوجود سقاطات وفتحات لرمي السوائل المحرقة ومزاغل لرمي السهام على المهاجمين، بالإضافة إلى الأبراج وهي عبارة عن بناء حربي قد يأخذ شكل مربع أو المستدير وتكون في موضع بارز فوق الأسوار، وهناك الحصون وتكون في موضع الخلاء وليس به مدنيون، ويختلف الحصن عن القلعة، حيث إن القلعة بها مدنيون، والرباط هو نوع من أنواع العمارات العسكرية والدينية في نفس الوقت، وأكثرها يوجد في شمال إفريقية.

تتضمن العمارة الحربية الإسلامية القلاع وهي مبنى كبير يشتهر بأسواره العالية وأبراجه الضخمة نسبياً وتظهر فيها مرامي السهام الموزعة بشكل دقيق لتغطي أغلب الاتجاهات، ويوجد بداخلها العديد من المرافق التي تساعد على الصمود لفترات طويلة أمام الحصار كمخازن الذخيرة والطعام ومسكن للجنود، وضمن القلعة يوجد أبار لحفظ الماء ومسكن للحاكم أو الوالي ومسجد للصلاة إضافة إلى السجون والمعتقلات.

كان للبيئة الطبيعية المحيطة أيضاً أثر كبير في استخدام مواد البناء المستخدمة مثل الأخشاب والحجارة والجص والطين.

ومن أهم أسباب اختيار هذا الموضوع هو الرغبة في دراسة العصر الأيوبي في بلاد الشام، إضافة لعصري المرابطين والموحدين في الأندلس، وما تميزت به هذه الفترة من حروب وصراعات، حروب فرنجية "صليبية" تصدى لها في تلك الفترة الأيوبيين في المشرق، وانطلاق حروب الاسترداد في الأندلس والتي تصدى لها المرابطين ثم الموحدين، والتي حمت الأندلس من

السقوط بيد الإسبان، ودراسة الأنظمة الدفاعية التي كان لها دور هام في الدفاع والتصدي والهجوم، وحماية نقاط عديدة أو حماية مدن من أية محاولة لتقدم الأعداء، وقد تنوعت هذه الأنظمة الدفاعية الأيوبية والمرابطية والموحدية، وكان لكل عصر بعض ميزاته وبصماته التي بقي بعضها شامخاً يروي لنا مدى التطور الفكري العسكري الذي وصل به المسلمين.

وقد تم تقسيم البحث إلى أربعة فصول تسبقها مقدمة ودراسة لأهم المصادر والمراجع التي كانت المنبع العلمي الأهم، وتعقبها خاتمة وقائمة المصادر والمراجع.

وجاء الفصل الأول بعنوان "الدراسة التاريخية للأيوبيين". والذي تم الحديث فيه عن أصل الأيوبيين، وعن ظهورهم على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية، في ظل الدولة الزنكية ودورهم الفعال في فتح دمشق وضمها لدولة نور الدين محمود، ثم قيامهم بتنفيذ أوامر سيدهم نور الدين محمود بالتوجه إلى مصر وحمايتها من الصليبيين وإنهاء الخلافة الفاطمية، ثم عن الجفوة التي حصلت بين صلاح الدين الأيوبي وسيده نور الدين محمود والتي انتهت بوفاة الأخير، وهنا بدأت أركان الدولة الأيوبية تظهر لتمتد من مصر وتتوحد مع الشام وحلب في جبهة عربية إسلامية واحدة لمواجهة الخطر الصليبي واستكمالاً لمشروع نور الدين محمود، ومن خلال هذه الدراسة التاريخية يتضح لنا أهمية التحصين والأنظمة الدفاعية وارتباطها بمجرى الأحداث السياسية والعسكرية، ونتابع مجرى الأحداث للدولة الأيوبية في ظل صلاح الدين وانتصاره التاريخي في معركة حطين التي كانت بداية النهاية للوجود الصليبي في المشرق العربي الإسلامي، ثم تم دراسة الدولة الأيوبية في ظل خلفاء صلاح الدين وما تم فيما بينهم من خلافات وانقسامات حول السلطة، وما تعرضوا له من حملات صليبية جديدة الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة قادمة من الغرب الأوربي والتي استطاعوا التصدي لها وإفشال جميع أهدافها وغاياتها، حتى نهاية الدولة الأيوبية على يد المماليك بقتلهم للسلطان المعظم تورانشاه سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، ليبدأ عصر جديد في المشرق هو عصر المماليك.

أما الفصل الثاني "أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية الأيوبية" وقد عالج هذا الفصل، أهم الأنظمة الدفاعية العربية الإسلامية وبداية نشأتها والتعريف بأهم العناصر الدفاعية العربية الإسلامية، ثم الأنظمة الدفاعية الأيوبية، وأهم النماذج المدروسة وهي: قلعة دمشق، وقلعة بصرى، وقلعة حمص، ودراسة أهم العناصر الدفاعية الموجودة بها من الموقع، والأبراج، والأسوار، والخندق، ومرامي السهام، والسقاطات والرواشن، والشرافات، ومواد البناء.

أما الفصل الثالث "الدراسة التاريخية لعصري المرابطين والموحدين" فقد كانت البداية مع الدولة المرابطية، حيث احتوى أصل المرابطين وتسميتهم، ثم انطلاق حركة دينية يتزعمها يحيى بن إبراهيم وعبدالله بن ياسين، ثم تحولت إلى حركة سياسية وعسكرية باسم المرابطين بزعامة أبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين، لتسيطر على المغرب العربي الإسلامي بشكل كامل تحت راية الدولة المرابطية، ثم طلب المعتمد بن عباد من هذه الدولة الجهادية إنقاذ الأندلس من هجمات الإسبان وحماية الأندلس من الوقوع بيدهم، فكان الجواز الأول والثاني وانتصار معركة الزلاقة رداً صاعقاً لتقدم الإسبان، ثم جاء الجواز الثالث والرابع للقضاء على دول الطوائف المفتتة وتوحيد الأندلس مع بلاد المغرب العربي الإسلامي، فكان ذلك تثبيت للوجود العربي الإسلامي في الأندلس، وبدأت تظهر الأنظمة الدفاعية المرابطية، ولكنها قليلة بسبب اعتمادهم على الهجوم المباشر على الإسبان والتصدي لهم وملاحقتهم، ولكن عندما فرضت الحاجة لتحصين المدن والقلاع الرئيسية اهتموا بذلك، إلا أن الفترة التي بقي بها المرابطين في الأندلس كانت قليلة لم تسمح لهم باستكمال جميع الأنظمة الدفاعية التي باشروا في بنائها أو قسم كبير منه عدل في الفترات الحديثة، ثم يتم الحديث عن خلفاء يوسف بن تاشفين والثورات التي تعرضوا إليها وخطر الموحدين الذي كان من أهم أسباب زوال حكمهم في الأندلس والمغرب العربي الإسلامي. لتبدأ دولة جهادية جديدة وهي دولة الموحدين فقد بدأت كحركة دينية إصلاحية على يد محمد بن تومرت، لتتحول إلى حركة سياسية عسكرية بقيادة عبد المؤمن بن علي الذي استطاع إنهاء حكم المرابطين في المغرب والأندلس وفرض سيطرة الموحدين، وحملهم راية الجهاد في الأندلس وانتصارهم في معركة العقاب خير دليل على ذلك، ثم الحديث عن فترة الضعف والانهيار حتى سقوط الدولة الموحدية في الأندلس والمغرب وانقسامها إلى ثلاث دول.

أما الفصل الرابع والأخير بعنوان "أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية المرابطية والموحدية في الأندلس" فتضمن الحديث في البداية عن تمهيد للأنظمة الدفاعية للعمارة العسكرية المرابطية في الأندلس، ثم الحديث عن النماذج المدروسة وهي قصر الجعفرية، وقلعة منتقوط، من حيث دراسة أهم العناصر الدفاعية الموجودة بها من الموقع، والأبراج، والأسوار، والخندق، ومرامي السهام، والسقاطات والرواشن، والشرافات، ومواد البناء، إضافة للأسوار المرابطية في قرطبة وإشبيلية. ثم الحديث عن تمهيد للأنظمة الدفاعية للعمارة العسكرية الموحدية في الأندلس، ثم الحديث عن النماذج المدروسة وهي قلعة جابر، من حيث دراسة أهم العناصر الدفاعية الموجودة بها من الموقع، والأبراج، والأسوار، والخندق، ومرامي السهام، والسقاطات والرواشن،

والشرافات، ومواد البناء. وأخيراً الدراسة المقارنة لأنظمة الدفاع وتقنيات البناء ما بين العمارة العسكرية الأيوبية في بلاد الشام والعمارة العسكرية المرابطية والموحدية في الأندلس، من خلال النماذج المدروسة، فقد تم مقارنة أهم العناصر الدفاعية الموجودة بها وهي: الموقع، والأبراج، والأسوار، والخندق، ومرامي السهام، والسقاطات والرواشن، والشرافات، ومواد البناء.

وتأتي أهمية الموضوع عندما نرى أن غالبية المصادر والمراجع العربية عالجت القضايا السياسية وتاريخ الدول والملوك وقليل منها عالج القضايا العمرانية وبخاصة العمارة الحربية، وقد واجهت البحث صعوبات في هذا البحث منها قلة المعلومات عن العمارة العسكرية الإسلامية بشكلٍ كافٍ، مقارنة بالمعلومات الغزيرة عن العمارة المدنية والدينية الإسلامية، إضافة لصعوبة الحصول على المعلومات التي تخص الجانب الأندلسي وقلتها ومعظمها باللغة الإسبانية.

وسيعتمد الباحث على منهج البحث التاريخي الوصفي والتحليلي لمعالجة كافة المحاور التي تناولتها الدراسة، ودراسة كافة المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع.

وفي النهاية، لا يسعني إلا أن أتقدم بخالص شكري وامتناني وتقديري إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور عبد السلام محمد زيدان دكتور العصور الوسطى في قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة البعث، لما بذله معي من جهد ووقت خلال فترة الدراسة، وجزاه الله عني خير الجزاء.

وأخيراً؛ أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الأصدقاء والزملاء الحقيقيين الذين كانوا لي سنداً، وإلى أمناء المكتبات في مكتبة الأسد في دمشق ومكتبة المتحف الوطني بدمشق ومكتبة كلية العمارة في جامعة دمشق وجامعة البعث ومكتبة كلية الآداب في جامعة البعث والمراكز الثقافية.

وبعد؛ فتلك هي محاولتي المتواضعة، فإن أصبت فمن الله، وإن كانت الأخرى فمن نفسي، وحسبي محاولة الاجتهاد.

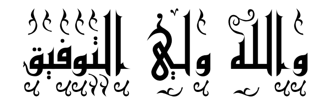

دراسة تحليلية لأهم مصادر ومراجع البحث

للأنظمة الدفاعية أهمية كبيرة، فهي المرآة العاكسة لمجريات أحداث عصرها وبخاصة لفترة الحروب الفرنجية "الصليبية" على المشرق العربي الإسلامي، وهجمات الإسبان المتكررة من الشمال على الأندلس، وما شهدته تلك الفترة من حروب وحصار وتطور تلك الأنظمة الدفاعية ساعد على الدفاع والتصدي لهجمات الأعداء. واعتمدت في الحديث عن الأنظمة الدفاعية وتقنيات البناء للعمارة العسكرية الأيوبية في بلاد الشام الأنظمة الدفاعية وتقنيات البناء للعمارة العسكرية المرابطية والموحدية في الأندلس على عدد من المصادر والمراجع العربية المعاصرة لها والقريبة منها، فضلاً عن المراجع الحديثة.

أما عن المصادر العربية فقد جاءت المعلومات فيها عن العمارة العسكرية الأيوبية في بلاد الشام والمرابطية والموحدية في الأندلس قليلة ومختصرة.

وأهم تلك المصادر ما كتبهُ ابن القلانسي في كتابه "تاريخ دمشق" تحقيق: سهيل زكار دمشق، ١٩٨٣م، وابن القلانسي هو حمزة بن أسد بن علي بن محمد، أبو يعلى التميمي المعروف بابن القلانسي، ولد في دمشق من أسرة دمشقية سنة (٤٦٢هـ / ١٠٧٠م)، وكان لهُ عناية بالحديث والأدب تولى رئاسة ديوان دمشق مرتين، وليس من شك أن رئاستهِ للديوان جعلته في وسط أخبار الوقائع والأحداث، توفي ابن القلانسي سنة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م)، وتناول ابن القلانسي أحداث المنطقة الواقعة بين عامي (٣٦٠_٥٥٥هـ / ٩٦٥_١١٦٠م)، متخذاً من مدينة دمشق محوراً لكتابه، وجاءت روايته للأحداث مقتضبة جداً، ولكنها دقيقة، بسب قربه من الأحداث. واستفدت من ابن القلانسي في اظهار أهمية دور الأيوبيين السياسي والعسكري في عهد نور الدين محمود، وخاصة عندما اشتد فيه المرض، فقد أوصى عندما أصيب بمرض حاد في (رمضان سنة ٤٥٢هـ / تشرين الأول ١١٦٠م)، أن يخلفه أخاه في حلب، كما أوصى أن تسند ولاية الشام لأسد الدين شيركوه، وعن دور أسد الدين شيركوه وأخاه نجم الدين أيوب في فتح دمشق وضمها لنور الدين محمود، لكنه أهمل الحديث عن قلعة دمشق إلا بشكل قليل ومختصر.

وأفدت من كتابي ابن الأثير "الكامل في التاريخ"، تحقيق: يوسف الدقاق، بيروت، ١٩٨٧م، المجلد٩_١٠؛ والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق: عبد القادر أحمد طليمات، القاهرة،

١٩٦٣م، وابن الأثير هو علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري، ولد بجزيرة ابن عمر سنة (٥٥٥هـ / ١١٦٠م)، ونشأ بها ثم انتقل مع والده وأخويه إلى الموصل حيث أقاموا بها إقامة دائمة، لأن والدهُ كان موظفاً عند حكام الموصل منذ حكم عماد الدين زنكي، فقد عاصر ابن الأثير الدولة الأيوبية، ورصد أحداثها ويعد كتابه الكامل في التاريخ مصدراً هاماً لتلك الفترة من التاريخ الإسلامي، وتوفي بالموصل سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٥م).

ويقع كتاب ابن الأثير في إحدى عشر مجلداً، يتناول أحداث العالم وتاريخه منذ بدء الخليقة وحتى العصر الذي عاش فيه مؤلفه، أي حتى (القرن السابع الهجري / النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي)، وكتب ابن الأثير على الطريقة الحولية وبأسلوب واضح، وامتاز بالموضوعية والأمانة والدقة في نقل الحوادث. أما الكتاب الثاني فألفه ابن الأثير في تاريخ "الدولة الأتابكية" نسبة إلى لقب أتابك الذي أطلق على عماد الدين زنكي مؤسس الدولة. ويتحدث فيه عن الدولة الزنكية بدءً من قسيم الدولة آقسنقر والد عماد الدين زنكي، ثم تناول أخبار عماد الدين زنكي، وانقسام الدولة بعد وفاته بين ولديه سيف الدين غازي الذي حكم الموصل والجزيرة، ونور الدين محمود الذي حكم حلب وتوابعها بالشام. طبعاً مع الحديث عن أصل الأيوبيين ونشأتهم في ظل الدولة الأتابكية الزنكية ودورهم السياسي والعسكري فيها، وكيف آلت الأمور بقيام الدولة الأيوبية بعد وفاة نور الدين محمود بسبب صغر سن ابنه الصالح إسماعيل، وأفدت من الكتابين في الكثير من الأحداث التي رافقت الدولة الأيوبية منذ نشأتها، وعدد من النقاط المتفرقة التي تم الإشارة إليها في البحث.

أما أبو شامة، فهو شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي الشافعي، المعروف بأبي شامة بسبب وجود شامة له فوق حاجبه الأيسر، ولد في حي متواضع من أحياء دمشق كان يعرف باسم درب الفواخير، القريب من باب شرقي في (٢٢ ربيع الآخر سنة ٥٩٩هـ / ١٠ كانون الثاني ١٢٠٣م)، وتلقى العلم على يد السخاوي، والعز بن عبد السلام. ومن مؤلفاتهِ في التاريخ "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" والمقصود بالدولتين النورية والصلاحية، الدولة النورية نسبة إلى نور الدين محمود والدولة الصلاحية نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي، فنجد في هذا الكتاب سجلاً مفصلاً لتاريخ الدولتين النورية والصلاحية، وقد اتبع أبو شامة منهج الحوليات مبتدأً بسنة (٥٤٢هـ / ١١٤٨م)، وأفدت من الكتاب في الكثير من التفاصيل الهامة من بداية ظهور الأيوبيين في ظل الدولة النورية وحتى نهاية دولتهم.

ورجعت أيضاً لكتاب "التبر المسبوك في تواريخ الملوك" أبي الفداء تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، ١٩٩٥م، فهو عمل جديد في المؤلفات التاريخية حيث وضع لنا جداول للخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين بطريقة مبسطة يسهل للباحث والقراء معرفة التاريخ الإسلامي، ثم ألقى الضوء على العصر الأيوبي بطريقة موجزة ومختصرة مع الإشارة إلى الصراعات بين الأمراء على المدن الشامية وصراع التتار والفرنج حول أملاك المسلمين. ويعد هذا الكتاب مصنف مختصراً لأمهات كتب التاريخ مثل تاريخ الطبري ومروج الذهب والكامل في التاريخ وذيل تاريخ دمشق وتاريخ دمشق والمختصر في أخبار البشر وغيرها.

وصاحب هذا العمل هو الملك المؤيد حاكم حماة عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، مؤرخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، ولد سنة (٦٧٢هـ / ١٢٧٤م) ومات سنة (٧٣٢هـ / ١٣٣٢م)، وقد استفدت منهُ في التواريخ الدقيقة لكثير من سلاطين وملوك وحكام الأيوبيين وفي تعريف بعض شخصياتهم.

وهناك مصادر أخرى منها: كتاب "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، لمؤلفه ابن تغري بردي أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي الأتابكي اليشقاوي الظاهري، مؤرخ مصري كان والده من كبار أمراء المماليك في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق وابنه الناصر فرج بن برقوق (٨١٤_٨٧٥هـ / ١٤١١_١٤٧٠م)، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، القاهرة، ١٩٩٢م. أما قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان يكنى أبو العباس، مؤرخ وقاضٍ وأديب يعد من أعلام دمشق وهو صاحب كتاب "وفيات الأعيان وأنباء انباء الزمان"، من أشهر كتب التراجم العربية، (٦٠٨_٦٨١هـ / ١٢١١_١٢٨٢م)، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.

وقد استفدت من كتاب "الروض المعطار في خبر الأقطار" لمؤلفهِ محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد النور، أبو عبد الله الحميري، (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م)، وهو رحالة وكاتب من أهل سبتة، فقد استفدت منه في تعريف الكثير من أسماء المدن والأعلام سواء الأيوبية والمرابطية والموحدية.

كذلك استفدت من كتاب "معجم البلدان" لمؤلف الشيخ الإمام شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) ٥ أجزاء، بيروت، ١٩٧٧م، ولا يعلم شيء عن مولده، وكل ما يعرف عنهُ أنه أخذ وهو حدث أسيراً من بلاد الروم، وحمل إلى

بغداد مع غيره من الأسرى فبيع فيها، فاشتراه تاجر اسمه عسكر الحموي، فنسب إليه وقيل له ياقوت الحموي، وكان الذي اشتراه جاهلاً بالكتابة، فوضعه في الكتاب ليتعلم فينتفع به في ضبط أعماله التجارية، فقرأ ياقوت شيئاً من النحو واللغة، ثم احتاج إليه مولاه، فأخذ يشغله بالأسفار في متاجره، وقد استفاد من رحلاته الكثيرة فوائد جغرافية عديدة أعطت له الفرصة في تأليف هذا الكتاب الذي لا يُعد معجماً جغرافياً فقط، وإنما هو كتاب تاريخ أدب، ومصدر من أعظم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها. وقد استفدت منه في ترجمة وتوضيح الكثير من الأماكن سواء الأيوبية أم المرابطية والموحدية.

وأفاد البحث عددٌ كبيرُ من المراجع العربية والمعربة الحديثة، ومن أهمها كان للباحث الدكتور عبد القادر الريحاوي الذي ولد في حلب سنة (١٣٤٤هـ / ١٩٢٥م)، وترعرع في "دمشق"، وحصل فيها على الثانوية العامة، ليلتحق من بعدها "بكلية الآداب" في "جامعة دمشق" وينال منها الإجازة من "قسم التاريخ" بالإضافة إلى دبلوم أهلية التعليم الثانوي ومعهد المعلمين العالي في سنة (١٣٧٠هـ /١٩٥٠م)، وعمل في الفترة ما بين (١٣٧٠_١٤٠٠هـ / ١٩٥٠_ ١٩٨٠م)، في المديرية العامة للآثار والمتاحف كمسؤول عن "الآثار وحماية التراث العمراني والمعماري"، ثم حصل على الدكتوراه في العمارة الإسلامية سنة (١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م)، ومن الكتب التي استفدت منها للدكتور عبد القادر الريحاوي، "قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية"، دمشق، ١٩٧٩م؛ "العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية"، دمشق، ١٩٧٩م؛ "العمارة في الحضارة العربية الإسلامية"، جدة، ١٩٩٠م؛ "العمارة الإسلامية"، دمشق، ١٩٩٩م؛ " قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني"؛ دمشق، ٢٠٠٠م؛ "قلعة دمشق"، دمشق، ٢٠٠٨م؛ وقد استفدت من هذه الكتب القيمة في المقدمة المعمارية لتاريخ العمارة الإسلامية سواء كانت للعمارة الأيوبية في بلاد الشام أم المرابطية والموحدية في الأندلس، كذلك في تفاصيل كثيرة عن قلعة دمشق، وعن القلاع المرابطية والموحدية في الأندلس، وعدد من النقاط المتفرقة التي تم الإشارة إليها في البحث.

كما تم الاستفادة من مجلة الحوليات الأثرية السورية، فهي مجلة منسقة ومفهرسة تبحث في أثار سورية وتاريخها، تصدرها مديرية الآثار العامة في دمشق، وتم إصدار المجلد الأول في سنة (١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م)، "فن العمارة الإسلامية" لمؤلفه نادر العطار، المجلد٣، ١٩٥٣م؛ "قلعة دمشق" لمؤلفه عدنان البني، المجلدان٤_٥، ١٩٥٤_١٩٥٥م؛ "القلعة الأيوبية في بصرى أسكى شام" لمؤلفه أي ابل، ترجمة: بشير زهدي، المجلد٦، ١٩٥٦م؛ "العمارة الأندلسية في عصر

الموحدين"، المجلد١٠، ١٩٦٠م؛ "مدينة حمص وأثارها" لمؤلفه سليم عبد الحق، المجلد١٠، ١٩٦٠م؛ "مسرح بصرى وقلعتهُ" لمؤلفه سليم عبد الحق، المجلد١٤، ١٩٦٤م؛ "بصرى في بلاد العرب" لمؤلفه" دورس ملير، ترجمة: شوقي شعث، المجلد٣٦، ١٩٨٦م؛ "قلعة دمشق في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي" لمؤلفه: هزار عمران، المجلد٤٤، ٢٠٠١م؛ حيث تم الاستفادة منها في الناحية الأثرية وتاريخ العمارة الإسلامية سواء في عصر الأيوبيين أم في عصري المرابطين والموحدين، وكذلك من الناحية الأثرية لقلعة دمشق وقلعة حمص وقلعة بصرى الأيوبية، وقلعة جابر الموحدية، وعدد من النقاط المتفرقة التي تم الإشارة إليها في البحث.

ومن المراجع الأجنبية التي استفت منها:

ليوبولدو توريس بالباس، (Leopoldo Torres Balbás)، (١٣٠٦_١٣٨٠هـ / ١٨٨٨_١٩٦٠م)، مهندس معماري وعالم آثار إسباني اهتم بالآثار الإسلامية في إسبانيا، ومن أهم الكتب والمقالات التي تم الاستفادة منها لعالم الآثار ليوبولدو توريس بالباس.

"Paseos arqueológicos por la Espmia musulmana", Murcia, 1934.

“Dos obras de arquitectura almohade", Guadaira, 1941.

"Los zócalos pintados en la arquitectura hispanomusulmana", Al-Ándalus, Madrid, 1942.

"Arte almohade, arte nazarí, arte mudéjar", «artes Hispania», Madrid 1949.

"Ciudades hispanomusulmanas", Madrid, 1985.

فقد استفدت من هذه الكتب والمقالات فيما يخص الناحية الحضارية وتاريخ العمارة الإسلامية في الأندلس وفي الحديث عن قصر الجعفرية وقلعة منتقوط والأسوار المرابطية في الأندلس وعن قلعة جابر الموحدية في الأندلس، وعدد من النقاط المتفرقة التي تم الإشارة إليها في البحث.

وأخيراً فإن هناك مراجع عربية وأجنبية ومقالات يطول ذكرها تم الاستفادة منها في البحث وسوف نتعرف عليها في مكانها من الرسالة.

الفصل الأول

الدراسة التاريخية للأيوبيين

أولاً_ أصل الأيوبيين.

ثانياً_ ظهور الأيوبيين على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية:

١_ دور الأيوبيين في إسقاط الخلافة الفاطمية بمصر.

ثالثاً_ صلاح الدين الأيوبي وتأسيس الدولة الأيوبية:

١_ صلاح الدين في فترة الوزارة (الفاطمية_الزنكية).

٢_ الجفوة بين نور الدين محمود وصلاح الدين.

٣_ سيطرتهِ على الشام وتوحيدها مع مصر.

٤_ تحصين مصر "تحصين عاصمة البلاد".

٥_ جهوده في محاربة الصليبيين "قبل معركة حطين".

٦_ جهوده في محاربة الصليبيين "معركة حطين".

٧_ جهوده في محاربة الصليبيين "بعد معركة حطين".

أ_ سيطرته على بيت المقدس.

ب_ سيطرته على الشمال الغربي لبلاد الشام.

ج_ الحملة الصليبية الثالثة.

رابعاً_ خلفاء صلاح الدين ودورهم السياسي والعسكري:

١_ السلطان الأفضل نور الدين علي (٥٨٩_٥٩٢هـ / ١١٩٣_١١٩٦م).

٢_ السلطان العزيز عماد الدين عثمان (٥٩٢_٥٩٥هـ / ١١٩٦_١١٩٨م).

٣_ السلطان المنصور محمد بن عثمان (٥٩٥_٥٩٧هـ / ١١٩٨_١٢٠١م).

٤_ السلطان العادل أحمد أبي بكر (٥٩٥_٦١٥هـ / ١٢٠١_١٢١٨م):

أ_ الحملة الصليبية الرابعة.

ب_ الحملة الصليبية الخامسة.

٥_ السلطان الكامل محمد (٦١٥_٦٣٥هـ / ١٢١٨_١٢٣٨م):

أ_ الحملة الصليبية السادسة.

٦_ السلطان العادل الثاني (٦٣٥_٦٣٧هـ / ١٢٣٨_١٢٤٠م).

٧_ السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧_٦٤٧هـ / ١٢٤٠_١٢٤٩م):

أ_ الحملة الصليبية السابعة.

٨_ السلطان المعظم تورانشاه (٦٤٧_٦٤٨هـ / ١٢٤٩_١٢٥٠م).

لا يخفى على المهتمين بدراسة تاريخ المشرق العربي خلال العصور الإسلامية أهمية عصر الأيوبيين بالذات، بوصفه العصر الذي عانى حلقة من أخطر حلقات الحركة الصليبية. ففي ذلك العصر أخذت الصحوة الإسلامية تنطلق لتأخذ شكل موجة جهاد كبرى ضد الوجود الصليبي الفرنجي في بلاد الشام. وقد ساعد على نجاح ذلك تحقيق الوحدة بين مصر والشام في ظل الحكم الأيوبي. وبعبارة آخرى تأتي أهمية العصر الأيوبي أنه حول الغزو الصليبي من الهجوم إلى الدفاع، وتحول المسلمون خاصةً في بلاد الشام من الدفاع إلى الهجوم.

أولاً_ أصل الأيوبيين:

تعددت الروايات بين المؤرخين حول أصل الأسرة الأيوبية واختلفت، وقد أدى ذلك إلى اختلاف القول بين أمرائهم وملوكهم حول أصلهم، هل هو عربي أم كردي.

من خلال دراسة موطن الأيوبيين الأصلي ونشأتهم الأولى، يظهر بشكل واضح أنهم أكراد، يعود أصلهم إلى أيوب بن شاذى بن مروان من بلد دوين[١]، من جهة منطقة أرمينية وهي آخر حدود أذربيجان[٢] بالقرب من مدينة تفليس[٣]، وجميع أهل ذلك البلد من الأكراد الراوندية[٤]، وهم من بطون الهذبانية[١].

١– دوين: بلدة في آخر حدود أذربيجان من جهة بلاد الكرج. الحايك (منذر): مملكة حمص في العصر الأيوبي، دمشق، دار طلاس، ط١، ٢٠٠٠م، ص٥٩.

٢– أذربيجان: صقع جليل، ومملكة عظيمة، الغالب عليها الجبال، فيه قلاع كثيرة، وخيرات واسعة وفواكه جمة، هي بلاد فتن وحروب. الحموي (ياقوت بن عبد الله، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م): معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧م، ج١، ص١٢٨.

٣– تفليس: بلد بأرمينية الأولى، وهي مدينة قديمة أزلية، افتتحها المسلمون أيام الخليفة عثمان بن عفان، رضي الله عنهُ. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٥_٣٦.

٤– الأكراد الرواندية: لقد تم ذكرها ببعض المصادر العربية باسم أكراد الروادية. أبو شامة (عبد الرحمن إسماعيل بن عثمان، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، ٢ جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٩٨م، ج١، ق٢، ص٣٢٩؛ أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٩٩٥م، ص٦٤ ؛ المقريزي (أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، ٣ جزء، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٨م، ج٣، ص١١٣.

وهم من الأكراد الرحل يقطن بعضهم في جبال برادوست ضمن ناحية سيدكان التابعة لمحافظة أربيل في العراق، ولفظة الروند (ره و هـ ند) وتعني القبيلة الرحالة، موطن هذا الفرع تمتد من سهل أربيل في العراق إلى أطراف بحيرة أورمية داخل

حاول بعض الأيوبيين الابتعاد عن الأصل الكردي وإنكاره، والالتصاق بالأصل العربي من ناحية، والارتباط بأصحاب الأمجاد العالية من ناحية أخرى، فادعوا أنهم عرب الأصل وقد نزلوا عند الأكراد وتزوجوا منهم[٢]، بل ذهب بعضهم إلى أكثر من ذلك بالادعاء بأنهم من نسل الخليفة الأموي مروان بن محمد (١٢٧_١٣٢هـ / ٧٤٥_٧٥٠م) آخر الخلفاء الأمويين كما ذكر الملك المعز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب (٥٧٧_٥٩٣هـ / ١١٨١_١١٩٩م) ملك اليمن[٣]، وذلك أيام عمه الملك العادل محمد سيف الدين (٥٣٩_٦١٥هـ / ١١٤٤_١٢١٨م)، فلما بلغهُ ذلك صعب عليه، وقال: كذب والله، ما نحن من أمية أصلاً[٤]، ولم يكن صلاح الدين يوسف الأيوبي (٥٦٤_٥٨٩هـ / ١١٦٩_١١٩٣م)، أقل من أخيهِ الملك العادل محمد إنكاراً لهذا الادعاء، فقد ذكر المؤرخ القاضي بهاء الدين بن شداد أن السلطان يوسف صلاح الدين أنكر النسب العربي، وقال "ليس لهذا الأصل أصلاً"[٥]، وقد حسم شيخ المؤرخين المقريزي هذا الجدل عندما علق على محاولة بعض الأيوبيين الخروج عن دائرة الأصل الكردي، بذكره هذا الأمر "إنما هي أقوال الفقهاء لهم، ممن أرادوا الحظوة لديهم، لما صار الملك اليهم"[٦].

وهكذا يتبين بأن الأيوبيين هم أكراد النسب وليسوا عرباً، وإنما بعد تسلمهم الحكم في البلاد كثرت وتعددت الروايات لاسترضائهم وإعلاء شأنهم، ولكنهم فوق كل هذا هم مسلمون مجاهدون.

ايران. زكي (محمد أمين): تاريخ الكرد، تر: محمد علي عرتي، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٩م، ص١٤، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٦.

١- ابن الأثير (علي بن أحمد، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح: عبد القادر طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣م، ص١١٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: محمد يوسف الدقاق، ١١ مجلد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٧م، مجلد١٠، ص١٦؛ ابن كثير (إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ٢١ جزء، القاهرة، دار هجر، ط١، ١٩٩٨م، ج١٦، ص٤٣٨؛ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، ١٦ جزء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م، ج٦، ص٣_٤؛ قلعجي (قدري): صلاح الدين الأيوبي، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٢م، ص١٥١.

٢- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله، ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٦م): كنز الدرر وجامع الغرر _ الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، تح: سعيد عاشور، ٨ جزء، القاهرة، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، ١٩٧٢م، ج٧، ص٥.

٣- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٣٥.

٤- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٦٦.

٥- ابن خلكان (أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تح: حسان عباس، ٨ أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م، ج٧، ص١٤١.

٦- المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١١٣.

ثانياً_ ظهور الأيوبيين على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية:

كان مروان جد الأيوبيين يخدم في جيش السلاجقة[١]، واشتهر بينهم بقوته وشجاعته حتى قيل كان يمسك ذنب الفرس ويقول للراكب حرك فرسك فلا ينتقل خطوة، وكذلك ولده شاذى كان يقف في وجه الفرس في قوة جريه فيصدمه بصدره فيوقفه[٢]. وقد وضعت هذه الروايات والمبالغات لإرضاء الأيوبيين وإظهارهم بمظهر الأقوياء الجبابرة.

لا يمكن أن يتم تحديد التاريخ الدقيق الذي انتقلت فيه الأسرة الأيوبية من موطنها الأصلي بلدة دوين، وإن ظهورهم الأول على ساحة الأحداث السياسية والعسكرية، وفقاً لما ذكرهُ بعض المؤرخين، أن شاذياً كان له صديق في تلك البلدة اسمه مجاهد الدين بهروز[٣] (٥٠٢_٥٤١هـ / ١١٠٨_١١٤٧م) تولى شحنكية بغداد[٤] "رئيس الشرطة بها" من قبل السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه (٤٩٧_٥١٢هـ / ١١٠٤_١١١٨م)، ومنحهُ قلعة تكريت[٥] الواقعة على نهر دجلة إقطاعاً، ثم عين بهروز صديقهُ شاذى حاكماً على تلك القلعة[٦]، وهي بلدة كردية وسكانها أكراد[٧]،

١- السلاجقة: ينحدر السلاجقة من قبيلة "قنق" التركمانية في منطقة ما وراء النهر والتي تعرف اليوم "تركستان"، عرفوا بالترك أو الأتراك، تحركت هذه القبائل في (النصف الثاني من القرن السادس الميلادي) بالانتقال من موطنها الأصلي نحو آسيا الصغرى في هجرات ضخمة. الصلابي (علي): دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٩.

٢- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٨.

٣- بهروز: تولى شحنكية بغداد لأول مرة من قبل السلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، ثم أصبح أحد أمراء السلطان مسعود بن محمد السلجوقي، عينه على شحنة بغداد ومتولي العراق حتى أصفهان وكانت خيله خمسة آلاف فارس. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٣٦.

٤- بغداد: أول من جعلها مدينة الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بالله (٩٥_١٥٨هـ / ٧١٤_٧٧٥م)، وبغداد جنة الأرض ومدينة الروم ومجمع الرافدين ودار الخلافة العباسية وعين العراق. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٥٧_٤٦١.

٥- تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، لها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة وهي غربي دجلة وكان وكان أول من بنى هذه القلعة سابور بن أزدشير. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٨.

٦- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٨؛ عنان (محمد عبد الله): تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٢، ١٩٧٠م، ص٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٢؛ سيمينوفا (ليديا): صلاح الدين والمماليك في مصر، تر: حسن بيومي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م، ص٣٠.

أكراد[1]، حيث استمر في وظيفتهِ إلى أن توفي، فرأى مجاهد الدين بهروز في ابنهِ نجم الدين أيوب عقلاً ورأياً حسناً وحسن سيرة فولاه مكان أبيه[2].

فلم يعد أمام الباحثين في التاريخ إلا تاريخ تولي بهروز شحنكية بغداد لارتباطه بتاريخ الأيوبيين المبكر، وإذا عرفنا أن بهروز تولى شحنة بغداد لأول مرة سنة (٥٠٢هـ / ١١٠٩م) فإن ما يمكن استنتاجه منذ ذلك أن شاذياً رحل من بلدة دوين بابنيه أيوب وشيركوه قبل ذلك بقليل، أي في بداية (القرن السادس الهجري / بداية القرن الثاني عشر الميلادي)[3]، ثم شأت الأيام أن يترك نجم الدين أيوب وأخاه أسد الدين شيركوه حكم تكريت، إذ حدث أن أتابك الموصل[4] عماد الدين زنكي (٥١٦_٥٤١هـ / ١١٢٢_١١٤٦م) هاجم بغداد سنة (٥٢٦هـ / ١١٣٢م) إلا أنهُ لقي الهزيمة على يد قراجة الساقي، وأجبر على التقهقر، فوصل إلى تكريت وهناك لقيه حاكمها نجم الدين أيوب بالترحاب، وساعده وفلوله، في عبور نهر دجلة إلى الضفة الغربية، فخدمه نجم الدين أيوب بأن قدم له السفن[5]، وأخرجهما بهروز من قلعة تكريت وذلك لأن أسد الدين قتل رجلاً رجلاً من المقربين من بهروز دون سبب، وتذكر المصادر أنه في نفس الليلة التي غادر فيها نجم الدين أيوب قلعة تكريت ولدَ لهُ ولد سماه يوسف صلاح الدين الأيوبي في سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٨م)[6]، فقصدا عماد الدين زنكي بالموصل، حيث رحب بهما وأحسن إليهما، رداً لجميلهما

١- ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٣_٤؛ العبادي (أحمد مختار): تاريخ الأيوبيين والمماليك، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٥م، ص٤٢؛ الباقوري (عبد العال): صفحات من تاريخ الحروب الصليبية – حطين طريق الانتصار، المنيا مصر، دار الهدى، ط١، ١٩٩٨م، ص١٥.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٨؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص٦.

٣- بيومي (علي): قيام الدولة الأيوبية، القاهرة، دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٥٢م، ص٦٢.

٤- الموصل: في الجانب الغربي من دجلة وسميت بهذا الاسم لأنها وصلت بين الفرات ودجلة، وشرب أهلها من ماء دجلة دجلة وفي أعلى البلدة قلعة عظيمة قد رص بناؤها رصاً وفي المدينة مدارس للعلم. الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م، ص٥٦٣.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١١٩؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٢٩، ٥٣٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٦٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٥.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١١٩؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٣٧_٥٣٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٦٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٢؛ العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٢؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص١٦؛ ليونز (ملكوم كامرون)، جاكسون (و. د. أ. ب): صلاح الدين، تر: علي ماضي، تح: نقولا

القديم، ومنحهم إقطاعات وافرة، وانخرطا في سلك جنده، ويبدو أنهما بذلا جهداً قوياً في حروب عماد الدين زنكي، بدليل أنه ما كاد يستولي على حصن بعلبك[١] سنة (٥٣٣هـ / ١١٣٩م) حتى أسند قيادته إلى نجم الدين أيوب[٢].

عندما سقط عماد الدين زنكي قتيلاً في سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م) على يد أحد غلمانه، خلفهُ ولداه سيف الدين غازي (٥٠٩_٥٥٤هـ / ١١١٥_١١٥٩م) في الموصل ونور الدين محمود[٣] (٥١١_٥٦٩هـ / ١١١٧_١١٧٤م) في حلب، ويذكر إن نجم الدين أيوب شعر بضعف موقفه في بعلبك بعد أن طمع فيها حاكم دمشق مجير الدين أبق (٥٣٤_٥٤٩هـ / ١١٤٠_١١٥٤م) وطالبه بتسليمها. فطلب نجم الدين أيوب من سيف الدين غازي أن يتسلم منه بعلبك، لكنهُ كان مشغولاً آنذاك بترتيب الممالك الشرقية فخاف نجم الدين أيوب من أن تأخذ منه عنوة، لذلك اضطر إلى تسليمها لحاكم دمشق، فمنحهُ عوضاً عنها منزلاً وإقطاعاً وصار من أصحاب المكانة الرفيعة لديه[٤]. أما أسد الدين شيركوه، أصبح في خدمة نور الدبن محمود بن زنكي، فعينه أميراً وحاجباً على الأكراد في جيشه[٥]، فقربه إليه ومنحهُ إقطاعاً، ونظراً لشجاعته وجرأته في الحروب عينه على الرحبة[٦]وحمص[٧]، ومما يؤكد المكانة الرفيعة التي بلغها شيركوه لدى نور الدين محمود أن الأخير عندما أصيب بمرض حاد في (رمضان سنة ٤٥٢هـ / تشرين الأول ١١٦٠م)، ولما

زيادة، فهمي سعد، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م، ص١٣؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص٣٠.

١- بعلبك: مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٥٣.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٢٠؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص٢٥٠، ق٢، ص٣٣٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٦٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٤_٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٥_١٥٦؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص١٦_١٧؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص٣٠.

٣- نور الدين: هو محمود بن زنكي الملقب بالملك العادل ملك الشام وديار بكر والجزيرة ومصر، ولدَ في حلب سنة (٥١١هـ / ١١١٨م)، واهتم بالجهاد ضد الصليبيين، نشر العدل في بلاد الشام، ومنح عرب البادية إقطاعات لئلا يتعرضون للحجاج واهتم بالعمارة العسكرية والمدنية. أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص٦٣.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص١٢٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٦.

٥- ابن أيبك: الدر المطلوب في اخبار بني أيوب، ج٧، ص٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٦.

٦- الرحبة: وهي مدينة في شرقي الفرات، حصينة عامرة عليها سور تراب ولها أسواق وعمارات وكثير من التمر. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٦٨.

٧- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٢٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٥.

اشتد فيه المرض، أوصى أن يخلفه أخاه وأن يقيم في حلب، كما أوصى أن تسند ولاية الشام لأسد الدين شيركوه، واستحلف على ذلك كبار رجال دولته لتنفيذ وصيته، ولما وردت الأخبار إلى أسد الدين شيركوه بشفاء نور الدين توجه إليه مباشرة إلى حلب[١].

بينما كان نور الدين محمود يستعد للتدخل في أحوال دمشق، بلغهُ خبر وفاة أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل في (جمادى الثاني سنة ٥٤٤هـ / تشرين الأول ١١٤٩م)، وما تبع ذلك من قيام قطب الدين مودود (٥٤١_٥٤٤هـ / ١١٤٦_١١٤٩م)، وهو الابن الثالث لعماد الدين زنكى والذي كان مقيماً معه بوضع يده على الموصل، عند ذلك سار نور الدين نحو الموصل على رأس قوة صغيرة بلغت سبعين فارساً، من بينهم أسد الدين شيركوه[٢].

يظهر دور الأيوبيين السياسي أثناء محاولة نور الدين ضم دمشق بالقوة سنة (٥٣٤هـ / ١١٣٩م)، ثم حصارهِ الثاني لدمشق سنة (٥٤٩هـ / ١١٥٤م) وتراجعه لإجراء المفاوضات مع مجير الدين أبق حاكم دمشق، حيث اشترك في المفاوضات أسد الدين شيركوه نيابة عن نور الدين وأخوه نجم الدين أيوب نيابة عن مجير الدين أبق، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين الجانبين[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه دور الأيوبيين في استيلاء نور الدين محمود على دمشق، فقد راسل أسد الدين شيركوه أخاه نجم الدين أيوب أثناء المفاوضات[٤]، طالباً منه المساعدة على فتح دمشق، فأجابه على ذلك، الأمر الذي أدى إلى ازدياد ارتفاع مكانة الأخوين عند نور الدين، وبلغ من تقدير الأخير لهم أن "جميع الأمراء كانوا لا يقعدون عند نور الدين محمود إلا يأمرهم بذلك، إلا أن نجم الدين أيوب فإنه كان إذا دخل إليه قعد من غير أن يؤمر بذلك"[٥].

١– ابن القلانسي (حمزة بن أسد، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م): تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ط١، ١٩٨٣م، ص٥٣٣،٥٣٥؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص٢٧٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٤٥.

٢– ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص٩٥_٩٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص١٧١_١٧٢؛ مؤنس (حسين): نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩م، ص٢٣٩_٢٤٠.

٣– ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٣٧١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٧_١٥٨.

٤– ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٤٨٩.

٥– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٨٧؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٦؛ عاشور (سعيد): الناصر صلاح الدين، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٥م، ص٥٩.

١ـ دور الأيوبيين في إسقاط الخلافة الفاطمية بمصر:

لقد دخلت الدولة الفاطمية بدور الضعف والانحلال منذ (القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي) وحتى سقوطها، الأمر الذي حال دون قيامها بأي عمل حربي جهادي فعال.

بعد سيطرت نور الدين على حلب وحمص وحماة ودمشق، أدرك الصليبيون بعدم إمكانيتهم التوسع في بلاد الشام، وأن الطريق الوحيد المفتوح أمامهم هو طريق مصر، حيث كانت الخلافة الفاطمية تعاني آلام الموت البطيء[١].

تطلع نور الدين محمود إلى مصر، لإدراكه أن الجبهة الإسلامية في الشام ضد الصليبيين، لا تقوى وتتماسك إلا إذا انضمت إليها مصر بمواردها الاقتصادية والبشرية الكبيرة، وهي إذا اتحدت مع الشام كانت بداية النهاية للوجود الصليبي في بلاد الشام[٢].

وهكذا طمح كل من نور الدين محمود والصليبيون إلى الاستيلاء على مصر، التي جعلت منها الظروف ميداناً للصراع والتنافس بينهما، الأمر الذي دفع إلى ظهور الدور العسكري والسياسي الذي لعبهُ الأيوبيين في مصر باسم الزنكيين ثم خروجهم عن الزنكيين وإقامة الدولة الأيوبية.

كان من أهم أسباب ضعف الخلافة الفاطمية في مصر هو تسلط الوزراء[٣]، وسوء أحوالها الاقتصادية، ويضاف ضعف تأثير المذهب الإسماعيلي[٤] في مصر[٥].

١- عاشور: الناصر صلاح الدين، ص٥٩؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٢.

٢- العريني (السيد الباز): مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة، مطبعة الكيلاني الصغير، ١٩٦٠م، ص٢١_٢٢.

٣- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص١٥،٢٧. ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٧.

٤- الإسماعيلية: فرقة من فرق الشيعة الامامية تنسب الى إسماعيل بن جعفر الصادق، وبعد وفاة إسماعيل حوالي سنة (١٤٣هـ / ٧٦٠م) تفرق أبناؤه في فارس وخراسان والهند، ومنهم الى الشام وبلاد المغرب ومن زعماء الإسماعيلية الحسن بن الصباح زعيم طائفة عرفت بالحشاشين واشتهرت بالاغتيال السياسي، واتصل تاريخهم في الشام بصلاح الدين الأيوبي والصليبيين والتتار. ابن شداد (عز الدين محمود علي بن إبراهيم، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، ٣ أجزاء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩١م، ج٢، ق٢، ص٤٨.

٥- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص١٤٢_١٤٣؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص٣٧_٣٨.

نتيجة الصراع على منصب الوزارة في مصر أيام الفاطميين، ففي سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م) خرج شاور (٥٥٨_٥٦٤هـ /١١٦٣-١١٦٩م) من الصعيد[١] بجموع كثيرة ودخل القاهرة[٢] واستطاع قتل الوزير العادل زريك واستولى على منصب الوزارة ولقب نفسه بأمير الجيوش والملك الصالح، ولكن بعد فترة من العام نفسه خرج ضرغام بن عامر بجموع كثيرة وأخرجهُ من القاهرةُ، وقتلَ ولدهُ ليستولي على منصب الوزارة وتلقب بالمنصور[٣]، توجه شاور للشام مستجيراً بنور الدين محمود[٤].

لقد تخوف نور الدين محمود من إرسال قواته إلى مصر، لخوفه من أن تتعرض قواته للأخطار من قبل مملكة بيت المقدس الصليبية التي تقع أراضيها بين دمشق ومصر، ولكن الفضل يعود لأسد الدين شيركوه في إقناع نور الدين محمود، مما يدل على أن شيركوه من أبرز الشخصيات المؤثرة في توجيه سياسة نور الدين زنكي وعلى معرفة أسد الدين شيركوه بالأوضاع السياسية في مصر[٥]، حيث تم إرسال حملة أسد الدين شيركوه الأولى على مصر، في (جمادى الثاني سنة ٥٥٩هـ / ١١٦٤م)، ومعه ابن أخيه يوسف بن أيوب[٦]، وقد حرص نور الدين محمود محمود على اختيار أسد الدين شيركوه قائداً لحملته، وأن نور الدين كان يتفاءل خيراً بأسد الدين شيركوه فهو لم يرسله في أمر إلا ونجح[٧].

١- الصعيد: هي أعالي بلاد مصر وكأنه الصاعد منها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٦١.

٢- القاهرة: قاعدة الملوك المصريين ودار ملكهم في البلاد المصرية، وقد بناها العبيدين الشيعة الذين كانوا بها، وهي مدينة كبيرة بناها جوهر الصقلي سنة (٣٥٨هـ / ٩٦٩م)، في عهد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣١٩_٣٦٥هـ / ٩٣١_٩٧٥م). الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٥٠.

٣- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة الخانجى، ط٤، ١٩٩٦م، ص٧٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٥؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٣١_٣٣٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٠٩؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٤٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٧_١٨.

٤- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٧٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٥؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ٣٣٢؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٢٤٩؛ الشيال (جمال): مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٢م، ص١٧٠.

٥- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٢٠_١٢١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٥.

٦- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٦.

٧- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ٣٣٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٨.

قدم شاور إلى مصر ومعه قوات الشام يتقدمهم أسد الدين شيركوه وابن أخيه يوسف صلاح الدين من قبل الملك العادل نور الدين محمود، ولمواجهة هذا الموقف استنجد ضرغام بالصليبيين، وتعهد لعموري الأول[1] (٥٣٠_٥٦٩هـ / ١١٣٦_١١٧٤م) ملك مملكة بيت المقدس، مقابل مساعدته بأن يعقد معه معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين[2]، ولكن مهارة أسد الدين شيركوه وسرعته في قطع الصحراء الشرقية مكنتهُ من أن يسبق الصليبيين في الوصول إلى الدلتا[3]، حيث خرج ضرغام إليهم ودارت بين الطرفين معركة كانت نتيجتها مقتل ضرغام، فكانت مدة وزارتهِ على مصر تسعة أشهر وعشرة أيام، وعاد شاور إلى وزارته الثانية في جمادى الآخرة من هذه السنة، أما أسد الدين شيركوه وقواته فأنزلهما في ظاهر القاهرة في مخيم، وأرسل لهم شاور الطعام لكنهُ تأخر عنهم فيما وعدهُ من أموال ونفقات للجيش، كما وعدهم بإعطائهم ثلث مدخول مصر من الحبوب، وأرسل له أسد الدين شيركوه يحثهُ على دفع النفقات، لكنهُ نكثَ جميع عهودهِ ومواثيقهِ لأسد الدين شيركوه، لكنهُ أرسل ثلاثين ألف دينار مقابل خروجهم من مصر[4].

ولكي يتخلص شاور من أسد الدين شيركوه ويخرجه من مصر، التجأ إلى ملك مملكة بيت المقدس الملك عموري الأول، ولما تأكد أسد الدين شيركوه من غدر شاور، سيطر على بلبيس[5]، فتجمع شاور والصلبيين على حصار وقتال أسد الدين في بلبيس وأثناء الحصار وردت أخبار للصليبيين بهزيمتهم في حارم من قبل نور الدين محمود فخافوا على بلادهم، لذلك صالحوا أسد

١- عموري الأول: يعرف في المؤلفات العربية باسم أموري أيضاً، تولى مملكة بيت المقدس الصليبية سنة (٥٥٧هـ / ١١٦٢م)، بعد وفاة بلدوين وبقي على مملكته حتى توفي سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٤م)، وكان في ٢٧ من عمره عند اعتلائه العرش، وفي عهده تقدمت جيوش الفرنج من الشام نحو مصر للاستيلاء عليها في أواخر عهد الفاطميين بسبب صراع الوزراء ضرغام وشاور وانتهت باستيلاء أسد الدين شيركوه على مصر باسم نور الدين زنكي وقيام الأسرة الأيوبية. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص٢٩٣.

٢- عاشور (سعيد): الحركة الصليبية ، ٢ جزء، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٨٦م، ج١، ص٥٣٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٣.

٣- عاشور (سعيد): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م، ص١٣.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٣٣_٣٣٥ ،٤٢٠؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٠٩_٤١٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٩٣٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٨؛ ليونز ، جاكسون: صلاح الدين، ص١٩_٢٠.

٥- بلبيس: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام، فتحت في سنة (١٨ أو ١٩هـ / ٦٣٩،٦٤٠م) على يد عمرو بن العاص. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٧٩.

الدين، وبعد أن أخذ الملك عموري الأموال من أسد الدين فتح له الطريق، وتوجهوا جميعاً إلى الشام وفي قلب أسد الدين نار لا تطفئ من فعل شاور[١].

ولكن إذا كانت جيوش نور الدين محمود والملك عموري الأول قد انسحبت من مصر سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م)، إلا أن الطرفين خرجا من تلك التجربة بفكرة واضحة عن ثروة مصر وغناها من ناحية مع ضعفها الشديد من ناحية أخرى[٢]. ومع ذلك كان هناك دائماً سبباً قوياً يحرك نور الدين محمود للسيطرة على مصر، وهو توحيد مصر والشام، ضد الخطر الصليبي، فوجود الخلافة الفاطمية في مصر جعل هناك خلافتان ومذهبان لذلك أراد القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر[٣].

بعد ذلك تفرد شاور بالسلطة بمصر، بحيث لم يبق للخليفة الفاطمي العاضد (٥٤٦_٥٦٧هـ / ١١٥١_١١٧٢م) معهُ لا أمرُ ولانهيُ، لذلك كتب الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين محمود يستنجد به ليخلصه من شاور[٤]، فكانت حملة أسد الدين شيركوه الثانية إلى مصر في (ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ / كانون الثاني ١١٦٧م) ومعهُ ابن أخيه صلاح الدين وألفان من أفضل الفرسان[٥]، وقد أدرك أسد الدين شيركوه بأن شاور سوف يستنجد بالصليبيين، لذلك سلك الطريق الصحراوية بين مصر والشام لتجنب الصدام مع الصليبيين في مملكة بيت المقدس حفاظاً على قواتهِ، ولم يقم بالهجوم على القاهرة[٦]، بل عبر النيل إلى الجيزة[٧] وعسكر في مواجهة مواجهة الفسطاط[٨] على الضفة الغربية لنهر النيل، وعندئذ أدرك الخليفة الفاطمي العاضد أن

١– أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٣٥_٣٣٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٧_٢٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤١٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٩٣٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٦٨_١٦٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٠_٢١.

٢– ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٧٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢١.

٣– عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٥؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٤.

٤ – ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٣٤٨.

٥– ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٢١.

٦– ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٨.

٧– الجيزة: بلدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة واسعة وهي من أفضل كور مصر. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٠٠.

٨– الفسطاط: اسم مصر التي بناها مصرام بن حام بن نوح عليه السلام، سميت بفسطاط عمرو بن العاص رضي الله عنه، فمدينة مصر اليوم هي الفسطاط وهي مدينة كبيرة في غاية من العمارة والطيب والحسن. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٤١_٤٤٢.

خطر قوات نور الدين محمود عليه وعلى خلافته لا تقل عن خطر شاور والصليبيين[1]. وبالفعل سرعان ما استنجد شاور بالملك عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبية، والذي لبى طلبهُ في آوّاخر سنة (٥٦٢هـ / ١١٦٧م) لغزو مصر، وقد استقبل شاور حلفائه عند بلبيس وعسكروا على الضفة الشرقية للنيل، بعد أن تعهد شاور للصليبيين بدفع أربعمائة ألف دينار في حالة بقائهم حتى طرد أسد الدين شيركوه من مصر، على أن يدفع نصف هذا المبلغ مقدماً[2].

من الواضح أن هذه الاتفاقية جعلت من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية، لذلك تحمس الصليبيون، وحرص الملك عموري الأول على إكسابها صفة رسمية، فأرسل سفارة إلى الخليفة الفاطمي العاضد في قصرِهِ، حيثُ تم اعتماد الاتفاق بين الطرفين[3].

جاء الملك عموري الأول بخيلهِ ورجالهِ بعد أن وصلت له الأموال حسب الاتفاق، والتقى مع شيركوه بعدّة معارك عنيفة، مما اضطر أسد الدين شيركوه إلى التوجه للصعيد فلحقوه[4]، واستمرت واستمرت المعارك مدة ثلاثة أيام كان النصر حليف شاور وعموري الأول[5]، لولا سياسة أسد الدين الدين شيركوه في إرسال الأموال لعرب الصعيد، فقد عارضت القبائل العربية سياسة شاور وأيدت أسد الدين شيركوه وعاونته عن طريق انضمامها إلى جيشهِ في صراعهِ ضد شاور والصليبيين[6]، وقد لبت القبائل العربية صلاح الدين وانهزم شاور والملك عموري الأول ورجعوا إلى القاهرة وأخذَ صاحب قيسارية[7] أسيراً، وسار أسد الدين شيركوه بعدها إلى الإسكندرية[8] وأقام بها مدة وجيزة، فتوجه شاور والملك عموري الأول إلى الإسكندرية في الوقت الذي خرج أسد الدين شيركوه لجلب المساعدة من الصعيد فحاصر شاور والملك عموري الأول الإسكندرية براً وبحراً، لمدة سبعة

١- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٥.

٢- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٧١_١٧٢.

٣- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٤.

٤- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٣٢.

٥- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٨.

٦- السيد (محمود): تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٨م، ص١٠.

٧- قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية مسافة ثلاثة أيام. فتحها معاوية في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ (٤٤هـ / ٥٧٩_٦٤٤م). ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٠٨؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٨٦.

٨- الإسكندرية: مدينة عظيمة من ديار مصر بناها الاسكندر بن فيلبش فنسبت اليه وهي على ساحل البحر المتوسط، والإسكندرية تعجب كل من رأها ببهجتها وحسن منظرها وارتفاع مبانيها واتقانها، واسعة طرقاتها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٤، ٥٦.

وخمسين يوماً، استطاع صلاح الدين مقاومة هذا الحصار، ولفك الحصار عن صلاح الدين في الإسكندرية توجه أسد الدين شيركوه من الصعيد إلى القاهرة وضيق الحصار على الخليفة الفاطمي العاضد، وطلب الصلح، فرأى العاضد وكبار البلد أن يصالحوه، على أن يسلم صاحب قيسارية وجميع الأسرى الذين معه ويفك الحصار عن القاهرة، مقابل فك الحصار عن الإسكندرية والسماح له بالتوجه إلى دمشق دون التعرض لهم[١]، واشترط أن يخرج الصليبيون أيضاً من مصر[٢].

وافق الملك عموري الأول على الاتفاق، على الرغم من قوة موقفه في مصر، وذلك بسبب زيادة نور الدين محمود هجماته على الصليبيين في بلاد الشام، وأن الملك عموري الأول لم يغادر مصر إلا بعد أن فرض السيادة الصليبية على شاور والخلافة الفاطمية وتعهدوا بدفع جزية سنوية للصليبيين قدرها مائة ألف دينار، وبقاء قوة صليبية تحمي أبواب القاهرة، بالإضافة لتعين مندوب يمثل الملك عموري في القاهرة، ويكون له رأي مسموع في شؤون الحكم[٣].

بعد أن خرج كل من أسد الدين شيركوه والملك عموري الأول من مصر للمرة الثانية، ازدادا تمسكاً بفكرة السيطرة على مصر، وخصوصاً بعد اطلاعهم على أوضاع مصر بشكل مباشر[٤]، في حين استفاد الصليبيون من وجود حامية لهم في القاهرة، ليتعرفوا أكثر على التدهور الشديد الحاصل في مصر، فأرسلوا إلى ملكهم عموري الأول يطلبون منه التوجه لمصر والاستيلاء عليها لسهولة التنفيذ[٥]، وكما ذكر المؤرخ ابن تغرى بردى على أنهم "اطلعوا على عوراتها وطمعوا وطمعوا فيها"[٦]، تردد الملك عموري الأول في البداية بالتوجه إلى مصر لأن الجزية التي كان يأخذها من مصر تكفيه لمواجهة نور الدين محمود في بلاد الشام، وخاف من عدم تقبل العامة

١- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٦٥_٣٦٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في اخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٢٢؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ٤٩١_٤٩٢،٩٣٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٧٧_١٧٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٨_٢٩، ٣٢.

٢- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٦٦؛ الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، ص١٨٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٣.

٣- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٢٤؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٦٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٨١؛ الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، ص١٧٦.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٦٧.

٥- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٣٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٨٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٥.

٦- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٣٥٠.

حكم الصليبيين لمصر فيلتجؤون لنور الدين محمود، وتشير المصادر الإسلامية إلى أن الملك عموري الأول قبلَ بذلك تلبية لرغبة زعماء الصليبيين الذين ظنوا بأنهم سيتملكون مصر قبل أن يتجهز نور الدين محمود عندها يتمنى السلامة فلا يقدر عليها[١].

لضمان نجاح سيطرتهم على مصر استعان ملك مملكة بيت المقدس الملك عموري الأول بقوة خارجية، فتحالف مع الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول (٥٢٨_٥٧٥هـ / ١١٣٤_١١٨٠م)، وتم الاتفاق على أن تقوم قوات صليبية بيزنطية مشتركة بغزو مصر، إلا أن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كان مشغولًا حينها في البلقان، فطلب من الملك عموري الأول تأجيل الهجوم على مصر بعض الوقت، لكن الملك عموري الأول لم ينتظر وانفرد بالهجوم، متذرعاً بحجة تنكر شاور لتعهداته مع الصليبيين ولم يفِ بالتزاماته لهم[٢].

انطلق الملك عموري الأول من عسقلان[٣] في (شهر محرم سنة ٥٦٤هـ / تشرين الأول ١١٦٨م)، ثم واصل مسيرهُ حتى أشرفَ على بلبيس، في شهر صفر من نفس العام، وبعد أن حاصرها لمدة ثلاثة أيام اقتحمها، فوقعت بيده وبدأ بنهبها وسبي نسائها وتخريب بيوتها وقتل الكثير[٤]، وعلق المؤرخ ابن الأثير على ذلك "لو أن الفرنج أحسنوا السيرة مع أهل بلبيس لملكوا مصر والقاهرة"[٥].

عندما وصلت الأخبار للخليفة الفاطمي العاضد كتب إلى نور الدين محمود يستنجد به ويخبره بسوء أحوال المسلمين ووعده بإعطائه ثلث خراج مصر[٦]، في حين يذكر بعض المؤرخين المؤرخين أن شاور أرسل عدة رسائل لطلب النجدة من نور الدين محمود بعد فشلهِ في إرضاء الملك عموري الأول بالأموال أو ابنهُ الكامل ابن شاور والذي كان شديد العداء لصليبيين هو

١- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٣٧_١٣٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٨٩_٣٩٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٥.

٢- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٨٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٤_٣٥.

٣- عسقلان: مدينة عامرة بأيدي الروم، وهي على ساحل البحر، فتحها معاوية على صلح سنة (٢٣هـ / ٦٤٤م)، وهي مدينة حسنة ذات سورين وهي معدودة من أراضي فلسطين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٢٠.

٤- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٣٨؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في اخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٢٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٣٥٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٨٦.

٥- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٣٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٦.

٦- ابن أيبك: الدر المطلوب في اخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٩٣٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٨٧.

الذي أرسل تلك الرسائل[1] ولما وصل الكتاب إلى نور الدين محمود استجاب لشدة نخوته على الإسلام، وأمر أسد الدين شيركوه والذي كان مقيماً في حمص بالتوجه السريع إلى الديار المصرية وأمده بالأموال والرجال[2]، فترأس أسد الدين شيركوه قوة قوامها ثمانية آلاف فارساً، وانضم إليه في الحملة الثالثة على مصر ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي كارهاً، بسبب ما عاناه في الحملتين السابقتين، ولكن إصرار نور الدين محمود حال دون ذلك، وقد أشار المؤرخون إلى ذلك ومن أبرزهم ابن الأثير حيث ذكر "أحب نور الدين مسير صلاح الدين وفيه ذهاب بيته، وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه"[3]، ويشير المؤرخ ابن شداد إلى أن صلاح الدين قال: له "كنت أكره الناس للخروج في هذه الحملة وما خرجت مع عمي باختياري"[4].

أما شاور فقد أحس بالخطر مما دفعهُ إلى إحراق الفسطاط في سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) وأخذ يعد العدة للدفاع عن القاهرة[5]، ثم تراجع الملك عموري الأول عن القاهرة بعد أن دفع له شاور مائة ألف دينار، وانسحبوا إلى جبهة سرياقوس[6] حيث سمعوا باقتراب قوات نور الدين محمود بقيادة أسد الدين شيركوه[7].

خرجت الحملة الثالثة بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين إلى مصر سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م)، حيث ظهرت مهارة شيركوه العسكرية والسياسية والتي أدت إلى تأسيس الدولة الأيوبية، فقد ابتعد أسد الدين شيركوه عن معسكر الصليبيين وكمائنهم، وذلك بالتسلل نحو الجنوب حتى الوصول إلى القاهرة. بعد أن تركزت خطة الملك عموري الأول في مباغتة شيركوه

١- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٩١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٨. الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، ص١٧٨.

٢- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٩٢؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٢٩.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٧؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٣٩؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٩٢_٣٩٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٢٩.

٤- ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٧٩؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣١. قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٨٨.

٥- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٩١.

٦- سرياقوس: بليدة من نواحي القاهرة بمصر. الواقعة على بعد ٣٢ كلم من القاهرة على الطريق الى بلبيس. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢١٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣١٦.

٧- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٩١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٢٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٧.

وقواته قبل أن تتحد مع القوات الفاطمية، ولكن خطته انهارت عندما سلك أسد الدين شيركوه طريق الصحراء الشرقية إلى القاهرة وقد رحب به الأهالي واتحدت جيوش المسلمين، مما اضطر الملك عموري الأول إلى العودة لفلسطين في سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٩م) ومعهُ رجاله حاملين الخيبة مما جاؤا لتحقيقه[١].

أما أسد الدين شيركوه فقد استقبل المنقذ في القاهرة، وسرعان ما استدعاه الخليفة الفاطمي العاضد وخلعَ عليه خلعة الوزارة ولقبه بالمنصور[٢]، ونزل بظاهر القاهرة بمسجد التبن[٣]، وبدأ أرباب الدولة يترددون عله لقضاء حوائجهم الأمر الذي أغضب شاور دون أن يستطيع فعل شيء بسبب كثرة عساكر أسد الدين شيركوه وتأييد الخليفة الفاطمي العاضد لهُ، لذلك أرسل شاور مرة أخرى إلى الصليبيين لنجدته[٤]، بل إن شاور دبر مؤامرة للقبض على أسد الدين شيركوه وأمرائه وقتلهم جميعاً أثناء وليمة يقيمها لهم[٥]، أراد شاور القبض على أسد الدين شيركوه وقتله فهددهُ ابنهُ ابنهُ بأنهُ سوف يخبرهُ بذلك فرد شاور بأنه سوف يقتلهم، فرد عليه بأن يقتل والبلاد بيد المسلمون خيراً من أن تنتقل إلى الفرنج[٦]، وكان شاور قد تعهد بدفع ثلث أموال البلاد لأسد الدين شيركوه، فلما طلبها منهُ أخذ يماطل لكسب الوقت بانتظار قدوم الصليبيين لنجدته، وأخيراً اجتمع أعيان مصر وقالوا لأسد الدين شيركوه أن شاور سبب فساد البلاد والعباد وطالبوا بقتله وإنقاذ المسلمين من شره[٧]، فادعى أسد الدين شيركوه بأنه مريض وشارف على الموت وهو مقيم في مسجد التبن وأنهُ يريد الاجتماع مع شاور للاتفاق على عودة العساكر إلى الشام، فلم يثق شاور بتلك الحيلة، حتى أرسل إليه حكيماً يثق به[٨]، فاستطاع صلاح الدين استدراجه إلى ضريح الإمام الشافعي

١- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٣٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٩.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٢٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٠؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٢٩_٤٣٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٢.

٣- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٢.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٣٥١.

٥- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٤٠؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، والصلاحية، ج١، ق٢، ص٢٩٦؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٣٥١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٢.

٦- الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، ص١٧٩.

٧- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤١.

٨- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٣.

وقاموا بقتلهِ في (١٧ ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ / ١٧ كانون الثاني ١١٦٩م)، وأباحوا للناس نهب دوره[١].

أما موقف الخليفة الفاطمي العاضد طلب من أسد الدين شيركوه أن يرسل إليه رأس شاور فأرسلهُ إليه ثم دخل أسد الدين شيركوه القصر الفاطمي[٢] فخلع عليه العاضد خلعة الوزارة ولقبه الملك المنصور[٣].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الجيش الذي قاده أسد الدين شيركوه إلى مصر كان يتكون معظمه من المماليك والأمراء النورية نسبة لنور الدين محمود، مضافاً إليهم فئة من المماليك الأسدية نسبة لأسد الدين شيركوه[٤].

بعد استلام أسد الدين شيركوه منصب الوزارة في مصر، بدأ يعمل على تدعيم مركزه وينظم شؤون البلاد وعين على الأقاليم والأعمال من يثق بهم وأقطع البلاد لعساكره، الذين جاؤا معه، وأطلق يد ابن أخيه صلاح الدين في تصريف أمور الدولة لكفاءته السياسية والعسكرية[٥]، إلا أن الظروف لم تسمح لأسد الدين شيركوه بالبقاء في منصب الوزارة سوى شهرين وخمسة أيام، اذ أدركته المنية فجأة في (٢٢جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ / ٢٣ اذار ١١٦٩م)، نتيجة إفراطه الشديد في أكل اللحمة فأصيب بالتخمة[٦].

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٤٠؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٩٧؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤٢٨.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٣٩٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٣.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ج١، ق٢، ص٤٠٢؛ أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص٦٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٩٣٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٤.

٤- العبادي: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٤.

٥- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٠٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٥.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥؛ ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٠؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٠٥_٤٠٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٥.

ولا بدا لنا هنا أن نشير ونشيد بالدور الهام الذي قام به أسد الدين شيركوه في توحيد حلب والشام وفي محاربة الصليبيين وفرض لسيطرة على مصر تنفيذاً لأوامر سيده نور الدين محمود.

ثالثاً– صلاح الدين الأيوبي وتأسيس الدولة الأيوبية:

ولِدَ يوسف صلاح الدين سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٨م) بقلعة تكريت الواقعة على الضفة اليمنى لنهر دجلة في نفس الليلة التي غادرت فيها الأسرة الأيوبية تلك البلدة، وتوجه أبوه نجم الدين أيوب وعمه أسد الدين شيركوه إلى عماد الدين زنكى في الموصل، حيث دخلا في خدمتهِ، وشاركا في حروبه الجهادية، ثم صار نجم الدين أيوب حاكماً على بعلبك التي منحها إياه عماد الدين زنكى كإقطاع سنة (٥٣٤هـ / ١١٤٠م)[١]، وعلى الرغم من اهتمام المصادر العربية الإسلامية المعاصرة لصلاح الدين بأخباره وأعماله إلا أنها لا تشير إلى شيء من التفصيل عن حياة صلاح الدين أثناء إقامته في بعلبك، سوى أنهُ نشأ في كنف أبيه وتلقى تربية أبناء الطبقة الحاكمة فدرسَ القرآن الكريم والحديث والفقه والنحو والتاريخ واللغة والآدب، وتعلم الفروسية والصيد وغيرها، ثم لحق صلاح الدين بعمه أسد الدين شيركوه في حلب[٢]، وكان عمرهُ ١٤سنة حينها، وكانا أثنائها في خدمة نور الدين محمود[٣].

بعد أن ضم نور الدين دمشق استدعى نجم الدين أيوب، ومنحه إقطاعاً إكراماً لجهوده مع أخيه أسد الدين شيركوه في فتح دمشق، وجعل شمس الدين تورانشاه (٥٥٠_٥٧٧هـ / ١١٥٥_١١٨٠م)، الابن الأكبر لنجم الدين أيوب في شحنة دمشق ثم عين أخاه صلاح الدين في هذا المنصب سنة (٥٥١هـ / ١١٥٦م)[٤]، إلا أن صلاح الدين تخلى عن منصبهِ، بسبب ما وقع بينه وبين صاحب الديوان من خلاف، فرجع إلى حلب مرة أخرى، وتقرب منه نور الدين محمود وشملهُ بعنايته لمهارته في لعب الكرة التي يحب نور الدين لعبها، فكان لا يفارقه[٥]، ثم

١– ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٣١؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص٥٢.

٢– العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص٢٣_٢٤؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص٥٢؛ المومني (سعد محمد): القلاع الإسلامية في الأردن، عمان، دار البشير، ط٢، ٢٠٠٨م، ص٣٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٥_١٦.

٣– هاملتون (السير. أ. رجب): صلاح الدين الأيوبي، تر: يوسف ايبش، بيروت، بيسان للنشر والإعلام، ط٢، ١٩٩٦م، ص١١٨.

٤– أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٢٥٠؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، الإنتصار، ص٢٠.

٥– العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص٢٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٥٨_١٥٩.

تولى صلاح الدين شحنة دمشق مرة أخرى في سنة (٥٥٦هـ / ١١٦٠م)، فأظهر حسن سياستهِ وتصفه المصادر العربية الإسلامية في الاستقامة والسلوك الطيب وإتباع طريق الجهاد[١]، ويصف المؤرخ القاضي ابن خلكان صلاح الدين "وكانت مخايل السعادة عليه لائحة، ونور الدين يرى له ويؤثره، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد حتى تجهز للمسير مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية"[٢].

١-صلاح الدين في فترة الوزارة (الفاطمية _ الزنكية):

إن الأحداث التي جرت في مصر والشام في (النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي)، قد حددت مستقبل صلاح الدين، فقد كان حتى سن ٢٥عاماً، بعيداً عن الساحة السياسية والعسكرية، في حين أن عمه أسد الدين شيركوه كان وقتها اليد اليمنى لنور الدين محمود وهو الذي دفعهُ إلى الحياة العامة (السياسية والعسكرية)، وأن صلاح الدين لم يشترك في الحروب التي خاضها عمه حتى سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م) وهي السنة التي اختاره عمهُ للمسير معه إلى الديار المصرية[٣].

بعد وفاة أسد الدين شيركوه تنازع كل من أمراء نور الدين محمود وقادة قوات أسد الدين شيركوه الموجودين ضمن الجيش في مصر على منصب الوزارة[٤]، ولكن المصادر المعاصرة تؤكد أن الخليفة الفاطمي العاضد أصر على اختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة، وربما ظناً منهُ أن صغر سنهِ سيجعلهُ عديم الخبرة فيسهل عليه استخدامه في القضاء على بقية أمراء نور الدين في مصر، وبذلك يكون الخليفة الفاطمي العاضد قد تخلص من نور الدين وشاور معاً[٥].

١- الحويرى (محمود): بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٢م، ص١٤٩.

٢- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، ج٧، ص١٤٥؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص١٩.

٣- العريني: مصر في عصر الأيوبيين، ص٢٤_٢٥؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٥٠.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٧؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٤٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص١٧_١٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٧.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٧؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٠٧؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٥٤٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص١٩٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤٤.

يذكر المؤرخ ابن الأثير أن الخليفة الفاطمي العاضد ظن بتولية صلاح الدين الوزارة، فإنه مستضعف لا يستطيع مخالفة الخليفة الفاطمي، وبذلك يستطيع إخراج العسكر الشامي إلى بلادهم ليتفرد بالسلطة[١]، أما نور الدين فكتب لصلاح الدين يعنفهُ على قبولهِ منصب الوزارة دون موافقته[٢]، وفي الواقع أن صلاح الدين لم يكن سهلاً كما توقعهُ الخليفة الفاطمي العاضد، فقد أثبت أنه قائداً عسكرياً وسياسياً بارعاً منذُ اللحظة الأولى لتوليهِ الوزارة في مصر، فمن أهم أعماله أنهُ حجر على الخليفة الفاطمي العاضد، ومنعهُ من كل تصرف وعمل على التقرب من قلوب الناس بتوزيع الأموال والهدايا، وذلك من أموال كان أسد الدين شيركوه قد جمعها، وبدأ في نقص إقطاع المصريين وإعطائها للشاميين الأمر الذي ساعد على تقوية نفوذه وإضعاف سلطة الخليفة الفاطمي العاضد، كما أن صلاح الدين أخضع مماليك عمهِ، وأحكم قبضته على الجند وأحسن لجميع العسكر الشامي والمصري فأحبوهُ وأطاعوهُ[٣]، ومما ساهم في تقوية مركز صلاح الدين أن نور الدين محمود أمدهُ بقوة جديدة من العسكر، كانت تضم شمس الدين تورانشاه أخو صلاح الدين[٤]، وبفضل ذلك كله، تمكن صلاح الدين من القضاء على قوة جند السودان الذين كانوا آخر سلاح اعتمد عليه الخليفة الفاطمي العاضد لاستعادة نفوذه[٥].

واجهَ صلاح الدين منذ توليهِ منصب الوزارة عدة مصاعب، من مؤيدي الخلافة الفاطمية من جهة ومن الصليبيين من جهة أخرى. فكانت المؤامرة التي تزعمها جوهر المؤتمن أحد طواشية[٦] القصر وهو رئيس بلاط قصر الخليفة الفاطمي العاضد وقائد الجند السودانيين، فقد استاء من صلاح الدين بعد توليه الوزارة، حيث ضيق مركز الخلافة وحاشيتهم، وثقلت وطأته على أهل القصر، فجهز مؤامرة للتخلص منهُ فأرسل رسالة للصليبيين لمساعدته، فيدعوهم للقدوم إلى مصر فإذا جاؤا وخرج صلاح الدين لقتالهم، يكون قد قبض على أتباعهِ والصليبيون قضوا عليه،

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٧؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٤٢.

٢- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤٨.

٣- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٠٨؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٢٣٥؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤٨.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٠٨؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٥١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤٩.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٠.

٦- الطواشي: هو الخصي وهذا المصطلح من المصطلحات التي دخلت العربية عن التركية. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٢، ق٢، ص٤٣٩.

ولكن هذه الرسالة وقعت بيد صلاح الدين، ورفض صلاح الدين العودة لسياسة ضرغام وشاور، فأرسل إلى جوهر جماعة من أصحابه بقيادة أخيه شمس الدين تورانشاه تمكنوا من قتلهِ في أواخر سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٩م)[١]، فثار الجند السودانيين تضامناً مع مؤتمن الخلافة، ولأن صلاح الدين عمل على إبعادهم، فتجمع أكثر من خمسين ألفاً منهم، ودارت معارك عنيفة بينهم وبين قوات صلاح الدين، في مكان يعرف بين القصرين بالقاهرة، أما موقف الخليفة الفاطمي العاضد فكان مؤيداً للجند السودانيين لأمله بهم بأنهم سيخلصونه من صلاح الدين، وتم رمي العسكر الشامي بالنشاب والحجارة من أعلى قصر الخليفة الفاطمي العاضد وبموافقتهِ، لذلك قام صلاح الدين بإشعال النار في معسكراتهم، وقام تورانشاه بتهديد الخليفة الفاطمي العاضد بحرق قصره فتوقف عن دعمهم، ولما تخلى عنهم الخليفة الفاطمي العاضد هربوا إلى الصعيد فلاحقهم صلاح الدين إلى أن قضى عليهم نهائياً في سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م)[٢]، كذلك فعل صلاح الدين بحرس الخليفة الأرمن، فأشعل النار في ثكناتهم وقبض عليهم حتى لا يعطيهم الفرصة للقيام بما قام به الجند السوداني[٣]، وبذلك يكون صلاح الدين قد قضى على القوة المؤيدة للخلافة الفاطمية، ولم يبق أمامهُ إلا كبار الملاك والإقطاعيين على الرغم من حرصهم مسايرة الأوضاع والانضمام لصلاح الدين، لكنهُ تخلص منهم ووزع إقطاعاتهم على رجال من أهل الشام[٤].

لم يكد صلاح الدين ينهي مؤامرة جوهر ومشكلة السودانيين حتى ظهر الخطر الصليبي. لقد أدت سيطرت قوات نور الدين محمود على مصر، إلى شعور الصليبيين بوقوعهم بين فكي كماشة، لذلك عمل الملك عموري الأول على السعي للحصول على مساعدة من الغرب الأوربي لكنهُ أخفق، فاتجه للتحالف مع الامبراطور البيزنطي لغزو مصر واقتسامها[٥]. وبالفعل أرسل

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٩؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٥٠_٤٥١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٣؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٣٧١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٢_٢٠٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤٩.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٩؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٥١_٤٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٣٤؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٣٧٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٥١.

٣- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٥٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢١.

٤- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٥٢؛ عاشور: الناصر صلاح الدين، ص٨٣_٨٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢١.

٥- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٢٥٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٥.

الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين أسطولاً ضخماً مؤلفاً من مائة وخمسين سفينة حربية تقريباً مسلحة تسليحاً متقناً، وحوالي ستين سفينةً لنقل الخيول وأكثر من عشرة سفن لنقل المؤن والآلات الحربية، ووصل هذا الأسطول إلى ميناء عكا[1] في شتاء سنة (٥٦٥هـ / ١١٦٩م)، لكن إبطاء الصليبيين في تجهيز قواتهم أفقد الحملة عنصر المباغتة ليأخذ صلاح الدين حذره[2]، حيث انطلق البيزنطيون نحو مصر بالسفن والصليبيون براً، لكن الأسطول البيزنطي وقف عاجزاً عن دخول دمياط[3] بسبب المآصر وهي سلاسل حديدية ممتدة في الماء تمنع دخول السفن، ولم يغادر صلاح الدين القاهرة إلى دمياط خوفاً من استغلال مؤيدي الخلافة الفاطمية ذلك وإشعال ثورة ضدهُ، لذلك أرسل إلى دمياط بن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين، وقد ظن صلاح الدين أن الملك عموري الأول سيقصد القاهرة عن طريق الصحراء الشرقية مثلما فعل في حملاته السابقة، لذلك أسرع في تحصين بلبيس والقاهرة والإسكندرية[4]، لكنهُ توجه إلى دمياط، عندها شعر صلاح الدين بالموقف الحرج، وطلب النجدة من سيده نور الدين محمود الذي أرسل له القوات وقام بالهجوم على معاقل الصليبيين في الشام لتخفيف الضغط عن دمياط[5]، أما موقف الخليفة الفاطمي العاضد فقد وقف إلى جانب صلاح الدين وساندهُ بإرسال الثياب والأموال له بوصفه وزيرهُ[6]، أرسل صلاح الدين الإمدادات إلى دمياط عن طريق النيل، واستطاع تقي الدين وشهاب الدين من دخول مدينة دمياط، مما جعل الحصار الذي فرضه الصليبيون على المدينة غير تام[7]،

١- عكا: مدينة قديمة من ثغور الشام واسعة بينها وبين طبرية يومان وهي قاعدة مدن الافرنج بالشام. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤١٠.

٢- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٥٣.

٣- دمياط: مدينة قديمة بين تنيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل مخصوصة بالهواء الطيب وعمل الثياب، وهي من ثغور الإسلام. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٧٢.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٢؛ ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٤٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٦٠١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٥٢_٥٣.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٢؛ ابن شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٣؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٥٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٤٠.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ١٠، ص٢٣؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٤٤؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٥٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٤٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠١؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٠.

تام[١]، إضافة إلى أن أهل دمياط استغلوا جريان المياه من الجنوب للشمال بوضع أواني فخارية بها مواد مشتعلة على سطح الماء، مما أنزل الضرر بشكل كبير بالأسطول البيزنطي، الأمر الذي جعلهُ مرغماً للابتعاد عن المدينة[٢].

بدأت القوات البيزنطية تعاني من نقص حاد في المؤن وكادت تلك القوات تموت جوعاً، وزاد الوضع سوءاً هبوب رياح شديدة محملة بأمطار غزيرة أغرقت المعسكر الصليبي، إضافة لهجوم المسلمين لفك الحصار عن دمياط، وضغط نور الدين محمود على الصليبيين في الشام، أدى إلى انسحاب الحملة البيزنطية الصليبية إلى عسقلان في (ربيع الأول سنة ٥٦٥هـ / أيلول ١١٦٩م) دون تحقيق أي هدف[٣].

كان لهذا الانتصار انعكاسات هامة فهو أول انتصار لصلاح الدين بعد توليه الوزارة، وقد أقنع هذا الانتصار الخلافة الفاطمية بأن صلاح الدين قادر على إدارة البلاد وحمايتها، كما أفقدتها الأمل الأخير في التخلص من صلاح الدين، لذلك أرسل الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين يطلب منهُ سحب الأتراك من القاهرة بحجة خوف الأهالي منهم فرد نور الدين محمود بأن وجودهم يخيف الفرنج[٤].

بعد انتهاء صلاح الدين من الحملة الصليبية البيزنطية، أراد أن يجمع حوله أفراد أسرتهِ وعشيرتهِ، فطلبَ من سيدهِ نور الدين محمود أن يرسل إليه أباه وأقاربه ليستعين بهم في تصريف شؤون مصر، فلم يتأخر نور الدين محمود عن الاستجابة لهذا المطلب فوصلوا في (جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ / آذار ١١٧٠م)، بعد أن أوصىَ نور الدين محمود نجم الدين أيوب أن يأمر ابنهُ صلاح الدين بإقامة الخطبة للخليفة العباسي، وعند وصولهم عين صلاح الدين أباه على بيت المال، وأقطع إخوته وأبناء عمه بعض الأراضي[٥]، وفي تلك الأثناء كان نور الدين محمود

١- المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠٠؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٥٦١.

٢- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٤.

٣- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٥٤_١٥٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٤.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٦٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٥٤.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٣؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٤٤؛ ابن شداد شداد النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٥؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٦٥_٤٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٤٢؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٧_٨؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص٤٨.

قد شدد هجماته على الصليبيين بالشام، كما فرض سيادته على الموصل سنة (٥٦٦هـ / ١١٧١م)، وقد أراد استكمال وحدة البلاد الشامية والمصرية، لبدء عمل عسكري موحد ضد الصليبيين، لذلك ركز على إنهاء العقبة في ذلك وهي الخلافة الفاطمية[١].

فعمل صلاح الدين بتوجيهات سيده نور الدين محمود على القضاء على المذهب الشيعي في مصر، فأنشأ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وعين قضاة شافعية في جميع أنحاء البلاد، فارتقع شأن المذهب السني، وانحسر المذهب الإسماعيلي تدريجياً، حتى اختفى في النهاية[٢]، كذلك عمل على القضاء على رسوم الخلافة الفاطمية ومعالمها، فأبطل من الأذان حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر، ووضع يده على القصور الفاطمية، وعين على حراستها الطواشي بهاء الدين قراقوش[٣] الأسدي، وجرد العاضد وجميع أفراد أسرته من أموالهم وأمتعتهم، وضيق على سائر أهل القصر[٤]، تابع صلاح الدين عملهُ على محو آثار الدولة الفاطمية بمختلف الوسائل الحربية والمدنية والثقافية، وأخذ بتكوين جيش قوامهُ المماليك الأسدية القدماء، وسائرهُ من الأحرار الأكراد الذين دخلوا في خدمتهِ فضلاً عن مماليك أتراك اشتراهم لنفسهِ وسماهم الصلاحية نسبة إلى اسمهِ أو الناصرية نسبة إلى لقبهِ الناصر[٥]، ومع ذلك يبدو أن صلاح الدين كان متخوفاً من الإقدام على الخطوة الفاصلة بإسقاط الخلافة الفاطمية، ويفسر البعض مخاوفه من سيده نور الدين محمود أكثر من شيعة مصر، وذلك لإحساسه بتغير شعور نور الدين محمود نحوه، لذلك أراد صلاح الدين أن يبقى على الخلافة الفاطمية بوضعها الهش ليستغلها عند الحاجة كستار يحميه من سيده نور الدين محمود إذا تأزم الموقف بينهما[٦].

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٠؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٧٢، ٤٧٦.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٨٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٥٧.

٣- بهاء الدين قراقوش: أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، نسبة الى أسد الدين شيركوه، فقد كان من مماليكه، ثم خدم صلاح الدين، وتولى زمام القصر الفاطمي، وناب عن صلاح الدين في بعض المناسبات وأشرف على بناء القلعة والسور وقناطر الجيزة، ولما فتحت عكا تولاها وسورها، ثم أسره الفرنج فافتك نفسه بعشرة آلاف دينار، توفي سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠١م)، وقراقوش لفظ تركي معناه العقاب الطائر. أبي شامة: أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص٤٨٨.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٨٨؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٣٦٧_٣٦٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٠؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص٥٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١١.

٥- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٥.

٦- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٧.

وهكذا أخذ صلاح الدين يماطل سيده نور الدين محمود عندما طلب منهُ الأخير إسقاط الخلافة الفاطمية، لتحقيق وحدة العالم الإسلامي. وقد رد صلاح الدين على طلب سيده نور الدين معتذراً لتخوفه من قيام المصريين بثورةِ فهم أكثر ميلاً إلى الفاطميين. لكن نور الدين أرسل إليه إنذاراً نهائياً في صيف سنة (٥٦٦هـ / ١١٧١م) يأمرهُ بإحلال اسم الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (٥٦٥_٥٧٥هـ / ١١٧٠_١١٧٩م)، بدلاً من اسم الخليفة الفاطمي العاضد في خطبة الجمعة "وألزمه ذلك إلزاماً لا فسحة فيه"[١].

أخيراً اضطر صلاح الدين إلى اتخاذ تلك الخطوة الخطيرة، فتم الدعاء في أول يوم الجمعة من سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م) للخليفة العباسي المستضيء بنور الله في القاهرة، وقد حدث هذا الانقلاب بكل هدوء ويذكر أن الخليفة الفاطمي العاضد كان مريضاً حينها مرضاً ميؤوساً منهُ، فأخفى الجميع عنهُ ذلك الخبر حتى توفي في يوم العاشر من محرم يوم عاشوراء[٢]، ويذكر المؤرخ ابن أيبك أنه في سنة (٥٦٧هـ / ١١٧٢م) توفي الخليفة واختلف في سبب وفاتهِ فمنهم من ذكر أنه مات موتاً طبيعياً، ومنهم من ذكر أن السلطان صلاح الدين ضيق عليه حتى سمم نفسه فمات[٣]، يذكر المؤرخ المقريزي بأن صلاح الدين بعد ذلك نزع الفضة التي كانت بمحاريب جوامع القاهرة، والتي كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين[٤].

لم يكن إنهاء الخلافة الفاطمية حدثاً خاصاً بمصر، وإنما كان حدثاً مؤثراً في تاريخ العالم الإسلامي فها هي الخلافة الفاطمية تنهار بعد قرنين من الزمان تقريباً، لتصبح الخلافة العباسية هي الوحيدة التي تدين لها غالبية المسلمين روحياً.

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٣؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٥٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٩٣.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٤؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٥٦؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٤٩٣؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١١٤؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٣.

٣- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٤٨.

٤- المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٢١٦_٢١٧.

فلا عجب من إقامة الاحتفالات ببغداد للتعبير عن النصر، حتى أن الخليفة العباسي المستضيء بنور الله بادر بإرسال الخلع إلى نور الدين محمود وصلاح الدين ومعها الأعلام والرايات السود شعار العباسيين[١].

٢- الجفوة بين نور الدين محمود وصلاح الدين:

بدأت بوادر الجفوة تظهر بين صلاح الدين وسيده نور الدين محمود في الشام. فحتى سقوط الخلافة الفاطمية كان صلاح الدين يتولى سلطانهُ في مصر بوصفه وزيراً شرعياً للخليفة الفاطمي، فضلاً عن تنفيذ تعليمات سيده نور الدين بوصفه نائباً عنهُ وقائداً لقواته في مصر. وفي تلك الفترة كانت الخطبة على المنابر بالديار المصرية للخليفة الفاطمي العاضد، وبعده للملك العادل نور الدين محمود[٢]، ولكن بسقوط الخلافة الفاطمية ووفاة الخليفة الفاطمي العاضد "صفا الوقت لصلاح الدين" كما ذكر المؤرخ ابن تغرى بردى، وصار يخطب باسمه على المنابر بعد الخليفة العباسي والملك العادل نور الدين محمود[٣].

تظهر هذه الجفوة حسب المصادر المعاصرة بشكل واضح عندما دعا نور الدين محمود نائبهُ في مصر صلاح الدين للسير إلى حصن الشوبك، فحاصرهُ أشد حصار وكادَ أن يسقط بين يده بعد أن طلب الصليبيون مهلة عشرة أيام لإخلاء الحصن، لكن صلاح الدين فك الحصار عنه، عندما علم بمسير نور الدين محمود إليه من دمشق لمساعدته في فتح الحصن، متخوفاً من منع نور الدين محمود له من العودة إلى مصر والقبض عليه، فبادر بالانسحاب والعودة إلى مصر متحججاً بتخوفه من انتفاض أتباع الفاطميين أثناء غيابه، فغضب نور الدين محمود من ذلك وأراد إبعاد صلاح الدين عن مصر[٤]، لقد سبب هذا التصرف استياء نور الدين محمود وغضبه، مما دفع صلاح الدين إلى عقد اجتماع مع أهله وعشيرته، للتشاور فيما يجب عمله في حال

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٥؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٥٠، ٤٥٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٧٩.

٢- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٩.

٣- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص٣٥٧.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٥_٣٦؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٥٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥١٨_٥١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٥٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢١_٢٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٦٦.

هجوم نور الدين محمود على مصر، فأبدى الشبان المتحمسين من أسرة صلاح الدين بقتاله ومحاربته، لكن وقف نجم الدين أيوب والد صلاح الدين رافضاً لهذا الرأي مستعداً للانضمام لنور الدين محمود وتقبيل يده "ولو طلب مني قتلك لقتلتك، وإن هذه البلاد له وأنت نائبه لو أراد عزلك فهو ليس بحاجة للمجيء، يأمرك بكتاب ويعين من يريد"[١]، ثم انفرد نجم الدين أيوب بابنه صلاح الدين ونصحهُ "بتسرعهِ بجمع هذا المجلس وكشف ما بنفسهِ أمامهم فإنهم سيرسلون لنور الدين محمود لإخباره بما حدث، وعند قدومه سينضمون إليه ضدك، ثم نصحهُ أن يرسل له كتاب يظهر ولائه وطاعته لسيده نور الدين محمود"[٢]، وهكذا كان نجم الدين أيوب السند الحقيقي لابنه بحكمته وخبرته وحرصه عليه في تلك المرحلة الحرجة التي تمر بها الدولة الأيوبية الفتية.

فعلى الرغم من أن القوات التي تحت يد صلاح الدين تدين له بالولاء والطاعة، إلا أن ظهور نور الدين محمود في مصر كافياً لتخلي هذه القوات عن صلاح الدين والانضمام لسيدها نور الدين محمود، وهذا ما أدركه ووعاه صلاح الدين فعلاً[٣]، وتنفيذاً لإرشادات والده نجم الدين أيوب، أرسل صلاح الدين رسالة يظهر فيها ولائه وطاعته لسيد نور الدين محمود، إضافة للهدايا الثمينة من الحيوانات النادرة وبعض جواهر القصر الفاطمي، والأقمشة والعطور الفاطمية[٤].

إلا أن نور الدين محمود استمر في شكوكهِ من سياسة صلاح الدين ومشاريعه في مصر، فأرسل له وزيره موفق الدين خالد بن القيسراني، لعمل حساب مفصل عما استولى عليه صلاح الدين من قصور الخلفاء الفاطميين[٥]، الأمر الذي دفع صلاح الدين للتفكير والعمل في تحصيل مكاناً بديلاً للأسرة الأيوبية إن أخرجهم نور الدين محمود من مصر للإقامة بها[٦]، فأرسل صلاح

١– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٦؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٥٨_١٥٩؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥١٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٥٩_٤٦٠؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٢_٢٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٨.

٢– ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٥٨_١٥٩؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص٢٢_٢٣.

٣– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥١٩_٥٢٠.

٤– ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٥٨_١٥٩؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٢٤؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٨٢.

٥– أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٢٥؛ عنان: تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، ص٥٨.

٦– ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٨١.

الدين أخاه شمس الدولة توران شاه على رأس حملة كبيرة لغزو بلاد النوبة، وذلك في أواخر سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) لكنهُ وجدها قليلة الموارد لا تصلح لإقامة دولة للأيوبيين في حال دخول نور الدين محمود إلى مصر[١]، لكن هذه الحملة حققت حماية حدود مصر الجنوبية من غارات النوبيين[٢]، كما أرسل صلاح الدين سرية بقيادة قراقوش إلى بلاد إفريقية، فسيطروا حتى طرابلس الغرب[٣].

نلاحظ من خلال المصادر التاريخية العربية الإسلامية أن الأمور قد هدأت مؤقتاً بين نور الدين محمود وصلاح الدين، بدليل أنه في (شوال سنة ٥٦٨هـ / حزيران ١١٧٣م)، خرج صلاح الدين تنفيذاً لأوامر سيده نور الدين محمود نحو معاقل الصليبيين، إضافة لنصيحة والده بالهجوم على الصليبيين، ولكنهُ لم يكد يفرض حصارهُ على حصن الكرك جنوب شرقي البحر الميت، حتى انسحب فوراً إلى مصر، عندما سمع باقتراب وصول نور الدين محمود على رأس قواته، متحججاً بمرض أبيه مرض الموت[٤]، وبالفعل توفي والده، بعد انسحابهِ من حصارهِ حصن الكرك، ولكن ليس بسبب المرض ولكنه سقط عن فرسهِ بعد انسحاب صلاح الدين عن حصار حصن الكرك ومات بسببها[٥]، فزادت تلك الحادثة الأمور تعقيداً، ونفذ صبر نور الدين محمود، حتى قرر استخدام القوة والتوجه لمصر لإخراج صلاح الدين منها وإرجاعه للطاعة[٦]، ويذكر بعض المؤرخين أن صلاح الدين شرع ببناء السور الدائر بالقاهرة ومصر وذلك خوفاً من نور الدين محمود[٧]، تابع بحثهُ في إيجاد مكان بديل للأيوبيين في حال توجه نور الدين محمود مصر، فبعد النوبة التي لم تصلح للإقامة فيها أرسل صلاح الدين أخاه شمس الدين تورانشاه إلى اليمن في (رجب سنة ٥٦٩هـ / آذار ١١٧٤م) بحجة القضاء على النفوذ الفاطمي وإعادة

١- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٣٠_٥٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٦٤؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٤٤٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٨١.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٩_٥٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٨٢.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٦٥.

٤- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٦٤؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص١٨٧.

٥- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٣٣؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٥٦٤.

٦- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٧؛ بيومي: قيام الدولة الأيوبية، ص١٨٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٠.

٧- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٤٢.

الخطبة للخليفة العباسي فأخضعها وصارت تابعة لصلاح الدين[١]، وبذلك يكون صلاح الدين قد ضمن ملجأً ومورداً مالياً ضخماً وسوق تجاري من خلال سيطرته على اليمن[٢].

استغل أنصار الخلافة الفاطمية غياب تورانشاه ومعظم قوات صلاح الدين في اليمن لتنفيذ تحالفاتهم ضد صلاح الدين، حتى لا يحل مكان أخيه صلاح الدين في حال قتله، ففي (رمضان سنة ٥٦٩هـ / نيسان ١١٧٤م)، اتصل أنصار الخلافة الفاطمية بالباطنية الحشيشية وهي القوة الشيعية الكبرى في بلاد الشام، طالبين منهم اغتيال صلاح الدين[٣]، واتصل أنصار الخلافة الفاطمية بالصليبيين ببلاد الشام، واتفقوا على أن تقوم القوات الصليبية بغزو مصر في الوقت نفسه هم يشعلون الثورة في القاهرة والفسطاط[٤]، يضاف إلى ذلك أن المتآمرين اتصلوا بملك صقيلية وليم الثاني النورماندي ليهاجم أسطوله الإسكندرية[٥]، لكن هذه المؤامرة تم الكشف عنها قبل حدوثها. ذلك أن المتآمرين أشركوا معهم في سرهم الفقيه الخطيب الحنبلي زين الدين علي بن النجا الذي وضع صلاح الدين في جميع تفاصيل المؤامرة، فانكشف أمر زيارة مبعوث الملك عموري الأول، وبعد أن تأكد صلاح الدين من جميع تفاصيل المؤامرة، جمع المتآمرين فوراً، وصلب زعمائهم وذلك في (رمضان سنة ٥٦٩هـ / نيسان ١١٧٤م)، في حين اختفى آخر الأمراء الفاطميين وهو ابن الخليفة العاضد[٦]، أما الملك عموري الأول ملك مملكة بيت المقدس، فلم يكد يعلم بانكشاف سر المؤامرة في القاهرة، وإخفاق خطته الموضوعة لغزو مصر حتى انهارت معنوياته وتوفي مقهوراً في بيت المقدس في (ذو الحجة سنة ٥٦٩هـ / تموز ١١٧٤م)[٧]، أما أسطول صقلية[٨] فعندما وصل إلى الإسكندرية في ٢٨ من الشهر نفسهِ، وجد كل شيء قد

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ١٠، ص٥٢؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٧؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٥٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٧٢_٤٧٣؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٤٤٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٨٧؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص٣١.

٢- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٨٨.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ١٠، ص٥٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح صلاح الدين، ص٨٩.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ١٠، ص٥٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٣٦.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٣٦.

٦- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٧٤_٤٧٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٣.

٧- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد ١٠، ص٥٤؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٥٧٦.

٨- صقلية: جزيرة في قطعة من بحر الشام بينها وبين أقرب بر من مالطة ثمانون ميلاً، افتتحها المسلمون في صدر الإسلام وغزاها أسد بن الفرات الفقيه أميراً وقاضياً سنة اثني عشرة ومائتين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٦٦.

انتهى فزعماء المؤامرة قد قتلوا، وحليفهم الملك عموري الأول قد مات، وعلى الرغم من ذلك حاولوا اقتحام الإسكندرية لكنهم فشلوا وعادوا أدراجهم[1].

أرسل صلاح الدين أخاه العادل أحمد في أوائل (صفر سنة ٥٧٠هـ / أيلول ١١٧٤م)، إلى حدود النوبة للقضاء على ثورة قادها كنز الدولة أحد قادة الفاطميين، لإعادة الخلافة الفاطمية، إلا أن العادل أحمد استطاع القضاء عليه بشكل كامل[2].

في الوقت الذي كان فيه نور الدين محمود يستعد للسير إلى مصر وانتزاعها من صلاح الدين كان الأجل له بالمرصاد، إذ مات فجأة بعلة الخوانيق "الذبحة الصدرية" في (١١ شوال سنة ٥٦٩هـ / أيار ١١٧٤م)، عن عمرٍ يناهز الست وخمسين عاماً ودفن بقلعة دمشق[3].

استطاع صلاح الدين أن يستأصل جذور المؤامرة ضده، بفضل قوته وذكائه، وحل مشاكله مع سيده نور الدين محمود العقبة الأكبر والأهم في طريق تحقيق هدفه في تأسيس دولة مستقلة تحمل اسم أسرته في مصر وذلك بفضل القدر.

٣-سيطرتهِ على الشام وتوحيدها مع مصر:

سعى نور الدين محمود إلى توحيد بلاد الشام والعراق وضم مصر للجبهة الإسلامية، لضمان تحرير البلاد من الوجود الصليبي الفرنجي، إلا أن وفاته أدت إلى تفتت هذه الوحدة بسبب تقسيم دولة نور الدين محمود بين أمرائه وأهل بيته.

بعد وفاة الملك العادل نور الدين محمود تولى ابنه الملك الصالح إسماعيل[4]، الوريث الأول له حكم مصر والشام وأجزاء من إقليم الجزيرة بالعراق، لكنهُ كان صغيراً لم يتجاوز الحادية عشر من عمرهِ عند وفاة أبيه، فقد استغل سيف الدين غازي الثاني (٥٦٥_٥٧٥هـ / ١١٧٠_١١٨٠م)

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٥٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٤؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٨٩.

٢- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٩_٩٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٤.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٥٥_٥٦؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٨٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٨١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٩١_٤٩٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٩٠_٩١.

٤- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٩١_٩٢؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٨٥؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٤٣.

أتابك الموصل وفاة عمه نور الدين محمود، وضم إلى أملاكه نصيبين[١] والخابور[٢] والرها[٣] وغيرها[٤].

لكن النزاع لم يقتصر على الأسرة الزنكية، بل تعداه إلى أمرائه، فدب الخلاف بين أقوى رجلين من أمراء نور الدين محمود، وهما شمس الدين علي ابن الداية وشمس الدين محمد المعروف ابن المقدم، وكان سبب الخلاف الوصاية على الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، فسيطر ابن الداية على قلعة حلب بوصفها مركز الدولة النورية وأعلن نفسه وصياً على الصالح إسماعيل، في حين تحفظ ابن المقدم على شخص الملك الصالح إسماعيل في دمشق ثم نقل إلى حلب[٥]، وبذلك انقسمت دولة نور الدين محمود إلى دويلات في الموصل وحلب ودمشق وأصبحت مصر معزولة عنهم، في حين اعترف صلاح الدين الأيوبي بسلطنة الملك الصالح إسماعيل، وأمر بالدعاء له في خطبة الجمعة، وضرب السكة باسمه[٦].

أثناء ذلك النزاع ظهر صوت بعض الحكماء ينادي بالاستعانة بتحكيم صلاح الدين بوصفه أقوى أمراء الدولة النورية وهو من أصحاب نور الدين محمود ونائبه على مصر، لكن أمراء الشام رفضوا مخافة أن يطيح بهم صلاح الدين ويضم الشام إلى مصر[٧]، لكن هذا التنافس بين الأمراء الأمراء في بلاد الشام ومصالحتهم للصليبيين أثار غضب صلاح الدين وأدرك أنه من واجبه الحفاظ على وحدة المسلمين قبل التصدي للصليبيين، حيث أرسل رسائل إلى أمراء الشام يحثهم

١- نصيبين: احدى المدن في الجزيرة، تقع على طريق القوافل بين الموصل والشام. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٨٨.

٢- الخابور: نهر يمر بديار ربيعة حتى يصب في الفرات بعد مروره على وسط مدينة قرقيسيا والخابور مدينة لطيفة على شاطئ الفرات لها بساتين وحدائق وبها مات مسلمة بن عبد الملك، وكان يلقب بالجرادة الصفراء. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢١١.

٣- الرها: مدينة من أرض الجزيرة متصلة بحران، وهي مدينة ذات عيون كثيرة عجيبة تجري منها الأنهار وبينها وبين حران ستة فراسخ والرها مدينة روحية عليها سور من حجارة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٧٣.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٥٨؛ ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٧٥؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٩٣.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٥٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٧.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٥٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٨٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢٩؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٢٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٩٥.

٧- ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، ص١٦٢؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي التصدي للصليبيين، ص١٦٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٤٠.

على الوحدة والوفاء لنور الدين محمود ويذكرهم بأنه الأقرب والأكثر وفاءً لسيدهِ نور الدين محمود وابنه وبأنه الأحق بالوصاية على ابن سيده[1]. فهو الأقوى من حيث الجند والسيطرة على موارد مصر.

ومن هنا كان واجب صلاح الدين المبادرة بالحفاظ على وحدة المسلمين، لكن أوضاع مصر في تلك الفترة شغلته عن التوجه إلى الشام، حيث تعرضت مصر لهجومين من الشمال والجنوب، ففي (ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ / تموز ١١٧٤م) ظهر أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسلهُ ملك صقلية وليم الثاني (٥٥٠_٥٨٥هـ / ١١٥٥_١١٨٩م)، وفقاً لاتفاق أنصار الدولة الفاطمية كما تم ذكرهُ سابقاً بهدف تطويق صلاح الدين والقضاء عليه غير أن شجاعة أهل الإسكندرية ومساندة الجيش الأيوبي وفشل المؤامرة أفشلت تلك الحملة[2]، أما الخطر الثاني كما ذكرناه أيضاً سابقاً، فكان من الجنوب والممثل في الحركة التي قادها كنز الدولة عباس بن شادي أحد ملوك النوبة في أسوان[3]، فاستغل تجمع السودانيين وبقايا الخلافة الفاطمية لإحيائها مرة ثانية، فأرسل له له صلاح الدين أخاه الملك العادل أحمد على رأس جيش ضخم والتقى بهم في معركة ضارية انتهت بمقتل كنز الدولة في (صفر سنة ٥٧٠هـ / أيلول ١١٧٤م) وبذلك تم القضاء على آخر محاولة قامت بها البقايا الفاطمية[4].

من العوامل التي دفعت صلاح الدين للتدخل في شؤون الشام، هو استغلال الصليبيين حالة التمزق التي أصابت البلاد بعد وفاة نور الدين محمود ومهاجمتهم بانياس[5]، حيث صمدت المدينة المدينة للحصار لمدة أسبوعين، ولكن بدلاً من قيام الأمير شمس الدين بن المقدم بمهاجمة الصليبيين والدفاع عن المدينة قام بمراسلتهم وعرض عليهم مبلغاً من المال وإطلاق سراح

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٥٨؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٩٢.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٦٣؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٩٠_٩١؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٩٩_٦٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٩٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٩٩.

٣- أسوان: في الصعيد آخر بلاد مصر، وفي بلادهم من الجبال والأوكار التي تحول بينهم وبين النوبة ولولاها لأفسدت النوبة بلاد مصر، وأسوان من ثغور النوبة وهي مدينة صغيرة كثيرة الخصبة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٧.

٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٠٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٩٩_١٠٠.

٥- بانياس: مدينة قريبة من دمشق، وهي ثغر بلاد المسلمين، صغيرة لها قلعة يستدير بها نهر يفضي الى أحد أبواب المدينة، وكانت بيد الفرنج. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٧٤.

الأسرى الصليبيين عند المسلمين، مقابل الرجوع عن بانياس، فقبل بذلك الصليبيون وجرى الصلح بينهما، ولما وصلت الأخبار لصلاح الدين بذلك، أنكر هذا التصرف وكتب إلى أمراء الشام يوبخهم[١]، واستناداً إلى المؤرخ الصليبي الفرنجي وليم الصوري، أنهُ كان لأرملة نور الدين محمود دور مهم في صمود بانياس حيث عملت على شراء هدنة من الملك عموري الأول إضافة إلى تقويتها للحامية الموجودة في بانياس، وهذا ما لم تذكرهُ المصادر العربية، ولكن تدهور صحة الملك عموري الأول جعلتهُ يقبل بشروط الهدنة وينسحب إلى طبرية[٢].

لقد أدت الخلافات بين أمراء الدولة النورية في الشام إلى استنجاد ابن المقدم بصلاح الدين فجاءت هذه الدعوة بداية لمرحلة جديدة في تاريخ صلاح الدين وتاريخ الحركة الصليبية.

كان أخطر ما يخشاه صلاح الدين هو أن تتمزق الجبهة الإسلامية في مواجهة الصليبيين، بانفصال الشام عن مصر[٣]، وذلك أن الأمير سعد الدين كمشتكين استبد بتدبير الملك الصالح إسماعيل وانتقل به إلى حلب حيث قبض على الأمير شمس الدين ابن الداية وإخوته وهو من أعز أصحاب صلاح الدين[٤]، خرج صلاح الدين على رأس جيش كبير من مصر وبعد أن عين أخاه الملك العادل أحمد نائباً عنهُ فيها، متجنباً الصدام مع الصليبيين، حتى وصل إلى دمشق في (آخر ربيع الآخر سنة ٥٧٠هـ / تشرين الثاني ١١٧٤م) ففتح له ابن المقدم أبواب المدينة وسلمه إياها، وبذلك وصل إلى دمشق وتسلمها بغير قتال، ونزل صلاح الدين بدار والده بدمشق معلناً أنه يسعى لإعادة الوحدة الإسلامية[٥]، وقد حرص صلاح الدين في تلك الفترة على إظهار الولاء للصالح إسماعيل، وأعلنها على الملأ "أنا، مملوك الصالح، وما جئت إلا لأنصره

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٦٣_٦٤؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٩٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٩٤؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٣٦.

٢- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٩٤.

٣- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٥٨٩، ٥٩٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٤٩٤.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٦٦؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٤٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٠٢.

٥- المنصوري (بيبرس بن عبد الله، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م): مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تح: عبد الحميد صالح، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٣م، ص٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٠١؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١١٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٣٥؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٢٨.

وأخذمه"[1]رغب صلاح الدين على استمالة أهل دمشق فقام بتوزيع الأموال وإبطال بعض الضرائب التي فرضت بعد وفاة نور الدين محمود، وذلك لجعلها مركزاً لانطلاقتهِ نحو الشمال، ثم انطلق لتحقيق هدفه بتوحيد المسلمين وطرد الصليبيين ومعاقبة سعد الدين كمشتكين الذي استبد بالأمور في حلب، فاستولى على حمص وحماة في (جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ / كانون الأول ١١٧٤م)[2]، وأثناء وجودهِ بحماة أرسلَ سفيراً ليتوسط بينهُ وبين الحلبيين فكان مصيرهُ السجن، ونتيجة لذلك توجه صلاح الدين إلى حلب لمحاصرتها ولكنهُ لقي معارضة شديدة وخاصة أن الصالح إسماعيل خاطب مشاعر أهل حلب متباكياً ومحرضاً على قتال صلاح الدين مذكراً لهم بحسناتِ والدهِ[3]، فاستجاب أهل حلب لندائهِ ووقفوا إلى جانبه، حدث هذا في الوقت الذي لجأ كمشتكين الوصي على الصبي الصالح إسماعيل إلى الاستعانة بسنان[4] زعيم الباطنية في الشام لإبعاد صلاح الدين عن أسوار حلب، فاستجاب لطلبهِ، وأرسل له جماعة من الفدائيين متنكرين بثياب جندهِ، وتمكنوا من التسلل إلى خيمتهِ وطعنهُ أحدهم بخنجرهِ في رأسهِ وخدهِ فجرحهُ جرحاً غير مميت، ونجا بأعجوبة من محاولة الاغتيال تلك، وذلك في سنة (٥٧١هـ / ١١٧٥م)[5].

بعد إخفاق الباطنية في اغتيال صلاح الدين، أرسل الحلبيين إلى أمير طرابلس[6] ريموند الثالث الثالث (٥٣٤_٥٨٣هـ / ١١٤٠_١١٨٧م) _وكان الوصي على عرش مملكة بيت المقدس_ يدرك أهمية تحالف الصليبيين مع حلب، كما أدرك خطورة قيام وحدة إسلامية بين القاهرة ودمشق وحلب، لذلك أسرع في تلبية طلب أمراء حلب[7]، ويذكر المؤرخ أبو شامة أن أمراء حلب طلبوا من

١- أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص٦٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٣٦.

٢- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٩٣؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٠٥_٦٠٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٣٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٠٦_١٠٧، ١٠٩.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٠٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١١١.

٤- سنان بن سليمان (٥٢٨_٥٨٨هـ / ١١٣٤_١١٩٢م): مقدم الإسماعيلية وصاحب دعوتهم في الشام أصله من البصرة، وكان في حصن ألموت، قرأ الفلسفة والجدل، وانتقل الى الشام في أيام السلطان نور الدين محمود، وجرت عدة قصص ووقائع بينه وبين نور الدين وصلاح الدين، والى سنان تنسب الطائفة السنانية. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٦١.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٦٧_٦٨؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١١١.

٦- طرابلس: وهي على شاطئ البحر، كثيرة الثمار والخيرات، يحيط بها سور صخري جليل البنيان. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٥.

٧- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٣٧؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، الدين، ص١١٢.

من أمير طرابلس الصليبي أن يهاجم بعض المراكز التي بيد صلاح الدين حتى يضطر إلى رفع الحصار عن حلب[1]، فتوجه على رأس قواته لمهاجمة حمص في (رجب سنة ٥٧٠هـ / شباط ١١٧٥م) ليصرف أنظار صلاح الدين عن حلب، وفعلاً اضطر صلاح الدين إلى فك الحصار عن حلب لإنقاذ حمص، ولم يرجع الصليبيون عن حمص إلا بعد أن تأكدوا من انسحابه من حلب[2]، وبعد أن اطمأن صلاح الدين على سلامة حمص، غادرها متوجهاً إلى بعلبك، وبعد أن فقد الأمل حاكمها من وصول المساعدة من حلب، ورأى كثرة عساكر صلاح الدين، طلب الأمان من صلاح الدين وسلمهُ بعلبك في (رمضان سنة ٥٧٠هـ / نيسان ١١٧٥م)[3].

كتب صلاح الدين إلى الخليفة العباسي المستضيء بنور الله، رسالة طويلة في سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٥م)، عدد له فيها فتوحاته وجهاده ضد الصليبيين، وأنهُ أعاد الخطبة للخليفة العباسي في مصر، وهو في خدمة ابن نور الدين محمود، وطلب في ختامِ رسالتهِ من الخليفة تقليداً جامعاً لمصر واليمن والمغرب والشام، وجميع ما اشتملت عليه دولة نور الدين محمود وكل ما يفتحهُ بسيفهِ، وكان هدف صلاح الدين من ذلك إضفاء الشرعية على أعماله في بلاد الشام[4].

أحس الحكام الزنكيون جميعاً بخطر صلاح الدين بعد أن خضعت له مدن دمشق وحمص وحماه وبعلبك الأمر الذي جعلهم يتكاتفون لمواجهتهِ، لذلك أجمع الحلبيون على الاستنجاد بسيف الدين غازي صاحب الموصل ضد صلاح الدين، وأقنعوه بأن الطريق للسيطرة على الموصل هو السيطرة على حلب، فأرسل سيف الدين غازي جيشاً إلى الشام بقيادة أخيه مسعود، وانضم إليه عسكر الصالح إسماعيل صاحب حلب، ليتجه الجميع نحو حماة وفرضوا عليها الحصار مترافق مع مراسلة صلاح الدين في أمر الصلح، فقبل صلاح الدين أن يرد لهم حمص وحماة، وأن يكون نائباً عن الملك الصالح إسماعيل في دمشق[5]، فلما رأوهُ مستجيباً لمطالبهم تمادوا عليه

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٦٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦١١؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٣٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١١٢.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٦٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦١١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٠٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١١٣.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٦٨؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٣١؛ أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص٦٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١١٤.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦١٦_٦٢٣؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك والمماليك في مصر والشام، ص٤٤.

٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٠٥؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١١٦.

بحجةِ ضعفهِ بقلة عسكره، فرفض مطالبهم، ودارت معركة بين الجانبين عند سفح قرون حماة في (رمضان سنة ٥٧٠هـ / نيسان ١١٧٥م)، انتهت بانتصار صلاح الدين وغنم منهم مغانم كثيرة، وعادت القوات الزنكية المنهزمة إلى حلب[١]، ولم يهدر انتصاره هذا بل تتبع الزنكيين إلى حلب وحاصرها ولما أطال عليها الحصار بعث الحلبيون يلتمسون منهُ الصلح فأجابهم بشرط أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بيدهم وأخذ أيضاً كفر طاب والمعرة وبعد أن استقر الصلح بين الطرفين رحل صلاح الدين عن حلب من شهر (شوال سنة ٥٧٠هـ / أيار ١١٧٥م) من نفس العام، ولم تمض أيام قليلة على وصوله إلى حماة حتى وصلت إليه رسل الخليفة العباسي المستضيء بنور الله (٥٣٦_٥٧٥هـ / ١١٤٢_١١٨٠م) حاملة التشريفات السلطانية وتقليد صلاح الدين بما أراده من ولايات، فقطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود وأزال اسمه عن السكة في بلادهِ، واتخذ لنفسه لقب "ملك مصر والشام"[٢].

لم يدرك الزنكيين أهمية إجراءات الخليفة العباسي تجاه صلاح الدين وعدوه أمراً لا قيمة له، أما بالنسبة لصلاح الدين فقد نال الشرعية في أعمالهِ، وأصبح المسؤول الأول عن الجهاد ضد الصليبيين بتكليف من الخليفة العباسي وليس من قبل الزنكيين[٣].

غضب حاكم الموصل سيف الدين غازي عندما علم بهزيمة عساكره والصلح الذي تم مع صلاح الدين، واتهمهم بالضعف، وحرضهم على نقض الصلح ومحاربة صلاح الدين فوافقوهُ على ذلك، وعندما تحقق صلاح الدين من الخبر، بدأ يستعد للقتال، فأرسل إلى أخيه العادل أحمد الأيوبي نائبهُ في مصر يأمره بإعداد العساكر والخروج إلى الشام في (شعبان سنة ٥٧١هـ / آذار ١١٧٦م) وذلك ليصفي حسابه مع الصالح إسماعيل وسيف الدين غازي وأمراء البيت الزنكي لنقضهم الصلح[٤].

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص ٦٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٩٤؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٣٣_٦٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٠٥_٥٠٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٤٠؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٠.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص ٦٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٩٥؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٠٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٤٤؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٢٢؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص١٠٠.

٣- الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧٢.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٤٧_٦٤٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٤١-٢٤٢؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٢.

بدأ حاكم الموصل سيف الدين غازي يجمع عساكره ويوزع عليهم الأموال، فاستنجد بصاحب كيفا[1] وصاحب حصن ماردين[2] وغيرهما، وتوجه إلى حلب حيث انضم إليه مدبر دولة الملك الصالح إسماعيل كمشتكين على رأس الجيوش الحلبية[3]، واستعان بالصليبيين وعلى رأسهم حاكم طرابلس ريموند الثالث فدارت موقعة بين الطرفين عند تل السلطان على الطريق بين حماة وحلب في (شوال سنة ٥٧١هـ / نيسان ١١٧٦م)، فحلت الهزيمة الساحقة بالزنكيين وحلفائهم وقتل منهم كثيرون[4]، وفي ميدان المعركة هرب سيف الدين غازي تاركاً ورائه معسكره وبه جميع متعلقاته، فدخله صلاح الدين، ووجد به آلات الطرب والصيد وأنواع الخمور وأدوات اللهو من الحمام والبلابل والببغاوات في الأقفاص، فبعث بها إلى سيف الدين غازي مع رسول، وقال له في لهجةٍ مليئةٍ بالتهكم والسخرية "خذ هذه الأقفاص واذهب بها إلى سيف الدين وأوصلها إليه، وسلم عنا عليه وقل له: عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في المحذور"[5]، بمعنى أن سيف الدين غازي يجب عليه اللعب بهذه بدلاً من خوض الحروب.

أراد صلاح الدين أن يقطع الصلة بين حلب والموصل لذلك ركز جهوده في الاستيلاء على بعض القلاع الواقعة شرقي حلب مثل بزاعة التي استولى عليها في (٢٢ شوال سنة ٥٧١هـ / ٣ أيار ١١٧٦م) ثم سار إلى منبج[6] وحاصرها لكنهُ لقي مقاومة عنيفة فيها، ولم تستسلم له إلا بعد أن أمر النقابين بنقب أسوار قلعتها، ثم فرض حصار على إعزاز واستولى عليها في (ذي الحجة سنة ٥٧١هـ / تموز ١١٧٦م)، هذه الانتصارات أثارت خوف الباطنية، فحاولوا اغتيال صلاح

١- كيفا: أظنها أرمينية، وهي بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٥.

٢- ماردين: مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل، بينها وبين دارا نصف مرحلة، وهي في سفح جبل ولها قلعة كبيرة شهيرة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥١٨.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٧٤؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧٢_١٧٣.

٤- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٤٢؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٢٩.

٥- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص ٦٥١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٠_٥١١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٣٠.

٦- منبج: هي مدينة حسنة البناء كثيرة المياه والأشجار، دورها وأسوارها مبنية من الحجارة، وهي قريبة من الثغور الشمالية، الشمالية، افتتحت صلحاً من قبل عمرو بن العاص، تعني منبج مدينة الكهان. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٤٤٤، ٤٤٩.

الدين للمرة الثانية أثناء حصاره لإعزاز حيث تسلل أحد الباطنية إلى خيمتهِ وضرب رأس صلاح الدين بسكين لولا الزرد الذي تحت القلنسوة "العمامة" لقتلهُ[1].

بعد استيلائه على إعزاز اتجه لحصار حلب للمرة الثالثة، وأثناء الحصار ترددت الرسل بينه وبين الحلبيين بشأن الصلح، على أن تكون حلب وأعمالها وقلعة إعزاز للصالح إسماعيل فقط، وعقد الطرفان الصلح في (المحرم سنة ٥٧٢هـ / تموز ١١٧٦م) بعد ذلك ترك صلاح الدين حصار حلب[2].

أما الباطنية "الحشيشية" الذين حاولوا اغتيال صلاح الدين أكثر من مرة ونجا بأعجوبة منهم فقد أراد الانتقام منهم، بعد عقد الصلح مع الحلبيين فتوجه لحصارهم في أمنع قلاعهم مصياف وقتل منهم الكثير ولم يتوقف حتى تشفع خاله حاكم حماة شهاب الدين الحسامي، وكانوا قد راسلوه لأنهم جيرانه[3]، ونتيجة لذلك أخذ صلاح الدين حذره، فأعد برجاً خشبياً حول خيمته، وصار ينام ولا يُسمح لمن لا يعرفه بالاقتراب أو الدخول عليه[4].

وهكذا نلاحظ أن مصالح الحكام الزنكيين والباطنية والصليبيين جميعاً تلاقت في التحالف ضد صلاح الدين والوقوف ضد أهدافه في تحقيق وحدة إسلامية بين مصر والشام وشمال العراق، والتي بدء بها نور الدين محمود، وهذه الوحدة كانت إنذاراً للحلفاء الثلاثة بالقضاء عليهم.

وفي أواخر سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م) تزوج صلاح الدين من عصمة الدين خاتون أرملة نور الدين محمود، وذلك حتى يظهر في صورة الوريث الشرعي لنور الدين محمود في أعين الشاميين

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٧٥_٧٦؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٥٦_٦٥٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١١_٥١٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٤٣؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٣١_١٣٢.

٢- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٦٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٢، ٥١٦؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٣.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٨١؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٦٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٦٧؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٣٣.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٦٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٤٢؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧٤.

، ثم قرر العودة إلى مصر[1].

إننا من خلال دراستنا لتاريخ صلاح الدين في تلك المرحلة نجدهُ لا يكاد يحارب الزنكيين عند أسوار حلب، حتى يعقد معهم الصلح ويتجه لردع الصليبيين، ولا يكاد يدخل في حرب ضد الصليبيين حتى يقبل طلبهم للهدنة ويسرع إلى مصر ليشرف على أوضاعها وتحصيناتها، ولا يكاد يقضي بعض الوقت في مصر حتى يعودَ للشام ليبدأ الدورةَ من جديد.

كان صلاح الدين مدركاً لحقيقة أن أي عمل حربي ناجح ضد الصليبيين، لا يتحقق إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية والذي يجب أن يبدأ بضم حلب والموصل، فقد بدأ صلاح الدين بالموصل سنة (٥٧٨هـ / ١١٨٢م)، وذلك عندما بلغهُ استعانة حكام الموصل بالفرنج الصليبيين والتعاون معهم ضد صلاح الدين، لكن صلاح الدين لم يأت بنتيجة لحصارهِ للموصل بأي نجاح محقق، وذلك لأن حاكم الموصل عز الدين مسعود (٥٧٢_٥٨٩هـ / ١١٧٦_١١٩٢م)، قد أعد عدته للحصار، وحشد داخل مدينتهِ أعداداً ضخمة من المقاتلين، وكميات وافرة من الطعام والسلاح والذخيرة[2]، أدى ذلك إلى إخفاق صلاح الدين في الاستيلاء على الموصل ووضعهُ بموقف حرج، لذلك عمل على طلب التأييد من الخليفة العباسي أحمد الناصر لدين الله (٥٥٣_٦٢٢هـ / ١١٥٨_١٢٢٥م)، فأرسل له رسالة يتهم فيها أتابك الموصل بالتحالف مع الصليبيين، فرد على ذلك أتابك الموصل بالاستعانة ببعض القوى الإسلامية المجاورة، مثل صاحب أذربيجان وصاحب أخلاط[3] وغيرهما، أما الخليفة العباسي فقد سعى إلى الوساطة بينهما[4]، وهذا يفسر لنا سبب اشتداد الغارات الصليبية على بصرى[5] ودمشق وحوران[6] في تلك الفترة، ويؤكد لنا أن حكام الزنكيين حالفوا الصليبيين عندئذٍ، وطلبوا منهم مهاجمة دمشق لطرد

١- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٧٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٨؛ الحويري: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧٤.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١١٤_١١٥.

٣- أخلاط: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٨٠_٣٨١.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٤٨.

٥- بصرى: الشام من أعمال دمشق، وهي قصبة كورة حوران مشهورة عند العرب قديماً. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٤١.

٦- حوران: جبل بالشام من أعمال دمشق ومدينتها بصرى، وفي شرقي هذه المدينة تجتمع مياه دمشق وتسير في صحراء مقدار خمسة عشر فرسخاً فتدخل دمشق. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٠٦.

صلاح الدين منها، وقد نجحت تلك الهجمات في تحويل نظر صلاح الدين عن الموصل فعاد إلى شمال الشام في صيف (٥٧٨هـ / ١١٨٣م)[١].

توفي الملك الصالح إسماعيل حاكم حلب في الحادية عشر من عمرهِ (٢٥ رجب سنة ٥٧٧هـ / ٣ كانون الأول ١١٨١م)، بعد أن أوصى بحكم حلب لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل لاستطاعته في الوقوف في وجه صلاح الدين لكثرة عسكرهِ وأمواله[٢]، فتسلم عز الدين مسعود حلب لكنه أدرك صعوبة مهمته وعدم إمكانيته الاحتفاظ بحلب والموصل معاً من صلاح الدين لبعد المسافة بينهما، لذلك تنازل عنها لأخيه حاكم سنجار[٣] عماد الدين زنكي الثاني (٥٦٦_٥٩٣هـ / ١١٧١_١١٩٧م)، مقابل أن يأخذ سنجار عوضاً عنها، وبعض المؤرخين يذكر بأن حاكم سنجار عماد الدين زنكي طالب بذلك، فوافق عماد الدين الثاني واستلم حلب في (١٣ محرم سنة ٥٧٨هـ / ١٣ أيار ١١٨٢م)، واستقر بها[٤]. ومن الواضح أن تصرفات حكام الزنكيين كانت بعكس أهداف صلاح الدين الوحدوية.

بعد أن جمع صلاح الدين الجيوش غادر مصر إلى الشام في (محرم سنة ٥٧٨هـ / أيار ١١٨٢م)، وذلك لحماية مصالحهِ في الشام[٥]، ليتوجه لحصار حلب، وقد أبدى أهل حلب وأمراء النوريين مقاومة عنيفة، عند حصار صلاح الدين لحلب، ولشدة بخل عماد الدين زنكي الثاني، رفض إعطاء المال لسد نفقات الجند، ولم يتمتع بالشجاعة والدهاء، حيث رفض عماد الدين الزنكي الثاني الاستعانة بالصليبيين أو حتى بأخيه حاكم الموصل عز الدين مسعود، ولم تنفع مقاومة الحلبيين لوحدهم، وخاصة أن حاكمهم عماد الدين زنكي الثاني خطط للهرب وراسل صلاح الدين سراً يعرض عليه تنازله عن حلب مقابل إعطائه بلدة سنجار، وكان صلاح الدين قد

١- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦١.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٠٦؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٩٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٥١_٥٥٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٨٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٩٠_١٩١.

٣- سنجار: هي برية الثرثارة، ومدينتها الحضر، وهي كلها من الجزيرة، وفي سنجار فوهة نهر الخابور، ويمر بها حتى يصب في الفرات. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٢٦.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٠٨؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٠٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٥٢_٥٥٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٨٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٩٥_١٩٦.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١١٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٥٣؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٩٦.

رحب بهذا العرض وزاده الخابور ونصيبين والرقة[١] وسروج[٢] مقابل مساعدته في قتال الصليبيين[٣]، فقد كسب صلاح الدين بهذا الاتفاق مكسباً عظيماً لا يقدر بثمن لأهميته.

دخل صلاح الدين قلعة حلب في (١٨ صفر سنة ٥٧٩هـ / ١١ حزيران ١١٨٣م)، ورفع رايته الصفراء، وألغى الضرائب، وأسقط المكوس، وعين عليها ابنهُ الظاهر غياث الدين غازي[٤] (٥٦٨_٦١٣هـ / ١١٧٣_١٢١٦م)، مما لا شك فيه أن سيطرة صلاح الدين على حلب جاء نصراً كبيراً في تحقيق مشروع توحيد الجبهة الإسلامية، كما كان ضربة كبرى أحس بها الصليبيون واعترف بها مؤرخيهم[٥]، بعد استيلاء صلاح الدين على حلب وجه أنظاره لحصار الموصل للمرة الثانية (٥٨١هـ / ١١٥٨م) أكثر من الصليبيين، وعندما وصل صلاح الدين إلى بلد أرسل لهُ عز الدين مسعود وفداً يضم والدتهِ وابنة نور الدين محمود مع سيدات أخريات، طالبين الصلح من صلاح الدين وعقد معاهدة سلام تتضمن أن تكون القوات الموصلية في خدمة صلاح الدين عندما تقضي الحاجة مع استقلال الموصل، لكنهُ رفض طلبهن، وفيما بعد ندم على ردهم خائبين[٦]، ثم ترك حصار الموصل مؤقتاً ليستولي على ميافارقين[٧]، وعندما عاد صلاح الدين لحصار الموصل للمرة الثالثة أصابه المرض، فاستغل أهل الموصل ذلك وسعوا إلى الصلح، وفعلاً تم الصلح بين صلاح الدين وحاكم الموصل عز الدين مسعود في (محرم سنة ٥٨٢هـ / آذّار ١١٨٦م)، وبموجب هذا الصلح رضي حاكم الموصل بأن يكون تابعاً لصلاح

١- الرقة: مدينة في الجزيرة الفراتية الى جانب واد ينبسط يليها الماء عند المد فهي رقة، وسميت المدينة والرقة واسطة بلاد حضر ومن مدنها الرها وسروج ورأس العين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٧٠.

٢- سروج: بلد من أرض الجزيرة وبمقربة من ملطية وهي رستاق كثير القرى والكروم في بطن بين جبال. وهي تقع شمال حران، حصينة كثيرة الأشجار والمياه الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣١٥؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٣، ق١، ص١٠١.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٢١؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٠١_١٠٢؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٤٠٧_٤٠٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٦٣؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٥٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٣٣.

٤- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٠٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٦٤_٥٦٥؛ الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٩٦.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٤٩.

٦- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٦٧_٢٦٨.

٧- ميافارقين: بلد معروف من أرض أرمينية بين حدود الجزيرة وحدود أرمينية وهي من شرقي دجلة، وفتحها عياض بن غنم على مثل صلح الرها. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٦٧.

الدين وبأن يخطب باسمهِ على المنابر ويضرب السكة باسمه[1]، وأن يتعهد حاكم الموصل عز الدين مسعود بمساعدة صلاح الدين بالمال والجيش لاستعادة بيت المقدس، ولما تم الصلح أهدى صلاح الدين هدايا قيمة لعز الدين، وبعد شفاء صلاح الدين من مرضه توجه إلى دمشق في (ربيع الأول سنة ٥٨٢هـ / أيار ١١٨٦م)[2].

وبذلك استطاع صلاح الدين إعادة الوحدة للبلاد الإسلامية العربية، بعد وفاة نور الدين محمود، وعادت البلاد من الفرات إلى النيل تخضع لسلطة واحدة، وتم استكمال تحقيق جبهة إسلامية واحدة. ولم يبق أمام صلاح الدين إلا العناية بتحصين مصر وبعض المناطق الداخلية، تمهيداً لإنزال الضربات القاسية بالصليبيين، وهكذا نجح صلاح الدين في بناء أعظم دولة ممتدة من أعالي العراق والجزيرة والشام ومصر واليمن، وهذا ما لم يحققهُ سيدهُ نور الدين محمود، وبذلك أتم الخطوة الأولى من هدفه في توحيد البلاد، ثم البدء بالجهاد ضد الصليبيين.

٤- تحصين مصر "تحصين عاصمة البلاد":

عين صلاح الدين أخاه شمس الدين تورانشاه نائباً عنه بدمشق قبل أن يغادرها إلى مصر لتنظيم أمورها الداخلية في (ربيع الأول سنة ٥٨٢هـ / أيار ١١٨٦م)[3]، وهنا نلاحظ أن صلاح الدين لم يتخذ الشام مقراً له كما فعل نور الدين زنكي في صراعه مع الصليبيين، بل اتخذ مصر وعمل على تحصينها كجبهة موحدة مع الشام ضد الخطر الصليبي.

وفي الوقت نفسه لم ينس صلاح الدين مطامع الصليبيين في مصر، وظل طيلة الوقت الذي قضاه في توحيد الجبهة الإسلامية متخوفاً من قيام الصليبيين بهجوم مباغت على مصر، مثلما فعل ملك بيت المقدس السابق الملك عموري الأول، إذ إن صلاح الدين لم يكن مبالغاً في مخاوفه، فقد كانت اتصالات جادة بين الصليبيين والبيزنطيين سنة (٥٧٣هـ / ١١٧٧م) للقيام بمحاولة جديدة لغزو مصر[4].

إن تفكير صلاح الدين في تحصين مصر يرجع إلى أيام وزارته، أي قبل سقوط الخلافة الفاطمية، وذلك أن صلاح الدين شرع في سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م) في ترميم سور القاهرة

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٧٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٧٠، ٢٧٩.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٧١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٩٢.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٣٩.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٤٩_٥٠.

وإصلاح ما فيه من عطب بعد أن "تهدم أكثرهُ وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً"[١]، فقد عمل صلاح الدين وقتها ضمن إمكاناته المتاحة فقد كان وزيراً فاطمياً وقائداً عسكرياً لنور الدين محمود من جهة ثانية، لكن إمكانيات صلاح الدين تغيرت بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد ثم وفاة سيدهِ نور الدين محمود، حيث أصبح سيد البلاد والمسؤول عن حمايتها وصيانتها.

لقد اكتسب صلاح الدين في الفترةِ التي قضاها في بلاد الشام التعرف على عدة مدن محصنة، وحصون مسورة بأسوار عالية محكمة البناء، وهكذا عاد صلاح الدين من الشام إلى مصر سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م) ثم سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م)، ليقوم بسلسلة من التحصينات القوية لحماية مصر وعاصمتها وثغورها ضد أي هجوم مفاجئ من جانب الصليبيين[٢]، وقد علمتهُ التجربة أن المدينة تسقط بسهولة، في حين تظل القلعة صامدة فتشكل ملاذاً آمناً للأهالي وقاعدة للمقاومة يمكن من خلالها استعادة المدينة مرة أخرى[٣].

حيث كانت الفسطاط والقاهرة لكل منهما سور منفصل عن الآخر[٤]، وقد كان اختيار صلاح الدين لجبل المقطم[٥] مكاناً لبناء القلعة مناسباً من الناحية العسكرية وذلك يساعده على بناء سور واحد يحيط به الفسطاط والقاهرة وقلعة يسيطر ويدافع بها عن المدينة ومقر له في السلطنة فكانت القلعة على علو مائتي وخمسين قدماً[٦]، وملاذاً يحتمي به إذا هددتهُ ثورة داخلية من جانب جانب أتباع الفاطميين، أو خطر خارجي من جانب الصليبيين[٧].

بدأ ببناء القلعة والسور حول مصر والقاهرة سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م)[٨]، واستمر العمل بها لمدة ثلاثين عاماً حتى عهد الملك الكامل محمد (٦١٥_٦٣٥هـ / ١٢١٨_١٢٣٨م)، وأشرف على البناء الخصي بهاء الدين قراقوش الأسدي[٩] واستخدمت حجارة الأهرامات الصغيرة الموجودة

١- المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٩٦_٩٧.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٩؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٧٥.

٣- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧٦.

٤- أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق٢، ص٦٨٧.

٥- المقطم: جبل يتصل بمصر أوله من ديار مصر، فيمر في الصحراء الى أن ينتهي الى قرب أسوان، وهو جبل مشهور بالطول. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٥٧.

٦- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧٦.

٧- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٥١.

٨- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٣.

٩- المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٣٥، ٤١.

بالجيزة بعد هدمها في بناء السور والقلعة، وبلغ محيط السور الجديد بعد إتمامه أربعة وعشرين كيلو متراً[١].

كما عمل على إحياء البحرية كسلاح مضاد للعدوان الصليبي، فأمر بإنشاء ديواناً خاصاً للإنفاق على الأسطول عرف باسم ديوان الأسطول سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م)[٢]، كما كانت أغلب غزوات الصليبيين لمصر تأتي عن طريق شبه جزيرة سيناء وهي المنطقة التي تفصل بين مصر ومملكة بيت المقدس الصليبية الممتدة حتى حدود مصر في صحراء النقب، فأمر بإقامة مراكز محصنة وسلسلة من القلاع، أهمها قلعة صدر في قلب سيناء وشرقي السويس في طريق آيلة[٣]، ولا تزال القلعة موجودة إلى الآن، وقد زودها بالصهاريج لحفظ المياه[٤].

وهكذا اهتم صلاح الدين اهتماماً كبيراً بتحصين عاصمة مصر وموانئها وثغورها حتى يأمن من غدر الصليبيين، وإن اهتمامه ببناء القلاع والأبراج وتحصين المدن والثغور[٥] في مصر، لم يكن أقل من اهتمامهِ بذلك الأمر في بلاد الشام، فأكثر من بناء الحصون في المواقع الاستراتيجية في تلك البلاد، وحرص على تحصين القلاع لتكون مراكز لعملياته الحربية الكبرى ضد الصليبيين.

٥- جهوده في محاربة الصليبيين "قبل معركة حطين":

ولدَ صلاح الدين وشبَ في بلاد الشام، في عصر شهد ازدهار حركة الجهاد الديني ضد الصليبيين، بعد أن أعطى عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود لها طابعاً عملياً، لأنهما بدءا من الخطوة الأساسية والضرورية وهي توحيد الجهود وجمع الشمل لإقامة جبهة

١- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٧٦.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥١٩؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١٧؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٤٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٤١.

٣- آيلة: في طريق مكة وهي أول حد الحجاز، وهي مدينة جبلية على ساحل البحر المتوسط، وبها يجتمع حجاج مصر والمغرب، وبها التجارة الكثيرة وأهلها أخلاط من الناس. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٧٠.

٤- ماجد (عبد المنعم): صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧م، ص١٠٥.

٥- الثغور: هي المدن الواقعة على الأطراف الإسلامية في آسيا الصغرى وأرمينية حيث استقر المرابطون للجهاد، وفيها عاش كثير من الصوفية والعلماء لجهاد الروم، فقدت هذه الثغور كثير من أهميتها بعد أن سقطت أسيا الصغرى بيد السلاجقة. وهي كل موقع قريب من العدو سمي ثغراً، والثغرة هي الفرجة في الحائط. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص٤٩؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٢، ق٢، ص٣٥٣.

إسلامية تضم على الأقل البلدان الإسلامية الأكثر تعرضاً للخطر الصليبي وهي بلاد الشام ومصر وشمال العراق.

إن المصادر التاريخية لا تقدم الشيء الذي يذكر عن إسهام صلاح الدين في محاربة الصليبيين في مستهل حياته قبل مجيئه لأول مرة إلى مصر سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م)، وكان الأمر الذي لا شك فيه في أن صلاح الدين قضى وقتاً مهماً مع نور الدين محمود في دمشق ذلك الوقت الذي كان ممتلئً بأعمال الجهاد ضد الصليبيين.

بدأت صفحة جديدة في تاريخ صلاح الدين وعلاقتهِ بالصليبيين وجهاده ضدهم بوصولهِ مع عمهِ أسد الدين شيركوه إلى مصر لأول مرة سنة (٥٥٩هـ / ١١٦٤م)، ذلك أن الحملات الثلاث التي أرسلها نور الدين محمود إلى مصر سنة (٥٥٩، ٥٦٢، ٥٦٤هـ / ١١٦٤، ١١٦٧، ١١٦٨م)، والتي شارك فيها صلاح الدين إنما كانت في حقيقة أمرها موجهة ضد الصليبيين الذين غزوا مصر وحاولوا امتلاكها في تلك المرحلة، وتعد المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين في مصر عندئذٍ، المحك الأول بين صلاح الدين والصليبيين، حيث قام صلاح الدين بدور بارز في موقعة البابين في (رجب سنة ٥٦٢هـ / نيسان ١١٦٧م)، كما تعرض صلاح الدين لحصار من قبل الفاطميين و الصليبيين في الإسكندرية مما أكسبهُ خبرة بأساليب الصليبيين في الحرب.

استطاع صلاح الدين في سنة (٥٦٥هـ / ١١٧٠م)، من مهاجمة داروم "دير البلح" جنوب غزة[١] وأخذ الغنائم وعاد منتصراً إلى مصر[٢]، بعد وفاة نور الدين محمود، سيطرت الفوضى والانقسامات على الدولة الزنكية، فعمل صلاح الدين على إنقاذ الموقف وركز جهوده في توحيد القوى الإسلامية ضد الخطر الصليبي الأمر الذي دفع أمير طرابلس والوصي على مملكة بيت المقدس ريموند الثالث وبعض القوى الزنكية المتبعثرة إلى التحالف ضد مشروع صلاح الدين الوحدوي ونجحوا في صرف أنظار صلاح الدين عن حلب مؤقتاً في (رجب سنة ٥٧٠هـ / شباط ١١٧٥م)[٣].

١- غزة: موضع بديار جذام من مشارف الشام على ساحل البحر وبها قبر هشام بن عبد مناف. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٦٣.

٢- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٥٩.

٣- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٥٩.

غادر صلاح الدين الشام إلى مصر في أواخر سنة (٥٧١هـ / ١١٧٦م)، وصرف اهتمامهِ إلى تحصين مواقعهِ الدفاعية، خاصة في القاهرة، حيث بنى السور حولها والقلعة، واهتم بتعمير الأسطول وزار الإسكندرية وحصنها، ومتابعة لأعماله الجهادية توجه في سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٧م)، من القاهرة إلى بلبيس واجتازها دون أية مقاومة تذكر حتى وصلت قواتهِ إلى عسقلان، فأسرع إليها الملك بلدوين الرابع المجذوم (٥٧٠_٥٧٩هـ / ١١٧٤_١١٨٣م) قبل وصول صلاح الدين، لكن ذلك لم يمنع صلاح الدين من أسر معظم المدافعين عن عسقلان، مما أعطى الطمأنينة في نفوس قوات صلاح الدين فانتشروا يقتحمون القرى للحصول على الغنائم، حتى ابتعدوا عن عسقلان، الأمر الذي مكن الملك بلدوين الرابع من إرسال رسالة يطلب المساعدة من فرسان الداوية[١]، مستغلاً فرصة انتشار قوات صلاح الدين بين القرى والمدن وعدم تجمعها، للهجوم عليها مما لحق الهزيمة بقواتهِ واستطاع النجاة بنفسهِ بأعجوبة حتى رجع لمصر، استفاد صلاح الدين من درس الهزيمة، وتأكد أنهُ من الخطأ مواجهة الفرنجة قبل توحيد الجبهة العربية الإسلامية، وهذا ما سيفعلهُ في السنوات العشر المقبلة، حيثُ رأى إنهُ من الأجدى أن يتمركز في الشام والتي وصل إليها في أواخر ربيع سنة (٥٧٣هـ / ١١٧٨م)، ثم استطاع تحقيق هجوم ناجح على بانياس في سنة (٥٧٤هـ / ١١٧٩م)[٢]، وفي سنة (٥٧٥هـ / ١١٧٩م)، استطاع صلاح الدين من محاصرة حصن بيت الأحزان وهو قريب من صفد وموقعهُ هدد المسلمون فخربهُ وأخذَ حاميتهُ أسرى إلى دمشق[٣]، وأثناء وجودهِ في بانياس سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م)، قام بهجوم فاشل على طبرية، لكن الفرنجة الصليبيين طالبوا عقد هدنة بسبب خلافاتهم حول السلطة، في حين كان صلاح الدين يستعد للاتجاه نحو الشمال، فوافق صلاح الدين على عقد هدنة، ليس لخوفه من الفرنجة، ولكن بكل بساطة بسبب القحط الذي نزل بالبلاد لمدة خمس سنوات من جهة ولتوجههِ نحو الشمال من جهة ثانية[٤]، وفي سنة (٥٧٨هـ /

١- الداوية: هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون المسلمون على جمعية فرسان المعبد، وقد أسسها صونج دي بين لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ثم تحولت لهيئة حربية دينية، وكان لها أثر بالغ الخطورة خلال قرني الحروب الصليبية في المشرق، وكان له أثر في أوربة، وتمت تصفيتها في (القرن الثامن الهجري / مطلع القرن الرابع عشر الميلادي) من قبل ملك فرنسا فيليب الجميل. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص٢٨٤؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٤١٤؛ زكار (سهيل)، جوني (وفاء)، إسماعيل (اكتمال): حروب الفرنجة الصليبية، جامعة دمشق، منشورات جامعة دمشق، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٢٢٣.

٢- الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٤٢_٤٤.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٣٧.

٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٣٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص١٧٥_١٧٦.

١١٨٢م) خرج صلاح الدين من مصر إلى الشام فاتجه نحو الكرك وطبرية وبيسان ودخل دمشق منتصراً محملاً بالغنائم[١].

إلا أن صلاح الدين استطاع أن يحارب الزنكيين حيناً ويدفع الصليبيين حيناً آخر، مع حرصه الشديد على عدم فتح جبهة ضد الصليبيين حتى لا يحارب في جبهتين في وقت واحد، في انتظار توحيد الجبهة العربية الإسلامية، وهكذا حتى استولى صلاح الدين على حلب سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م)، ثم دخلت الموصل تحت طاعة صلاح الدين في سنة (٥٨١هـ / ١١٨٦م) عندها أصبح بإمكان صلاح الدين أن ينصرف بكليته إلى الفرنج[٢].

بعد أن استولى صلاح الدين على حلب في (١٨ صفر سنة ٥٧٩هـ / ١١ تموز ١١٨٣م)[٣]، خاف الصليبيون في شمال الشام وخاصة أنطاكية[٤] القريبة من حلب، وأدركوا خطورة الموقف فأرسل حاكمها بوهيموند الثالث جماعة من الأسرى المسلمين وطلب الأمان فوافق على ذلك ومنحه الأمان، ثم سيطر على حارم[٥]، فسيطرة صلاح الدين على حلب ومهادنتهُ لصليبي أنطاكية جعلته يركز في هجماتِهِ على مملكة بيت المقدس، والتي كانت قد بلغت وقتها درجة شديدة من الضعف بعد أن ساءت أحوال ملكها المريض وقام بالوصاية على العرش غي لوزيننان (٥٤٤_٥٩٠هـ / ١١٥٠_ ١١٩٤م) وهو أمير ضعيف اتصف بالتردد وسوء التقدير[٦]، مع وجود وجود حاكم حصن الكرك الأمير أرناط الذي اتبع سياسة استفزازية جعلت صلاح الدين يفكر في ضرورة اتخاذ إجراء حاسم وسريع ضد الصليبيين، ولم يكن أرناط هذا من طراز الفرسان الذين مجدتهم العصور الوسطى لحرصهم على أزهى مبادئ الفروسية وهو التمسك بالشرف، وإنما عرفَ عنهُ حبهِ للسلب والنهب ونقض العهود والاعتداء على الأبرياء المسالمين[٧]، مستغلاً موقع إمارتهِ _حصن الكرك_ لقطع طريق القوافل بين مصر والشام والحجاز، وفي سنة (٥٧٨هـ / ١١٨٢م)، بدأ في تنفيذ خطته للوصول إلى الأماكن المقدسة الإسلامية وكان قد بدأ أرناط في

١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٥٦.

٢- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٠.

٣- الحويرى: بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، ص١٩٦.

٤- أنطاكية: مدينة عظيمة بالشام على ساحل البحر، بناها بطليموس بن هيفلوس الثاني من ملوك اليونانيين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٨.

٥- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٩٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٣٨.

٦- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٠٠؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٤٧.

٧- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦١؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٤٧.

تلك السنة بالاستيلاء على آيلة وهو الميناء الهام على رأس خليج العقبة ثم قام أرناط ببناء عدة سفن وشحنها بالمقاتلين[١]، حيث استولى على مركب قادم من جدة وقتل جميع الحجاج فيه، كما استولى على مركبين فيهما بضائع جاءت من اليمن، كذلك استولى على أطعمة كثيرة من الساحل كانت معدة لإرسالها إلى الحرمين الشريفين، ثم مضوا إلى الحجاز يريدون دخول مدينة الرسول ولم يفصلهم عن المدينة المنورة سوى مسيرة يوم واحد فقط[٢]، الأمر الذي فرض التدخل السريع فأسرع الملك العادل أحمد أخو صلاح الدين ونائبه في مصر إلى إرسال أسطول قوي إلى البحر الأحمر ونجح في تدمير سفن الصليبيين وأسر كثير من رجالهم وأخذهم إلى القاهرة وقتلهم جميعاً ولم يبق منهم واحد في حين هرب أرناط بصعوبة كبيرة[٣]، وفي سنة (٥٧٩هـ / ١١٨٣م)، خرج صلاح الدين إلى بيسان وطبرية وجرى بينه وبين الفرنج قتال كثير[٤]، وأحرقها وحاول استدراج قوات مملكة بيت المقدس للاشتباك معه في معركة لكن محاولته لم تنجح فعاد إلى دمشق[٥].

وقد رد صلاح الدين على عدوان أرناط بحصار حصن الكرك وساندهُ أخوه العادل أحمد على رأس جيشهِ، ورمى الحصن بالمنجنيق[٦]، ولكن مناعة الحصن حالت دون اقتحامهِ وعلى الرغم من شدة مرض ملك بيت المقدس الملك بلدوين الرابع، إلا أنهُ أسرع بقواته لنجدة الكرك، فانسحب صلاح الدين إلى دمشق[٧]، ثم حاصر صلاح الدين حصن الكرك للمرة الثانية في (٤ جمادى الأول سنة ٥٨٠هـ / ١٢ أب ١١٨٤م)، لكن مناعة أسواره ووصول الإمداد لها، أجبرت صلاح

١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٥٧؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٤٨.

٢- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٠؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٤٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٢٠.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٥٧؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٠٤؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٥٠.

٤- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٤٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٦٥؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١١٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٤١.

٥- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٠٩؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١١٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٤٢.

٦- المنجنيق: آلة من آلات الحصار وكانت قذائفه من الحجارة. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، والجزيرة، ج١، ق٢، ص٨٥.

٧- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٦٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٠٤_٣٠٥؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٤٦_٢٤٧.

الدين على الانسحاب[1]، ثم اتجه إلى نابلس[2] وأحرقها في (٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ / ١٥ آب ١١٨٤م)[3].

انشغال صلاح الدين بتنظيم الأوضاع الداخلية في البلاد، وإحلال أبنائه مكان أخوته وأبناء عمومته في حكم الأجزاء الرئيسية من البلاد جعلهُ يعقد هدنة مع الصليبيين مدتها أربع سنوات تبدأ سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٥م)[4]، على أن يلتزم أرناط بالرسوم التي يفرضها على قوافل التجارة المارة بإمارته، والتي كان يجني منها أرباحاً طائلة هذا إلى جانب الأموال التي دفعها صلاح الدين له سراً دون أن يعلم بها أحد ليسد جشعه[5].

لقد استفاد كلا الطرفين من هذه الهدنة إذ أتاحت لصلاح الدين فرصة تنظيم دولتِهِ واستكمال وحدة البلاد، وفي الوقت نفسه أتاحت للصليبيين فرصة لا تعوض في تصفية كثير من المشاكل الداخلية بعد وفاة بلدوين الرابع في (ذو الحجة سنة ٥٨٠هـ / آذار ١١٨٥م).

٦- جهوده في محاربة الصليبيين "معركة حطين":

بعد أن أكمل صلاح الدين هدفهُ في ضم حلب والموصل وأعالي الجزيرة وتوحيد بلاد الشام مع مصر في جبهة واحدة أصبح مستعد للقيام بهجوم شامل على الصليبيين، أما الصليبيون فقد انتهى صراعهم الداخلي بعد وفاة الملك بلدوين الرابع إلى اختيار غي لوزينيان ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية، لكنهُ كان ضعيف الشخصية، بينما استمر أرناط يسيطر على حصن الكرك _شرق البحر الميت_ وهو الحصن الذي يتحكم بموقع استراتيجي على طرق التجارة بين مصر والشام والحجاز، ولكن أرناط لا يستطيع أن يحيا هادئاً دون أن ينهب ويسرق[6].

١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٦٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٠٥؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٥٥_٢٥٦.

٢- نابلس: من مدن الشام، وهي مدينة السامرية، وبها البئر التي حفرها يعقوب. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٧١.

٣- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١١٤_١١٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٦٧؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٥٧.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٢؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١١٦_١١٨.

٥- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٨٦؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥١.

٦- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦١؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٥٣.

اتبع صلاح الدين سياسة التفرقة بين الصليبيين فوافق على طلب أمير طرابلس ريموند الثالث في عقد هدنة سنة (٥٨٢هـ / ١١٨٦م)، وذلك لعزل الصليبيين عن بعضهم[١]، ثم جرت مفاوضات بينهُ وبين إمبراطور بيزنطة الكسيوس الثاني (٥٧٥_٥٧٩هـ / ١١٨٠_١١٨٣م) وصلاح الدين، تم التوصل لعقد معاهدة بينهما فتحسنت العلاقات البيزنطية الأيوبية بينما ساءت العلاقة بين الصليبيين والبيزنطيين[٢].

لقد تسبب حاكم الكرك ريجنالد شاتيون "أرناط" والمعروف بالغدر والخيانة، إلى إفساد هذه الهدنة، حيث هاجم قافلة قادمة من القاهرة إلى دمشق ومحملة بكل غالٍ ونفيس، وأسر رجالها وأخذهم إلى حصن الكرك وذلك أوائل سنة (٥٨٢هـ / ١١٨٧م)، حاول صلاح الدين استرداد القافلة والرجال عن طريق المفاوضات، لكن أرناط رفض على الرغم من وجود هدنة، كما أنهُ رفض الاستجابة لملك مملكة بيت المقدس غي لوزينيان ولحاكم طرابلس ريموند الثالث عندما طلبا منهُ رد الأسرى والغنائم لصلاح الدين وعد نفسهُ مستقلاً عن ملك بيت المقدس[٣].

وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب، فبدأ بحركة تعبئة شاملة لجميع قوى المسلمين وكافة مواردهم البشرية والمادية استعداداً لحركة الجهاد الكبرى والتي استمرت حتى (القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي) بالقضاء على آخر الفلول الصليبية بالشام.

اختار صلاح الدين دمشق مركزاً له في تلك المرحلة، حتى ينظم تحركات قواته في مصر والجزيرة وحلب وديار بكر[٤]، وعندما اكتملت استعداداته خرج صلاح الدين من دمشق في منتصف (محرم سنة ٥٨٣هـ / آذار ١١٨٧م)، وتوجه إلى بصرى منتظراً وصول الحجاج خوفاً عليهم من غدر حاكم الكرك ريجنالد شاتيون وبعد وصولهم، سار إلى الكرك ونازلها وقطع أشجارها وأفسد زروعها وكرومها ثم سار إلى الشوبك وفعل بها مثل ذلك، وعند وصول الإمدادات

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤١_١٤٢؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٢٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٨٧.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤١_١٤٢؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٢٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٧٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٨٩.

٣- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٦٩؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٠٦؛ العريني (السيد الباز): الأيوبيون، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٣م، ص٢١؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٢؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٥٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٢٩٠.

٤- ديار بكر: هي بلاد واسعة حدها غرب دجلة الى بلاد الجبل المطل على نصيبين، ومنها حصن كيفا وآمد وميافارقين. وميافارقين. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٤.

من مصر وجهها للإغارة على الشوبك والكرك ثم عاد بمن معه من قوات إلى دمشق[1].

أما ملك مملكة بيت المقدس الملك غي لوزينيان جمع جيوشه في الناصرة[2]، فدارت المعركة الأولى بين المسلمين والصليبيين قرب صفورية[3] في (صفر سنة ٥٨٣هـ / أيار ١١٨٧م)، وفيها سقط عدد من أفراد الجيش الصليبي بين قتيل وأسير، فتجمعت الجيوش الصليبية في صفورية استعداداً للانتقام، قد رد صلاح الدين على تجمع الصليبيين في صفورية بتوجيه عساكر دمشق وحلب والجزيرة والموصل وديار بكر، فاجتمعت برأس الماء وأغارت على طبرية[4] وأحرقتها ولكن لم يستطع المسلمون الاستيلاء على قلعتها وهذا ما أوضحتهُ المصادر التاريخية، بأن هدف صلاح الدين مهاجمة طبرية أن يجبر الصليبيين على ترك مواقعهم عند صفورية، مما يمكنهُ من إنزال الهزيمة بهم بعد أن يعتريهم التعب لطول الطريق وحرارة الجو[5].

قام أحد أبناء صلاح الدين في (صفر سنة ٥٨٣هـ / نيسان ١١٨٧م)، بالإغارة على أرض الصليبيين انتقاماً من حاكم الكرك أرناط، ولما كان عليه المرور في أراضي تابعة لحاكم طرابلس ريموند الثالث "الذي كان في هدنة واتفاق مع صلاح الدين" استأذن منهُ عبور أراضيه على أن هذا الطلب أحرج حاكم طرابلس ريموند الثالث الذي حرص على الإبقاء على صداقة صلاح الدين، ومع هذا اشترط على القائد الإسلامي ألا يدخل المملكة إلا بعد شروق الشمس ويغادرها قبل الغروب ولا يفعل ضرر ببلاده، وأخبر مملكة بيت المقدس بذلك[6]، ومما زاد موقف ريموند حرجاً وقوع زوجته حاكمة قلعة طبرية بالحصار من قبل قوات صلاح الدين، وما كادت أخبار هجوم طبرية تصل إلى الصليبيين حتى دعا ملك مملكة بيت المقدس مجلس الحرب إلى الانعقاد، فكان من المنتظر أن يكون حاكم طرابلس ريموند الثالث أول المتحمسين على التوجه من صفورية إلى طبرية من أجل زوجته، لكنه أشار على الملك بأن لا يتحرك من موضعه، بل

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٣؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٢٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٧٩؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٠٩؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٥٦_٥٧.

٢- الناصرة: قرية بالشام على ثلاثة عشر ميلاً من طبرية، ذكر بعضهم أن فيها ولدَ السيد المسيح عليه السلام وأهل بيت المقدس ينكرون ذلك. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٦٣.

٣- صفورية: موضع في ثغور الشام معروف. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٦٣.

٤- طبرية: فتحت على يد شرحبيل بن حسنة في سنة (١٣هـ / ٦٣٤م) صلحاً على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وهي بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي في طرف جبل وجبل مطل عليها، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٧.

٥- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨٠؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٦٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٠٠.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٤؛ العريني: الأيوبيون، ص٨٣.

طلب منه الرجوع إلى المدن الساحلية الحصينة وأن يترك صلاح الدين يجتاز الهضبة، إلا أن عدائهِ مع جيرار مقدم الداوية، الذي استطاع إقناع الملك بغير ذلك، فأصدر الملك الأمر إلى الجند بالمسير، لكن الواقع أن ما كان يراه حاكم طرابلس ريموند الثالث هو الصواب من الناحية الاستراتيجية لوعورة الطريق وقلة الماء وحرارة الجو[1].

وقد نجحت خطة صلاح الدين، فتحرك الصليبيون للدفاع عن طبرية وساروا في شهر (جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ / تموز ١١٨٧م)، في ظروف قاسية بسبب حرارة الجو وقلة الماء ووعورة الطريق[2]، وعندما علم صلاح الدين بتوجه الصليبيون باتجاهه سُرَ سروراً كبيراً وقال: "جاء ما نريد"[3]، حيثُ انطلق الجيش الصليبي صباح يوم الجمعة (٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ / ٣ تموز ١١٨٧م)، في طريقهِ إلى طبرية، يتقدمه حاكم طرابلس ريموند الثالث، لأن الجيش يجتاز إمارته، وبينما يتجه الجيش شرقاً، تعرضوا من جميع الجهات لكمائن المسلمين[4].

بينما كان صلاح الدين ورجاله ينعمون بالظلال والماء عند بحيرة طبرية، كان على الصليبيين أن يسلكوا بدروعهم الحديدية طريقاً وعراً مرتفعاً طوله ١٦ كم لا ماء فيه وفي لهيب حرارة شهر تموز الشديدة، وقد حرص صلاح الدين على أن يترك لهم تلاً صخرياً مجاوراً لهُ قاحلاً لا ماء فيه وهو تل حطين[5]، وعند وصولهم متعبين أشعل المسلمون النار في الأعشاب المجاورة فاجتمع عليهم حر الزمان وحر النار والدخان والعطش[6]، حاول الصليبيون الوصول إلى إلى بحيرةِ طبرية لكن منعهم المسلمون ودار قتال شديد بين الطرفين فلم يجد الصليبيون منقذاً لهم سوى التوجه نحو قمة جبل حطين، فقام المسلمون بهجوم شامل أنهوا المعركة وأحرقوا خيام

١- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣١٥؛ العريني: الأيوبيون، ص٨٧؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٣؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٥٩.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٦؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣١٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٣.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٦؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٣؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٣.

٤- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣١٨؛ العريني: الأيوبيون، ص٨٧؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٦٠.

٥- حطين: قرية بين أرسوف وقيسارية، كان صلاح الدين قد أوقع بالإفرنج في منتصف (ربيع الأخر سنة ٥٨٣هـ / حزيران ١١٨٧م) وقعة عظيمة منكره ظفر فيها بملوك الإفرنج ظفراً. الحموي: معجم البلدان: ج٢، ص٢٧٣_٢٧٤.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٧؛ المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٤٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣١٨؛ العريني: الأيوبيون، ص٨٩؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٣؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٦١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٠٦.

الصليبيين وقتلوا معظمهم وأسروا الباقي[١]، فقتل ثلاثون ألفاً وأسروا ثلاثون ألفاً[٢]، وكان من جملة الأسرى ملك مملكة بيت المقدس غي لوزينيان وحاكم الكرك أرناط ومقدم الداوية بينما استطاع حاكم طرابلس ريموند الثالث الهرب إلى طرابلس فسيقوا جميعاً إلى خيمة صلاح الدين الذي استقبلهم خير استقبال ما عدا حاكم الكرك أرناط الذي قتلهُ وفاءً لقسم له[٣]، كما أمر بقتل أسرى الداوية والإسبتارية[٤] وسيق باقي الأسرى إلى دمشق حيث بيعوا بيع الرقيق[٥]، ثم توجه السلطان صلاح الدين إلى طبرية وراسل حاكمة قلعة طبريا زوجة صاحب طرابلس ريموند الثالث، فأجابت بتسليم الحصن وخرجت بمالها وبمن معها إلى بلد زوجها طرابلس[٦].

وهكذا كانت موقعة حطين دون شك نقطة تحول هامة في تاريخ الحروب الصليبية، لأن الصليبيون لم ينهضوا مطلقاً من تلك الضربة التي أودت بزهرة فرسانهم وتواجدهم العسكري في المشرق العربي الإسلامي، وعلق الكثير من المؤرخين، على هذه الواقعة "كان من يرى القتلى يحسب أن ليس هناك أسرى ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى"[٧].

١- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣١٩؛ العريني: الأيوبيون، ص٨٩؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٣؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٤؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٦٤؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٠٧.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨١.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٨_١٤٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٢٩_١٣٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٢٣؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٤.

٤- الإسبتارية: هو الاسم الذي أطلقه المؤرخون المسلمون على جمعية فرسان الهسبتاليين، وقد أسسها بليسيد جيرار بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس لمهمة مداواة المرضى ثم تحولت لهيئة حربية دينية، كانت هذه المنظمة موجودة في القدس قبل قيام الحروب الصليبية، لتقديم العلاج للحجاج، وهذه الطائفة ما تزال موجودة إلى الآن. أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج١، ق١، ص٢٨٤؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٤١٤؛ زكار، جوني، إسماعيل: حروب الفرنجة الصليبية، ص٢٢٣.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٨_١٤٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٢٩_١٣٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨٢_٥٨٣؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٤.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٣١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٢٨؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٠؛ الباقوري: حطين طريق لإنتصار، ص٦٨.

٧- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٤.

٧_ **جهوده في محاربة الصليبيين "بعد معركة حطين":**

لم يجد صلاح الدين صعوبة بعد هذا النصر الحاسم في فتح المدن الصليبية الموجودة في بلاد الشام، وساعده على ذلك حسن معاملته للأهالي في تلك المدن ومثال على ذلك أنه بعد فتح طبرية سمح لزوجة حاكم طرابلس ريموند الثالث السفر بأموالها وحاشيتها إلى طرابلس[١]، هذه الصفات جعلت بعض المؤرخين المسلمين، ينتقدون صلاح الدين نقداً مراً لتساهله مع خصومه تساهلاً أنزل الضرر بمصالح المسلمين[٢].

كان من المتوقع أن يتجه صلاح الدين بعد حطين نحو بيت المقدس ليستولي عليها بكل سهولة بعد أن غدت المملكة بدون جيش يدافع عن عاصمتها، ولكنهُ اتجه نحو الموانئ الساحلية ليحرم الصليبيين من أية معونة ترسل إليهم من غرب أوربا عن طريق البحر، بعد ذلك يسهل السيطرة على المدن والقلاع الصليبية الداخلية، إضافة إلى ذلك فإن سيطرته على موانئ فلسطين سيوفر له اتصالاً سريعاً وسهلاً بين شطري دولتهِ مصر والشام[٣]، فاتجه صلاح الدين بعد حطين حطين إلى عكا، وعندما أبصر الأهالي جيش صلاح الدين خرجوا إليه يطلبون الأمان، فأمنهم وخيرهم الإقامة أو الرحيل فاختاروا الرحيل، ليدخلها صلاح الدين في (٢ جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ / ٩ تموز ١١٨٧م)، واستولى على ما فيها من أموال وذخائر، وأطلق سراح الأسرى المسلمين فيها[٤]، فسياسة التسامح والرحمة التي اتبعها صلاح الدين ساعدته في الاستيلاء على العديد من المدن مثل الناصرة وقيسارية وصفورية[٥] ونابلس وبيروت وتسلم جبيل[٦] مقابل إطلاق سراح حاكمها الذي أسر في حطين والرملة[٧] وحاصر عسقلان مع أخيه العادل أحمد والجيش

١– العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٥؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٦٨.

٢– عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٤١، ٦٤٧، ٦٥٣، ٦٦٢.

٣– العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٤_٦٥؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٦٨.

٤– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٣٢_١٣٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٢٨؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٢؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٦٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣١٢.

٥– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٣٢_١٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٢٩؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣١٢.

٦– جبيل: بلد في سواحل دمشق وهو بلد مشهور في شرقي بيروت من فتوح يزيد بن أبي سفيان (٢٦_٦٤هـ / ٦٤٧_٦٨٤م). الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٠٩.

٧– الرملة: بالشام، سميت الرملة لما غلب عليها الرمل، وهي مدينة من كور فلسطين وبينها وبين القدس ثمانية عشر ميلاً. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٦٣.

المصري فاستسلمت مقابل إطلاق سراح الملك غي لوزينيان ومقدم الداوية وسيطر على غزة وداروم وبنت جبيل[1]، ففي جميع المدن والقلاع كان صلاح الدين يترك الحرية لأهلها ويخيرهم بين البقاء أو الرحيل، فآثر معظمهم الرحيل إلى صور[2]"حيث اجتمع كل إفرنجي بقي في الساحل"[3]، وربما دفعَ صلاح الدين ثمن سياستهِ هذه كأنهُ سمح للصليبيين بإعادة تجميع قواتهم المتبعثرة في مدينة صور، ما أدى إلى استحالة استيلاء صلاح الدين عليها من ناحية، وإلى السماح للصليبيين من اتخاذها مركزاً لإحياء مملكة بيت المقدس فيما بعد من ناحية أخرى.

أ_ سيطرته على بيت المقدس:

عندما أدرك صلاح الدين أن أمر صور أصبح صعباً، قرر التوجه إلى داخل فلسطين للاستيلاء على بيت المقدس، في حين استغل الصليبيون فيها فرصة انشغال صلاح الدين في الساحل بعد معركة حطين فحصنوا مدينتهم، وهكذا رفضوا النداء الذي وجههُ إليهم صلاح الدين لتسليم المدينة مقابل تأمينهم[4]، ففي (١٦ رجب ٥٨٣هـ / ٢٠ أيلول ١١٨٧م)، وصل صلاح الدين مع عساكرهِ إلى بيت المقدس، واختار جهة الشمال "كنيسة صهيون" ليبدأ القتال، ونصب المنجنيقات وتقاتل الطرفان أشد قتال، حتى عجز الصليبيون عن الاستمرار بالدفاع عنها، فطلبوا الأمان من صلاح الدين الذي رفض في البداية طلبهم، حيثُ أراد دخول المدينة بالقوة، ولكن بعدها هددهُ باليان الثاني (٥٣٤_٥٨٩هـ / ١١٤٠_١١٩٣م) بأنهُ سيقتل جميع الأسرى الموجودين في القدس والبالغ عددهم تقريباً خمسة آلاف، وسيهدم القبة ويقلع الصخرة، ثم استجاب لهم بمنحهم الأمان والخروج لكن بشروط[5]، ومن شروط التسليم أنه يجوز أن يغادر المدينة كل من يستطيع أن يدفع ما هو مقرر عليه من الفدية، خلال أربعين يوماً، وقدرها عشرة

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٤٩؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٣٢_١٣٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٣٠؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٢؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣١٧_٣١٨.

٢- صور: من بلاد الشام، وهي مدينة بحرية حصينة جبلية، قريبة من عكا ويضرب بها المثل في الحصانة، ولها بابان أحدهما في البر والآخر في البحر. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٦٩.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٥؛ الباقوري: الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٦٩.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٥_٦٦؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٦٨.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥٥؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٣٤_١٣٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨٦_٥٨٧؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٦؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٧٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣١٩_٣٢٠.

دنانير للرجال وخمسة للمرأة وديناران للطفل، ومن لم يتمكن من الدفع سيؤخذ أسيراً، على أن يترك ما عنده من خيل وسلاح، وبذل باليان الثاني عن الفقراء ثلاثين ألف دينار[١]، ووضع صلاح الدين أميناً من الأمراء على كل باب، ليأخذوا من أهلها ما تقرر عليهم، فاستعملوا الخيانة، وأخذ الأمناء الأموال وأطلقوا سراح عدد كبير من الصليبيين بوسائل غير مشروعة[٢]، أما النصارى الشرقيون من أهل المدينة فقد سمح لهم بالبقاء مع المسلمين على أن يدفعوا الجزية كأهل ذمة[٣].

دخل صلاح الدين بيت المقدس في يوم الجمعة في (٢٨ رجب سنة ٥٨٣هـ / ٢ تشرين الأول ١١٨٧م)، وشاءت الأقدار أن يوافق ذلك ذكرى الإسراء والمعراج، فاحتفلوا بهذه المناسبة احتفالاً كبيراً، وأحسنوا معاملة الصليبيين، مما جعل العديد من المؤرخين يشيدون بتسامح صلاح الدين، ويقارنون بين معاملتهِ للمسيحيين من جهة، ومعاملة الصليبيين للمسلمين عندما استولوا على بيت المقدس سنة (٤٩١هـ / ١٠٩٧م)[٤].

ب_ سيطرته على الشمال الغربي لبلاد الشام:

بعد سيطرة صلاح الدين على مملكة بيت المقدس في فلسطين، لم يبق أمامهُ إلا البقايا الصليبية في شمال الشام مثل طرابلس وأنطاكية وبعض الحصون الداخلية. فتوجه نحو ساحل الشام واستطاع السيطرة على جميع الموانئ ما عدا صور التي تجمع فيها الصليبيون ولم يحاول اقتحام الحصون التي تستطيع أن تصمد لأنهُ أراد عزلها والاستيلاء عليها بعد فتح الساحل[٥]، لقد حاصر صلاح الدين صور، ولكن تجمع الصليبيين فيها وتقويتهم تحصيناتها البرية والبحرية جعلتهم يصمدون أمام حصارهِ الأمر الذي دفعهُ للانسحاب منها[٦]، ثم توجه صلاح الدين من عكا

١- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٨٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٣٧؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٤؛ بيضون (إبراهيم): تاريخ بلاد الشام، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٥م، ص٢٥٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٢١.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٥٦؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٥؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٢١.

٣- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٢٣.

٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص ٥٨٧؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٤٧؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٧٦.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦٠_١٦١؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٥.

٦- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٩٥؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٢٧_٣٢٩.

عكا لحصار حصون الشوبك والكرك، وهي من أمنع الحصون وأخطرها، استمر الحصار وقت طويلاً حتى انتهى الطعام عند الصليبيين، فراسلوا الملك العادل أحمد يطلبون منهُ الأمان مقابل التسليم فمنحهم الأمان وخرجوا إلى صور في (رمضان سنة ٥٨٣هـ / تشرين الثاني ١١٨٨م)[١].

لم تمضِ ثلاث سنوات على انطلاقة الهجوم الشامل الذي قادهُ صلاح الدين على الصليبيين سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، حتى انكمشت الممالك الصليبية في بلاد الشام، بحيث لم يتبق في حوزة الصليبيون من مملكة بيت المقدس إلا صور ومن إمارة أنطاكية إلا عاصمتها مدينة أنطاكية وحصن المرقب[٢] ومن إمارة طرابلس إلا عاصمتها مدينة طرابلس وقلعة طرطوس[٣] وحصن الأكراد[٤] هذا كله عدا عن بعض المواقع الثانوية الأقل أهمية[٥].

ج_ الحملة الصليبية الثالثة:

إن الهزائم التي حلت بالصليبيين في المشرق العربي الإسلامي على يد صلاح الدين، كان لها صدى ورد فعل في الغرب الأوربي، فارتفع صوت البابوية ينادي ملوك أوربا وأمرائها للقيام بحملة صليبية كبيرة، لاسترداد بيت المقدس من المسلمين، وتثأر مما حل للصليبيين في بلاد الشام على يد صلاح الدين[٦]، وتحت تأثير البابوية وضغطها استجاب لهذه الدعوة ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد (٥٥٢_٥٩٥هـ / ١١٥٧_١١٩٩م)، وملك فرنسا فيليب أوغسطس (٥٦٠_٦٢٠هـ / ١١٦٥_١٢٢٣م)، وإمبراطور ألمانيا فردريك بربروسا (٥١٦_٥٨٦هـ / ١١٢٢_١١٩٠م)، ومن هؤلاء الثلاثة تبلورت وانطلقت الحملة الصليبية الثالثة والتي امتد تاريخها

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٧٥؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٥٥؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٦؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٤٠.

٢- المرقب: بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس، وفي سنة (٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) أقام المسلمون الحصن المعروف بالمرقب بساحل جبلة وهو حصن يتحدث عنه كل من رآّه أنه لم ير مثله من قبل. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٠٨.

٣- طرطوس: بلد بالشام مشرفة على بحر الشام قرب المرقب وعكا. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٠.

٤- حصن الأكراد: حصن منيع يقع على الجبل المقابل لحمص من جهة الغرب بين بعلبك وحمص. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٤.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٦٦_١٧٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٠١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٦٠ _٣٦٧؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٨؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٣٥_٣٣٨.

٦- ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٣٢.

ثلاث سنوات (٥٨٥_٥٨٨هـ / ١١٨٩_١١٩٢م)، وهي من أكبر الحملات الصليبية في عدد جيوشها وأساطيلها[١].

اختار إمبراطور ألمانيا فردريك بربروسا الطريق البري عبر البلقان وأسيا الصغرى ليصل إلى الشام، في حين سلك ملك فرنسا وملك إنكلترا طريق البحر، فقد تعرضت الحملة الألمانية لمصاعب شديدة من جانب الدولة البيزنطية ثم من جانب السلاجقة، حتى انتهى أمرها بغرق الإمبراطور فردريك بربروسا في أحد أنهار أسيا الصغرى، مما أدى لتشتت حملتهِ سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م)[٢].

بعد تحرير عسقلان وبيت المقدس، أطلق صلاح الدين سراح الملك غي لوزينيان، متوجهاً إلى صور واتفق مع كونراد مونتفرات الذي عمل على جمع شتات الصليبيين، على استعادة البلاد من صلاح الدين وطلب المساعدة من الغرب الأوربي بعد سقوط القدس[٣]، ولما عظمت قوة الصليبيين، حاصروا عكا وأقاموا سوراً ووضعوا عليه الرجال لمنع إمداد المسلمين ومنعوا مساعدة الأسطول المصري عن طريق البحر[٤]، وعلى الرغم من إرسال صلاح الدين قوات ومؤن إلى داخل عكا إلا أن الوضع كان صعباً، ولما أدرك صلاح الدين خطورة الموقف أمر بتدمير استحكامات طبرية ويافا[٥] وأرسوف[٦] وقيصرية وجبيل حتى لا تقع بين أيدي الصليبيين[٧]، تذكر المصادر التاريخية أن صلاح الدين أرسل سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م)، سفيراً من قبلهِ إلى خليفة المغرب يعقوب بن يوسف المنصور الموحدي (٥٨٠_٥٩٥هـ / ١١٨٤_١١٩٨م) يطلب إعانته

١- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٥٧؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٨؛ الباقوري: حطين طريق الإنتصار، ص٨٠.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص١٩٣_١٩٤؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٩٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦١٤_٦١٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٨٣؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٨؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٨١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٦٤_٣٦٥.

٣- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٢٩؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٤٥.

٤- ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص١٦٣_١٦٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٠٧؛ العريني: الأيوبيون، ص٩٩؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٥١.

٥- يافا: بينها وبين بيت المقدس مرحلتان، وقد تقدم ذكرها في مقدمة ابن حمل الضأن الذي يفتح الشام ويضرب برواقه على تل يافا. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٦١٥.

٦- أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص ٢٠٨.

٧- العريني: الأيوبيون، ص١٠٠.

بالأساطيل لمنع أساطيل الأعداء من إيصال الإمداد لصليبيي الشام، إلا أن خليفة الموحدين يعقوب بن يوسف المنصور رفض هذا الطلب، لأن صلاح الدين لم يلقبهُ في رسالتهِ أمير المؤمنين أي لم يعترف بخلافة الموحدين[١] إلا أن بعض المؤرخين المغاربة ذكروا أن الخليفة يعقوب بن يوسف المنصور قد أرسل لصلاح الدين مائة وثمانين سفينة حربية لمنع الصليبيين من سواحل الشام[٢].

ترافق وصول ملك فرنسا فيليب أوغسطس لسواحل بلاد الشام، أثناء حصار عكا فتسلم المعركة في (ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ / نيسان ١١٩١م)، ثم وصل ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد في شهر (جمادى الأول سنة ٥٨٧هـ / حزيران ١١٩١م)، مما أعطى الصليبيين دفعاً وأملاً جعلهم يسيطرون على عكا في (جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ / تموز ١١٩١م)[٣]، لكن سرعان ما دب الخلاف بين ملك فرنسا فيليب أوغسطس وملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد، مما دفع ملك فرنسا للعودة إلى الغرب الأوربي بحجة المرض في أوائل (رجب سنة ٥٨٧هـ / آب ١١٩١م)، إلا أن ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد اختار البقاء لتحقيق هدف استعادة بيت المقدس[٤].

بدأ ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد بمحاولة استرداد شاطئ فلسطين من عكا إلى عسقلان، فاستولى الصليبيون على حيفا ثم قيسارية في نهاية شهر (رجب سنة ٥٨٧هـ / آب ١١٩١م)، ومنها اتجهوا نحو أرسوف، وقد عمل صلاح الدين على التصدي للزحف الصليبي ومطاردتهم، حتى دارت بين الطرفين موقعة أرسوف سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م)، وفي هذه الموقعة أحاط المسلمون بهم مثل موقعة حطين، وكاد صلاح الدين يقضي عليهم، لولا ثبات ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد الذي أعاد تنظيم رجاله بسرعة، واستطاع تحويل المعركة إلى صالحهِ

١- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٢٢؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٦٣؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٧٠_٣٧١.

٢- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٦٣.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٢٩_٦٣٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٨٤؛ ليونز، جاكسون: صلاح صلاح الدين، ص٣٨٠_٣٨٥.

٤- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٨٦_٦٨٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٠٢؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٦٤.

بالنصر[1]، إن انتصار الصليبيين في أرسوف، أعطاهم دفعاً بالمتابعة لبيت المقدس، وأعطى دفعاً لصلاح الدين بالتصدي لهم فقام بتخريب عسقلان لحرمان الصليبيين منها، فهي بوابة مصر وأشرف بنفسه على تحصين مدينة القدس وعمارة أسوارها وحفر خنادقها[2].

إلا أن الأحوال بغرب أوربا فرضت على ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد العودة بسرعة للغرب الأوربي، مما جعلهُ يتوقف عن المسير، وأيضاً إدراكهِ قوة صلاح الدين، لذلك لجأ للمفاوضات معهُ والتي مرت بأدوار متعددة وطويلة انتهت بصلح الرملة في (رمضان سنة ٥٨٨هـ / أيلول ١١٩٢م)، وقد نص هذا الصلح، على أن تكون المنطقة الساحلية الممتدة من صور إلى يافا بما فيها قيسارية وحيفا وعكا للصليبيين، أما عدا ذلك فهو بيد صلاح الدين[3]، ولهم الحق في تأدية الحج إلى بيت المقدس، ويكون لهم بها قس وأن يعود إليهم الصليب المقدس، ويجوز التنازل لهم عن عسقلان بعد تدمير استحكاماتها[4]. وبعد توقيع صلح الرملة تكون الحملة الصليبية الثالثة قد انتهت.

توجه ملك إنكلترا ريتشارد قلب الأسد بعد عقد الصلح، عائداً إلى بلاده في (رمضان سنة ٥٨٨هـ / تشرين الأول ١١٩٢م)، فأمر صلاح الدين بعدها بتدمير عسقلان حمايةً لمصر وطرد الصليبيين منها، وأراد الحج وزيارة مصر لكنهُ اهتم بتفقد أحوال البلاد، فتوجه إلى بلاد الشام، واستقبل الحجاج، لكن التعب والإرهاق سيطر عليه وأصيب بالحمى والمرض السريع، ولم يلبث أن توفي صلاح الدين في (صفر سنة ٥٨٩هـ / آذار ١١٩٣م)، ودفن في دمشق واستحلف

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٠٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٠٣_٤٠٤، ٤٠٧؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٦٩_٧٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٩١_٣٩٤.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٠٩_٢١٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٥٣٤_٥٣٥؛ العريني: الأيوبيون، ص١٠١؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٦٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧٠؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٣٩٦، ٤٠٤.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٤٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٢٠، ٤٢٧؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٩٣.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢١٨؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٣٤٨؛ أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص٦٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٢١، ٤٢٧؛ العريني: الأيوبيون، ص١٠٤؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٦٥؛ الباقوري: حطين طريق الانتصار، ص٩٣.

الناس لابنه الأفضل نور الدين علي (٥٦٦_٦٢٢هـ / ١١٧١_١٢٢٥م) قبل وفاتهِ أثناء مرضهِ[1].

مما لا شك فيه أن وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة للعالم الإسلامي عامةً ولمصر والشام خاصةً، وإنهُ باعتراف أغلب المؤرخين المسلمين والمسيحيين، كان أعظم شخصية عاصرت فترةِ الحروب الصليبية مظهراً العدل والتسامح إضافةً لقوتهِ وحكمتهِ.

رابعاً _ خلفاء صلاح الدين ودورهم السياسي والعسكري:

استطاع صلاح الدين توحيد البلاد وتأسيس دولة مترامية الأطراف، وتحرير معظم المناطق الخاضعة لسيطرة الصليبين، لكن بعد وفاته لم يستطع أحد من أبنائه السبعة عشر أو إخوته ملء الفراغ الذي تركهُ صلاح الدين، مما عرض الدولة الأيوبية لخطر الانقسام، وعودة النشاط الصليبي استغلالاً لانقسام الأيوبيين. ففي الدور الأول من تأسيس الدولة وتوحيد البلاد اعتمد صلاح الدين على إخوتهِ وأبناء عمهِ في توطيدِ سلطانهِ، فمنحهم إدارة الولايات الرئيسية، ولكنهُ سرعان ما غير ذلك، فجعل لأبنائهِ المكانة الأولى، وأعطاهم الولايات الأكثر أهمية، أما إخوتهِ وأقاربهِ فكان نصيبهم المناصب الثانوية، وربما يعود ذلك إلى دافع الأبوة أو حماية أولاده من طمعِ أقربائه.

أما عن التوزيع الإداري فكان كالآتي: أبناء صلاح الدين الملك الأفضل نور الدين علي بدمشق مركزاً لدويلة تشتمل على الساحل وبيت المقدس وبعلبك وصرخد وبصرى وبانياس حتى الحدود المصرية، أما الابن الثاني لصلاح الدين وهو الملك العزيز عماد الدين عثمان فاحتفظ بمصر (٥٦٧_٥٩٥هـ / ١١٧٢_١١٩٨م)، في حين أخذ الابن الثالث لصلاح الدين وهو الملك الظاهر غازي حلب وشمال الشام، أما الملك العادل سيف الدين أبو بكر _أخ صلاح الدين_ فقد أخذ الكرك والشوبك، إضافة للجزيرة وديار بكر، ولكنها إقطاعات ثانوية متفرقة منحهُ إياها صلاح الدين، وهي لا تتناسب مع شخصية العادل[2]، أما بقية أبناء وأخوة صلاح الدين وأقربائه،

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢١٩، ٢٢٤؛ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، ص٢١٩، ٣٦٢_٣٦٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٤٥_٦٤٦، ٦٥١_٦٥٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٣٢_٤٣٣؛ العريني: الأيوبيون، ص١٠٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧١؛ ليونز، جاكسون: صلاح الدين، ص٤٢٣-٤٢٤.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٢٦_٢٢٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٥٨_٦٥٩؛ العريني (السيد الباز): المماليك، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٧م، ص٣٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٣٠٩،٤٧١؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص٣٢؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٢.

فكانت لهم إقطاعات ثانوية صغيرة، مثل الملك الظافر مظفر الدين خضر بن صلاح الدين (٥٦٨_٦٢٧هـ / ١١٧٣_١٢٣٠م) عُيْنَ على بصرى وحوران، والملك الأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب (٥٥٨_٦٢٧هـ / ١١٦٣_١٢٣٠م) على بعلبك، والمجاهد أسد الدين شيركوه الثاني (الصغير) (٥٦٩_٦٣٧هـ / ١١٧٤_١٢٤٠م) ابن أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين فتسلم حمص، والمنصور الأول محمد بن تقي الدين عمر (٥٨٧_٦١٧هـ / ١١٩١_١٢٢٠م) عين في حماة، هذا في حين أخذ الملك المعز سيف الإسلام طغتكين الأخ الرابع لصلاح الدين اليمن وجزيرة العرب[١].

إضافةً لذلك استمر أبناء البيوت القديمة الحاكمة في الجزيرة، مثل البيت الزنكي ممثلاً في عز الدين مسعود الأول ابن مودود أتابك الموصل (٥٧٦_٥٨٩هـ / ١١٨٠_١١٩٣م)، وأخيه عماد الدين الزنكي الثاني ابن مودود أتابك سنجار (٥٦٦_٥٩٤هـ / ١١٧٠_١١٩٧م)، والبيت الآرتقي[٢] ممثلاً في قطب الدين سقمان الثاني صاحب كيفا وآمد[٣]، وعماد الدين أبي بكر صاحب خرتبرت[٤]، وهكذا كانت موزعة القوى والسلطة في الجبهة الإسلامية عند وفاة صلاح الدين[٥].

١_ السلطان الأفضل نور الدين علي (٥٨٩_٥٩٢هـ / ١١٩٣_١١٩٦م):

بعد وفاة صلاح الدين سرعان ما نشب صراعاً على السلطة بين أبناء البيت الأيوبي. ذلك أن صلاح الدين أوصى لابنه حاكم دمشق الملك الأفضل علي بالسلطة من بعده، على أن تكون له السلطة العليا على سائر أنحاء الدولة الأيوبية، ولكن الملك الأفضل علي لم يكن بالشخص المناسب لتلك المهمة الكبيرة، نظراً لما اتصف به من ضعف وسوء سيرة، حتى وصفهُ المؤرخون

١– ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٥٩؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧١_٤٧٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧٤؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٣.

٢– البيت الأرتقي: من الأسر الحاكمة ترجع في نسبها الى أرتق بن أتسز، مؤسس دولة بني أرتق، تشعبت دويلتهم فحكمت حصن كيفا وآمد وخرتبرت وماردين. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٨٥.

٣– آمد: هي أعظم مدن ديار بكر وأجلها قدر أو أشهرها ذكراً، وهي بلد قديم حصين مبني بالحجارة السود. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٥٦.

٤– خرتبرت: وهو الحصن المعروف بحصن زياد الذي يجيء في أخبار بني حمدان في أقصى ديار بكر حتى بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين وبينهما الفرات. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٥.

٥– ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٢٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧٥.

بأنهُ أقبل على اللعب ليله ونهارهِ واهتم بلذاته[1]، وقام باستبعاد أمراء والده ومستشاريه، ووضع كل ثقته في وزير جديد ضياء الدين بن الأثير، فكانت ردةُ فعلهم الهرب إلى الملك العزيز عثمان بمصر، وحرضوه على أخيه، فخرج الملك العزيز عثمان من مصر في صيف سنة (٥٩٠هـ / ١١٩٤م)، قاصداً دمشق، وحاصرهُ فيها، مما دفع الأفضل للاستنجاد بعمهِ الملك العادل سيف الدين أبو بكر[2]، وهنا ظهر دور الملك العادل سيف الدين أبو بكر ليأخذ مكانهُ المناسب، وقد وصفتهُ المصادر التاريخية، بأنهُ كان "ذا مكر وخديعة، صبوراً ذا أناة"[3]، وفعلاً تصرف الملك العادل سيف الدين أبو بكر بكل حكمة وتأني، فلم يفرض نفسهُ حاكماً بل فرض وجوُدهُ، حيث استجاب لنداء السلطان الأفضل علي، والتقى بجميع أمراء وملوك الأيوبيين، واتفق الجميع على منع الملك العزيز عثمان من الاستيلاء على دمشق، وعندئذ أدرك الملك العزيز عثمان أن لا قدرة لهُ على مقاومة أولئك الأمراء جميعاً، فانصرف عائداً إلى مصر[4].

فكانت التسوية التي أزالت التوتر بين الأخوة وأعادت العزيز إلى مصر في (رجب سنة ٥٩٠هـ / تموز ١١٩٤م)، فقد قضت بأن يحتفظ السلطان الأفضل علي بدمشق وطبرية وأعمال الغور، في حين يأخذ الملك العزيز عثمان بيت المقدس وما يجاورهُ من أعمال فلسطين، ويأخذ الظاهر غازي جبلة[5] واللاذقية، إضافة للأراضي التي يحكمونها[6].

لكن سرعان ما عادت الأمور إلى سابق عهدها، فقد تمادى السلطان الأفضل علي في لذاتهِ ولهوهِ، في الوقت الذي عاد فيه الملك العزيز عثمان إلى أطماعهِ، فخرجَ من مصر قاصداً دمشق، استنجد السلطان الأفضل علي بعمهِ الملك العادل أبي بكر، الذي لجأ إلى تحريض أمراء الملك العزيز عثمان على تركهِ، وعندما وجدَ نفسه وحيداً اضطر إلى العودة إلى مصر، ليتم الاتفاق بين الأمراء على أن يأخذ السلطان الأفضل علي مصر ويترك دمشق للملك العادل

١- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٦، ص١٢٠؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧٥.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٦٢_٦٦٣؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١١٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٣؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٦.

٣- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧٦.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٣٤.

٥- جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية، أنشأ معاوية جبلة وكانت حصناً للروم رحلوا عنه عند عند فتح المسلمين حمص. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٠٥.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٦٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٣.

أحمد، ولتنفيذ ذلك سيطر السلطان الأفضل علي والملك العادل أحمد على بيت المقدس، وتوجهت جيوشهما نحو مصر لعزل الملك العزيز عثمان، ولكن الملك العادل أحمد خشي من السلطان الأفضل علي بعدم وفائهِ لتعهداته فانسحب، بعد أن راسل الملك العزيز عثمان سراً يطلب منه الثبات[١].

عادَ السلطان الأفضل علي إلى دمشق دون سيطرته على مصر، وبقي الملك العزيز عثمان في مصر دون سيطرته على دمشق، في حين جعل الملك العادل أحمد نفسه حكماً بين أبناء صلاح الدين، الأمر الذي مكنهُ من فرض كلمته على جميع أمراء البيت الأيوبي، في حين ضج الناس في دمشق من سوء حكم السلطان الأفضل علي الذي ترك هذه المرة كافة شؤون الحكم لوزيره ضياء الدين بن الأثير[٢].

عندما وجدَ الملك العادل أحمد أن الظروف مناسبة لعزل السلطان الأفضل علي، اتجه إلى الملك العزيز عثمان في مصر، واتفقا على تحقيق ذلك، ثم خرج الاثنان من مصر في (رجب سنة ٥٩٢هـ / حزيران ١١٩٦م)، قاصدين دمشق[٣]، وسرعان ما أصبحت دمشق بين أيديهما، فحل الملك العادل أحمد بدلاً من السلطان الأفضل علي في حكم دمشق، في حين أخذ الملك العزيز عثمان لقب السلطنة، وبقيت مصر وبيت المقدس له، أما السلطان الأفضل فقد تركت له مدينة صرخد في إقليم حوران ليقيم فيها[٤].

٢_ السلطان العزيز عماد الدين عثمان (٥٩٢_٥٩٥هـ / ١١٩٦_١١٩٨م):

كان السلطان العزيز عثمان أول حاكم من بني أيوب يولد على أرض مصر ويتولى حكمها، وقد أشارت المصادر المعاصرة باستقامة السلطان العزيز عثمان، وصلاح حكمه، وعدله حتى وصفهُ ابن خلكان بأنه "كان ملكاً مباركاً، كثير الخير، واسع الكرم، محسناً إلى الناس"[٥].

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٣٩_٢٤٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٦٨_٦٦٩؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٤.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٤١_٢٤٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٦٩،٦٧١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧٧.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٤٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٧١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٦.

٤- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٧١؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١١٩.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٧٨.

استمرت مصر في أيام السلطان العزيز عثمان تمثل قلب الدولة الأيوبية، إلا أن أحوالها الاقتصادية تأثرت إلى حد كبير بسبب انخفاض فيضان النيل في سنة (٥٩١_٥٩٢هـ / ١١٩٤_١١٩٥م)، مما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في مصر[١]، ولم يستطع السلطان العزيز عثمان وضع حد لتلك الأزمة الاقتصادية التي أثرت بشكل خطير على البلاد، لانشغال السلطان العزيز عثمان بالنزاع مع أخيه الملك الأفضل علي، وإن هذا النزاع بين أبناء صلاح الدين بعد وفاته، ساعد على إظهار أهمية دور الملك العادل أحمد، الذي أصبح كبير بني أيوب والحكم بينهم، كما فرضت هذه المكانة عليه مسؤولية كبيرة بالدفاع عن المسلمين ضد أي عدوان صليبي، وفعلاً نهض الملك العادل أحمد بمسؤولياته تجاه العدوان الصليبي في سنة (٥٩٣هـ / ١١٩٧م)، عندما جاء بعض الصليبيين الألمان إلى بلاد الشام، وهاجموا المسلمين في الساحل فأسرع الملك العادل أحمد، فتصدى لهم وانتصر على الصليبيين قرب غزة، ثم استمر بالاستيلاء على يافا في سنة (٥٩٣هـ / ١١٩٧م)[٢]، وقد رد الصليبيون على ذلك بالاستيلاء على بيروت في نفس العام، ثم خططوا لاستعادة بيت المقدس، لكن الملك العادل أحمد وبمساعدة السلطان العزيز عثمان أوقفوا الزحف الصليبي وعادت الهدنة بين الطرفين[٣]، ولم يكد يتم الصلح بين المسلمين والصليبيين، حتى مرت الدولة الأيوبية بعدة تطورات ونزاعات انتهت بإعادة الوحدة لها مرة أخرى تحت زعامة الملك العادل أحمد.

٣_ السلطان المنصور محمد بن عثمان (٥٩٥_٥٩٧هـ / ١١٩٨_١٢٠١م):

ففي أواخر (صفر سنة ٥٩٥هـ / كانون الأول ١١٩٨م)، توفي السلطان العزيز عثمان، وكان ابنهُ الأكبر ناصر الدين محمد الملقب بالملك المنصور في العاشرة من عمرهِ، حاول صاحب النفوذ في مصر، الأمير فخر الدين جهاركس[٤]، أن يستدعي الملك العادل أحمد لحكم البلاد، لكن المماليك الأسدية وقفت في وجهه، واستدعت الملك الأفضل علي من حوران، وسلموه مقاليد الأمور في مصر في (ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ / كانون الثاني ١١٩٩م)، ولم يبق للسلطان المنصور محمد إلا السلطة الاسمية، فقد استغل الملك الأفضل علي في مصر مع الملك الظاهر

١– ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٧٥.

٢– ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٧٦_٦٧٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٦.

٣– ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٧٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٧.

٤– فخر الدين جهاركس: هو من أكابر صلاح الدين الأيوبي ومقدم الجند الناصرية والحاكم بالديار المصرية أيام الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين توفي سنة (٦٠٨هـ / ١٢١١م) بدمشق ودفن بها. المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٥٦٢_٥٦٣.

غازي في حلب انشغال عمهم الملك العادل أحمد في محاصرة ماردين في ديار بكر لأخذ دمشق[1]، في حين ساندت المماليك الناصرية الملك العادل أحمد[2].

بعد سماع العادل باتفاق أولاد أخيه، لأخذ دمشق منهُ عاد مسرعاً من الجزيرة لدمشق في (شعبان سنة ٥٩٥هـ / حزيران ١١٩٩م)، وبدأ يجهز وسائل الدفاع في المدينة، ولم ينته حتى وصلا لحصار دمشق الذي دام ستة أشهر، استطاع الملك العادل أحمد جذب أمرائهم إلى جانبه وبث الخلاف بينهما، حتى انتهى الحصار في أواخر(صفر سنة ٥٩٦هـ / كانون الأول ١١٩٩م)، بعودة الملك الأفضل علي إلى مصر والملك الظاهر غازي إلى حلب[3]، لكن الملك العادل أحمد تتبع الأفضل علي في طريقه إلى مصر وأنزل الهزيمة به، وأعادهُ إلى إقطاعهِ المتواضع في حوران وهكذا أصبحت مصر للملك العادل أحمد سنة (٥٩٦هـ / ١٢٠٠م)[4].

وفي العام التالي اتفق الملك الظاهر غازي والملك الأفضل علي مرةِ أخرى ضد عمهما الملك العادل أحمد، وتوجها إلى دمشق للسيطرة عليها، فأسرع الملك العادل أحمد من مصر واستطاع بث بذور الخلاف بينهما، فافترقا وعاد الملك الظاهر غازي إلى حلب بعد اعترافه بسيادة عمه، أما الملك الأفضل علي فخصص له عمه سمسياط[5] فقط معاقبةً له[6]، وهنا قام الملك الظاهر غازي بتعزيز موقعه في حلب بأعمال التحصينات التي قام بها، وأبرزها إعادة بناء سور قلعة

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٥٥_٢٥٦؛ المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٥؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٢، ص٣٦٣_٣٦٤؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٦.

٢- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٠.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٥٧_٢٥٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٨٦،٦٩٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٨.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٢٦٥_٢٦٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٦٩٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٩.

٥- سمسياط: بلد من بلاد العجم، منها السمسياطي الرجل الموصوف بالورع والزهد. وهي مدينة صغيرة مطلة على الفرات شرقي جبل اللكام وهي محاطة بالجبال وكثيرة الفواكه ولها قلعة حصينة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٢٣؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص١٩١.

٦- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٧٠٤_٧٠٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٨١.

حلب والقلعة المنيعة، وتعمير الحصون الحدودية في قلعة نجم[1] على نهر الفرات وأفاميا على العاصي[2].

٤_ السلطان العادل أحمد أبي بكر (٥٩٥_٦١٥هـ / ١٢٠١_١٢١٨م):

وبهذا الاعتراف صار العادل سلطان البلاد جميعها وبيده ملك مصر وبيت المقدس ودمشق والجزيرة، ونجح السلطان العادل أبي بكر في إعادة الوحدة للدولة الأيوبية من جديد، كما أنه أعاد تنظيم دولته، فاستعان بأبنائه في الحُكم، فجعلَ الملك الكامل محمد في مصر، والملك المعظم عيسى في دمشق، والملك الأشرف موسى في حران[3]، والملك الأوحد نجم الدين أيوب ميافارقين، أما السلطان العادل أبي بكر فاتخذ مهمة الإشراف العام على جميع أنحاء الدولة[4].

اهتم السلطان العادل أبي بكر بتنشيط ورعاية التجارة، وبخاصة مع الدويلات الإيطالية، وكانت غايته من وراء ذلك زيادة ايراداته الخاصة وإمكانياته الحربية من جهة، وإيقاف تلك الولايات عن محاولة تقديم الدعم لحملات صليبية محتملة، وقد بلغ عدد تجار البندقية وبيزا حوالي ثلاثة آلاف تاجر، كما عقد عدة اتفاقيات هدنة مع مملكة الفرنجة الصليبية لكي يعيد تنظيم دفاعاته الحربية[5].

أ_ الحملة الصليبية الرابعة:

لقد أدرك الصليبيون منذ بداية وجودهم ببلاد الشام في (القرن الخامس الهجري / أواخر القرن الحادي عشر الميلادي) أهمية مصر في استمرار وجودهم واستقرارهم، لذلك عملوا على السيطرة عليها بشكل أو بآخر أو بفرض سياستهم عليها، لكن الخطر الأكبر الذي جاءهم هو سيطرة نور الدين محمود عليها من خلال حملات أسد الدين شيركوه، ثم توحيد مصر والشام على يد صلاح الدين، كان العامل الأساسي في انتصار صلاح الدين في موقعة حطين من خلال المخزون

١- قلعة نجم: وهي مركز ناحية في منطقة منبج تابعة لحلب. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص١٠.

٢- هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٨.

٣- حران: هي مدينة عظيمة مشهورة، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومين، وهي على الطريق بين الموصل والشام. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٥.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٧٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٩.

٥- هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٠٨.

الاستراتيجي الذي قدمته مصر، لذلك تعالت الدعوات لحملة صليبية على مصر فكانت الحملة الصليبية الرابعة لكنها غيرت وجهتها نحو القسطنطينية.

أحس الصليبيون والغرب الأوربي بالقلق والخطر، نتيجة جهود السلطان العادل أبي بكر في توحيد الجبهة الإسلامية، مدركينَ أهمية مصر والتي اتخذها الأيوبيون قاعدة كبرى لدعم نشاطهم الخارجي والداخلي، لذلك ظهرت دعوة في الغرب الأوربي (القرن السابع الهجري / أوائل القرن الثالث عشر الميلادي)، لإرسال حملة كبيرة ضد مصر، وقد عرفت هذه الحملة باسم الحملة الصليبية الرابعة، والتي انحرف سيرها إلى القسطنطينية بدلاً من مصر، وفي نهاية سنة (٥٩٩هـ / ١٢٠٣م)، وصل ثلاثمائة فارس من الفلمنكيين إلى عكا، وطلبوا من الملك عموري الثاني البدء فوراً بالزحف نحو المسلمين، لكنه رد عليهم بأن الحماسة وحدها لا تكفي، ولا يجب خرق الهدنة مع المسلمين حتى ضمان وصول قوة فعالة تحقق الانتصار[١]، حيثُ تم تجديد الهدنة لمدة ست سنوات في سنة (٦٠٦هـ / ١٢٠٤م)[٢]، على الرغم من قيام المسلمين ببعض الخروقات الفردية، كذلك فعل الصليبيون، يبدو أن السلطان العادل أبي بكر في تلك الفترة اتبع سياسة التسامح مع الصليبيين، على بعض الخروقات التي قاموا بها، رغبة منه في عدم إشعال نار الحرب بين الطرفين، ففي سنة (٦٠٣هـ / ١٢٠٦م)، قام الإسبتارية في حصن الأكراد بالإغارة على مدينة حمص، في الوقت الذي استولى فيه قراصنة قبرص[٣]، سنة (٦٠٤هـ / ١٢٠٤م)، على عدة سفن إسلامية[٤]، ولما انتهت الهدنة مع الفرنجة، أغار الصليبيون على بيسان والتي كان بها السلطان العادل أبي بكر وولده الملك المعظم عيسى، فتراجعا لدمشق، حيث عاث الفرنجة خراباً فيها ليعودوا إلى عكا[٥].

ب_ الحملة الصليبية الخامسة:

تلبية لنداء البابوية بدأت أفواج الفرنج المتحمسين من الغرب الاوربي تأتي إلى بلاد الشام، في الوقت الذي كان ملك بيت المقدس حنا دي برين في عكا قد اقتنع بفكرة غزو مصر، كانت

١- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٧٩؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٨٢.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٧٢٩؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١٢٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٠.

٣- قبرص: جزيرة على البحر الشامي كبيرة القطر وبها ومزارع وجبال وأشجار وزروع ومواشي. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٥٣.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٤١،٢٩١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٦، ص٧٥٨،٧٥٠.

٥- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٦٣.

خطتهُ هي سلوك طريق الإسكندرية أو دمياط عن طريق البحر، وأيده في ذلك صليبيي بلاد الشام، وعلى رأسهم الإسبتارية والداوية، إضافةً لصليبيي قبرص[١]، بعد انتهاء الاستعدادات ترك الملك حنا دي برين حامية قوية في عكا للدفاع عنها من أي هجوم مفاجئ، ثم انطلق على رأس الأسطول الصليبي متجهاً إلى دمياط في أواخر (صفر سنة ٦١٥هـ / حزيران ١٢١٨م)[٢]، وقد نزل الصليبيون على الضفة الغربية لنهر النيل المواجهة لمدينة دمياط، فوجدوا المدينة محصنة تحصيناً قوياً، بينما وضعَ بعرض مجرى النيل مآصر وهي سلاسل ضخمة من الحديد تمنع دون دخول السفن المعادية من البحر إلى داخل مجرى النهر[٣]، إضافة لوجود برج السلسلة، وهو بمثابة حصن بناه المسلمون وسط مجرى النهر عند مصبه، لحماية دمياط ودفع أي عدوان عنها[٤].

عند وصول الخبر للملك الكامل محمد _الذي كان ينوب عن والده السلطان العادل أبي بكر في حكم مصر_ بنزول الصليبين في دمياط، أسرع على رأس جنده، ونصب معسكره جنوبي دمياط، ومنذ ذلك الحين أطلق على ذلك المكان اسم العادلية، واختار الموقع لكي يكون على اتصال بالمدينة من ناحية ويمنع الصليبين من العبور إلى ضفتها الثانية من ناحية أخرى، أما السلطان العادل أبي بكر فقد كلف ابنهُ الملك الأشرف موسى بالضغط على الصليبيين في الشام "فسار في عسكره إلى حمص، ودخل بلاد الفرنج ليشغلهم عن محاصرة دمياط"[٥].

أدرك الصليبيون خطأ خطتهم، التي أعطت المسلمين فرصة التأهب والاستعداد، وذلك بنزولهم على الضفة الغربية للنيل بدلاً من الضفة الشرقية والتي تقع عليها مدينة دمياط، لذلك استمر الصليبيون ثلاثة أشهر كاملة يهاجمون برج السلسلة حتى تمكنوا في (شوال سنة ٦١٥هـ / آب

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٣_٣٧٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٨٦.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٥؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧١.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٥_٤٨٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٨٧.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٨٨.

٥- المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠٣؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٨٨.

١٢١٨م)، من الاستيلاء على برج السلسلة، وقطع المآصر التي كانت تعترض مدخل النهر[١]، في حين كانت هذه المآصر بمثابة السد المنيع أمام الأعداء تحول دون سقوط مصر، ويذكر أن السلطان العادل أبي بكر لم يحتمل سماع تلك الأخبار السيئة حيث كان في طريقه إلى مصر، فمرض أشد المرض، ثم لم يلبث أن توفي بعد عدة أيام بالقرب من دمشق في (٧ جمادى الآخرة سنة ٦١٥هـ / نهاية شهر آب ١٢١٨م)[٢].

٥_ السلطان الكامل محمد (٦١٥_٦٣٥هـ / ١٢١٨_١٢٣٨م):

تسلم الملك الكامل محمد مصر أيام أبيه السلطان العادل أبي بكر كنائب عنه فيها، وبعد وفاته أصبح سلطانها ومد سلطانه على بقية الدولة الأيوبية[٣]، وبخاصة بعد الانتهاء من الحملة الصليبية الخامسة ومن المؤامرة التي أحيطت به.

أدرك أبناء السلطان العادل أبي بكر في مصر والشام أن الخطر يهددهم ويهدد المسلمين جميعاً، ولو تمكن الصليبيون من السيطرة على مصر فإنهم سيسيطرون على الشام، لذلك أجمعوا على التصدي للصليبيين في مصر ومهاجمتهم في الشام للضغط عليهم، فكانت الخطوة الأولى التي قام بها السلطان الكامل محمد لإيقاف تقدمهم هي سد مجرى نهر النيل حتى لا يتمكنوا من التوغل إلى داخل البلاد، لذلك عمل على إقامة جسر ضخم بعرض المجرى، لكن الصليبيين قطعوا ذلك الجسر، فعمل على جلب عدة مراكب كبيرة وأغرقها بعرض المجرى ليعوق تقدم الصليبيين[٤]، إلا أن الصليبيون استطاعوا حفر مجرى وتخطي تلك العقبة، وبذلك استطاعت السفن الصليبية أن تدخل النهر حتى موضع مقابل لمنزلة العادلية حيث كان معسكر السلطان الكامل محمد، فأصبح الجيشان مقابل بعضهما البعض[٥]، بعد وصول أخبار انتصاراتهم في مصر تشجع الصليبيون في عكا على مهاجمة المراكز الإسلامية قرب عكا، حيث تصدى لهم المسلمون، كما رد الملك المعظم عيسى على ذلك بالخروج من دمشق واقتحام قيسارية وهدمها،

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٧٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٦؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧١.

٢- ابن العميد (المكين جرجس، ت ٦٧١هـ / ١٢٧٣م): أخبار الأيوبيين، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠١٠م، ص٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٧١؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧١.

٣- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٠.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٨٩.

٥- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٦؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٢.

في حين أغار الملك الأشرف موسى على إمارة طرابلس الصليبية[١]، كما قام المعظم عيسى سنة (٦١٦هـ / ١٢١٩م)، بهدم عدة حصون قوية في الشام بعد انتصار الصليبيون في دمياط، حتى لا يستفد الصليبيون منها إذا سيطروا عليها، بل قام بهدم أبراج وسور مدينة بيت المقدس لكي لا يتحصن بها الصليبيون في حالة الاستيلاء عليها، الأمر الذي أثار حالة من الفوضى بين صفوف المسلمين داخل المدينة وخارجها فهجرها كثير من أهلها خوفاً من الحرب[٢].

وفي (جمادى الآخرة سنة ٦١٦هـ / أيلول ١٢١٩م)، وصلت النجدات الصليبية مما زاد الوضع سوءاً جعل مدينة دمياط أكثر ضيقاً[٣]، وزاد من موقف السلطان الكامل محمد سوءاً أن البدو أتوا من سيناء والصحراء الشرقية ليستفيدوا من حالة الفوضى نتيجة الحرب، فأغاروا على القرى ونهبوها "وبالغوا في الإفساد فكانوا أشد على المسلمين من الفرنج"[٤]، ثم ضاعف من خطورة الموقف أنه في سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م)، أثناء مواجهة الحملة الصليبية الخامسة اجتمع عدد من الأمراء على أن يخلعوا السلطان الكامل محمد من السلطة وتولية أخيه الأصغر الملك الفائز وذلك بقيادة عماد الدين ابن المشطوب[٥].

اضطر السلطان الكامل محمد لمواجهة هذه الأخطار بالاستنجاد بأخيه الملك المعظم عيسى، ولكن قبل وصول الملك المعظم عيسى إلى مصر هرب السلطان الكامل محمد ليلاً من المعسكر خوفاً على نفسه من المتآمرين، فتبعهُ الجند مباشرةً، ومع حلول الصباح وجد الصليبيون المعسكر الإسلامي خالياً، فعبروا إلى الضفة الشرقية للنهر واستولوا على معسكر العادلية وما فيه من ذخائر ثم حاصروا دمياط بحراً وبراً، واستطاعوا دخولها وأسر من فيها بعد حصارها وذلك في (شعبان سنة ٦١٨هـ / أيلول ١٢٢١م)[٦].

١- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٩٠.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٨١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٩٢.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٩.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٧؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٧٤؛ السيد: تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص١٦.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٦؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٧٤؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٧؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٣.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٦_٣٧٧؛ المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٧؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٧؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٣.

كان الموقف في مصر بأسوأ أحواله لولا وصول الملك المعظم عيسى في الوقت المناسب، فاستطاع التخلص من ابن المشطوب والمؤامرة ضد السلطان الكامل محمد، وتم إعادة تنظيم الجيش، وبفضل ذلك تمكنت دمياط من الصمود تسعة أشهر أخرى في وجه الصليبيين[١].

ترافق ذلك وصول نجدات قوية للصليبيين من قبرص وغرب أوربا، فعندما علم السلطان الكامل محمد بذلك لجأ إلى السياسة لإنقاذ البلاد من خلال التفاوض مع الصليبيين وعرض عليهم عرض غير متوقع، وهو استعداده لإحياء مملكة بيت المقدس القديمة وإعادتها للصليبيين إلى ما كانت عليه قبل موقعة حطين سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، باستثناء حصن الكرك الذي يبقى في حوزة المسلمين، وذلك مقابل انسحاب الصليبيين من مصر، وقد قبل بهذا العرض الملك حنا دي براين وأمرائه والفرنج، لكن المندوب البابوي بلاجيوس رفض الموافقة عليه وأيده الرأي كل من الإسبتارية والداوية الذين ظنوا أن امتلاك مصر بات أمراً سهلاً[٢].

كما ظهر خطر جديد يهدد العالم الإسلامي من جهة الشرق هو خطر التتار[٣]، إذ استولى جنكيز خان على خوارزم وفارس وبخارى سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م)[٤].

بعد وصول الإمداد اللازم للفرنجة، دب الخلاف بين الصليبيين حول الطريق الذي يسلكونهُ، لكنهم قرروا التوجه نحو القاهرة بمحاذاة نهر النيل في أوائل (جمادى الأولى سنة ٦١٨هـ / تموز ١٢٢١م)[٥]، في حين بذل الأيوبيون في تلك اللحظات الخطيرة كل ما أمكنهم لإنقاذ مصر وجمعوا المتطوعين والمقاتلين، حيث أقام السلطان الكامل محمد منزلة على الضفة الشرقية للنيل، أطلق عليها اسم المنصورة تيمناً بانتصاره[٦]، وفي أواخر (جمادى الآخرة سنة ٦١٨هـ / تموز ١٢٢١م)، اجتمع الأخوة الثلاثة السلطان الكامل محمد والملك المعظم عيسى والملك الأشرف

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٨؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٣.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص١٠٦؛ شعيب (علي عبد المنعم): المختصر في تاريخ مصر، بيروت، دار ابن زيدون، ط١، ١٩٣٤م، ص٢٠٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٨٩.

٣- التتار: أطلق الصينيون اسم التتار على الشعوب البدائية التي كانت تعيش في شمال أسوارهم والتتار خليط من الشعوب التركية والمغولية، أما الغرب فقد أطلق اسم التتار على المحاربين من المغول والترك الذين قاتلوا مع جنكيز خان. ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٤٩.

٤- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٨٨_٩٠.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٩٣.

٦- المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠٧؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٣.

موسى في المنصورة، على رأس جيوشهم استعداداً للمعركة الفاصلة ضد الصليبيين، مع استمرار عرض السلطان الكامل محمد بإحياء مملكة بيت المقدس مقابل خروجهم من مصر، لكنهم رفضوا ذلك، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار عوضاً عن تخريب سور القدس وطالبوا بالكرك والشوبك[١]، ولكن اختلاف الصليبيين وجهلهم في حال البلاد الجغرافية حالا دون انتصارهم[٢].

عند وصول الصليبيون إلى نقطة البحر الصغير "أشموم طناح" من فرع دمياط، والذي يمثل رأس مثلث محاط بالماء من ثلاث جهات، قطع المسلمون السدود في الوقت الذي كان فيه نهر النيل مليء بماء الفيضان، لم يشعر الصليبيون إلا وقد غاصوا بالوحل وغرقت الأرض تحت أقدامهم ولم يبق أمامهم سوى ممر ضيق يمكنهم العودة من خلاله إلى دمياط[٣]، لكن السلطان الكامل محمد قد وضع خلفهم ألفي فارس ليقطعوا على الصليبيين خط الرجعة أمامهم[٤]، وبينما يهمون بالفرار ليلاً انقض عليهم المسلمون من كل جانب وأخذوا يحصدونهم حصداً، ثم أمر السلطان الكامل محمد أن يكفوا عنهم[٥]، فلاذوا إلى طلب الصلح وبعثوا إلى السلطان الكامل محمد يطلبون الأمان لأنفسهم وأنهم يسلمون دمياط دون قيد أو شرط، قبل السلطان هذا العرض في حين كان بمقدوره إبادتهم[٦]، لكن حرصه على إنقاذ مصر وتسامحه وافق على عقد هدنة معهم، واشترط السلطان الكامل محمد على الصليبيين إرسال عدد من ملوكهم إليه كرهائن لضمان خروج الصليبيين من دمياط، فوافق الصليبيون على ذلك وأرسلوا عشرين من كبرائهم على رأسهم الملك حنا دي برين والمندوب البابوي، في حين أرسل السلطان الكامل محمد مقابل ذلك ابنهُ الملك نجم الدين أيوب ومعه جماعة من رفاقهِ[٧]، وأطلق سراحهم بعد أن عاهدوه على أن يخلوا دمياط ويجلوا

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٩؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠٨؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٩٣.

٢- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٤.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٧٩؛ المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٧؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٤.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٩٥.

٥- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٤.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٨٠؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٠٩؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٩٦؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٤.

٧- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٣٨٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٩٦.

ويجلوا عن الديار المصرية، وألا يرفعوا على المسلمين سيفاً لمدة ثماني سنوات، وتم إجلاء الصليبيون عن دمياط في (رجب سنة ٦١٨هـ / أيلول ١٢٢١م)، ودخلها السلطان الكامل محمد[١].

انتهت الحملة الصليبية الخامسة بالإخفاق، حيث أضاع الصليبيون فرصة استعادة إحياء مملكة بيت المقدس، فاضطروا في النهاية لإنقاذ أرواحهم بالخروج من دمياط.

يعود الفضل في القضاء على خطر الحملة الصليبية الخامسة التي هددت مصر إلى تضامن أبناء السلطان العادل أبي بكر بعد وفاة أبيهم، إلا أن هذا التحالف والتعاون لم يلبث أن انفرط في نهاية سنة (٦٢٠_٦٢١هـ / ١٢٢٣_١٢٢٤م)، نتيجة لأطماع الملك المعظم عيسى[٢]، وذلك أن الملك المعظم عيسى أراد توسيع دائرة أملاكهِ، ولكنهُ بدلاً من أن يتوسع على حساب الصليبيين بالشام، لجأ إلى التمادي على ممتلكات أخويه وأقربائه، فهاجم حماة الأمر الذي أغضب السلطان الكامل محمد والملك الأشرف موسى لهذا العمل، فأرسل السلطان الكامل محمد إلى أخيه الملك المعظم عيسى يطلب منه الرحيل فرحل عنها مرغماً[٣]، مما فتح باب الخلاف بين الأخوة الثلاثة في الوقت الذي كانوا فيه أحوج إلى الاتحاد فيما بينهم[٤]، وذلك أن خطراً جديداً هدد هدد المنطقة كاملة وهو خطر الخوارزمية، وقد ظهر هذا الخطر نتيجة مباشرة لحركة توسع التتار بعد أن دمر جنكيز خان دولة الأتراك الخوارزمية سنة (٦١٧_٦١٨هـ / ١٢٢٠_١٢٢١م)[٥]، واستطاع جلال الدين منكبرتي (٥٩٥_٦٢٨هـ / ١١٩٩_١٢٣١م) من إحياء الدولة الخوارزمية من جديد متخذاً من أصفهان عاصمة له، وبدلاً من أن يعمل على حماية العالم الإسلامي من خطر التتار الوثنيين، قام بمهاجمة الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥_٦٢٢هـ / ١١٨٠_١٢٢٥م) في العراق ودخل بغداد سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، ثم اتجه لمهاجمة إقليم جورجيا، والمجاور لممتلكات الملك الأشرف موسى بن العادل الأيوبي الأمر الذي جعل الأشرف يتوجه إلى دمشق لطلب المساعدة من أخيه الملك المعظم عيسى[٦].

١- المنصوري: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، ص٧؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٤٩٦؛ هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢١٣.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٦٨؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٩٩.

٣- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٩٩.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٠.

٥- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٠٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٠.

٦- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٠.

على الرغم من تحذير الملك الأشرف موسى لخطر الخوارزمية والتجائه لأخيه لطلب المساعدة، لكن الملك المعظم عيسى استغل فرصة مجيء الملك الأشرف موسى إليه وقبض عليه، لتحقيق أطماعهِ التوسعية على حساب أهل بيته، ولم يطلق سراحهُ إلا بعد أن تعهد لهُ بمساعدته في الاستيلاء على حمص وحماة، ثم مهاجمة السلطان الكامل محمد في مصر، وقد تعهد الملك الأشرف موسى بكل ذلك، ولكنهُ ما كاد يفلت من يد الملك المعظم عيسى حتى أكد تحالفهُ مع أخيه السلطان الكامل محمد وأخبره بكل ما حدث[1].

أ- الحملة الصليبية السادسة:

إلا أن النزاع بين أفراد البيت الأيوبي هذه المرة أخذ منحاً خطيراً، وذلك أن كل من الأخوة استعان بقوى خارجية لمساندته ضد الطرف الآخر، فاستنجد الملك المعظم عيسى بالخوارزمية في حين استنجد السلطان الكامل محمد بالإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور ألمانيا "إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ومملكة الصقليتين "صقلية ونابولي"، في حين حاصر السلطان جلال الدين منكرتي خلاط مقر حكم الملك الأشرف موسى في (رجب سنة ٦٢٣هـ / تموز ١٢٢٦م)، كما أرسل السلطان جلال الدين إلى الملك المعظم عيسى خلعة لبسها وشق بها دمشق وقطع الخطبة للسلطان الكامل محمد[2]، وكان السلطان الكامل محمد قد خشي ازدياد قوة أخيه الملك المعظم عيسى حاكم دمشق، فعقد محالفة مع الإمبراطور فردريك الثاني على أن يتنازل له عن بيت المقدس وعن طريق الحجاج المؤدية إلى عكا ويافا، وأن يطلق سراح الأسرى من الفرنج، وأن يقدم لإمبراطور فردريك الثاني مقابل ذلك مساعدته على رد كل مهاجم ولو كان مسيحياً، وأن يمنع المدد عن الصليبيين الآخرين في الشام مدة عشر سنين ونصف[3].

لم يكد الإمبراطور فردريك الثاني يصل إلى عكا في (شوال سنة ٦٣٥هـ / أيلول ١٢٢٨م)، حتى كانت الأمور قد تغيرت بشكل كامل، وذلك أن البابا للمرة الأولى في تاريخ البابوية يتراسل سراً مع المسلمين ملوك بني أيوب وخاصة السلطان الكامل محمد محرضاً إياهم على عدم إعطاء الإمبراطور فردريك الثاني لبيت المقدس، وهكذا أثبتت الأحداث أن المعركة بين البابوية والإمبراطورية كانت في نظر البابا أهم بكثير من المعركة بين الصليبيين والمسلمين في بلاد الشام[4]، ومن ناحية أخرى، فإذا كان الإمبراطور فردريك الثاني قد اعتمد في مجيئه على وعود السلطان الكامل محمد بإعطائه بيت المقدس، فإنه ترافق وصوله إلى بلاد الشام بانهيار آماله بسبب التغيرات المفاجئة التي حصلت، ذلك أن الملك المعظم عيسى حاكم دمشق والذي كان

١- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٠.

٢- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٤؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٤٧٠.

٣- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٠٦.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٥.

السبب في استنجاد السلطان الكامل محمد بالإمبراطور فردريك الثاني قد توفي في أواخر سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م)، تاركاً ابنهُ الملك الناصر داوود (٦٢٤_٦٢٦هـ / ١٢٢٧_١٢٢٨م) يخلفهُ في ملكهِ، والذي كان في العشرين من عمره، عديم الخبرة محباً للهو، فسنحت الفرصة للسلطان الكامل محمد والملك الأشرف موسى على اقتسام ممتلكات أخيهما المتوفي الملك المعظم عيسى، أما الملك الناصر داوود فقد أعطاه عمه الكرك والشوبك[1]، وبذلك تكون قد استقرت وهدأت الأوضاع بين أبناء البيت الأيوبي، ولم يعد للسلطان الكامل محمد حاجة لمعونة الإمبراطور القادم من الغرب الأوربي.

يذكر المؤرخون المعاصرون الحيرة التي وقع بها السلطان الكامل محمد في ذلك الوقت، لأن الإمبراطور فردريك الثاني لم يأتِ إلى بلاد الشام إلا بناءً على طلب السلطان نفسهُ، وفي ذلك يذكر المؤرخ المقريزي عن حيرة السلطان الكامل محمد فهو غير قادر على محاربتهِ لوجود اتفاق بينهما فاعتمد المراسلة والملاطفة[2]، في الوقت نفسه وجد السلطان الكامل محمد بأن ليس من مصلحة الدولة الأيوبية أن يصطدم بالصليبيين بالشام في تلك المرحلة وفتح جبهة معهم بسبب الخطر الخوارزمي ومن ورائه خطر التتار[3].

لقد نجح الإمبراطور فردريك الثاني في استعطاف السلطان الكامل محمد، كما طالبه بضرورة الوفاء بعهوده حسب الاتفاق، يضاف إلى ذلك، على الرغم من تذلل الإمبراطور فردريك الثاني وبكائه، إلا أنه لجأ إلى التلويح بالقوة، فقام بتحصين يافا، مما جعل السلطان الكامل يخشى حدوث تحالف صليبي ضد المسلمين، وخاصة أن السلطان الكامل محمد لم يكن مستعداً لفتح جبهة جديدة لإحاطته بثلاث أخطار، ابن أخيه الملك الناصر داوود من جهة، والصليبيين من جهة أخرى، والخوارزمية التي استعان بها الملك الناصر داوود من جهة ثالثة، حيث وافق السلطان الكامل محمد على عقد اتفاقية يافا مع الإمبراطور فردريك الثاني في (ربيع الأول سنة ٦٢٦هـ / شباط ١٢٢٩م)، وتقرر فيها الصلح بين الطرفين لمدة عشر سنوات، على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة وتبنين وصيدا، وتكون لهم القرى على الطريق من عكا إلى القدس فقط، واشترط المسلمون على أن تبقى بيت المقدس على ما هي عليه، فلا يجدد سورها وأن يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى بأيدي المسلمين وتقام الشعائر

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٧٣_٤٧٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٦.

٢- المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٤٧١.

٣- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٦.

الإسلامية[1]، كما تعهد الإمبراطور فردريك الثاني بمساعدة السلطان الكامل محمد، ضد أعدائه من المسلمين والمسيحيين، وعدم تزويد صليبي المشرق بأية مساعدة[2].

وهكذا نجحت الحملة الصليبية العجيبة على بيت المقدس التي قادها الإمبراطور فردريك الثاني، وهي الحملة المعروفة بالسادسة، وكان قوامها ستمائة جندي فقط ولم ترق فيها قطرة دم واحدة، وأخذ الإمبراطور فردريك الثاني بيت المقدس بلا ضرب ولا قتال، ودخلها في (ربيع الآخر سنة ٦٢٧هـ / آذار ١٢٢٩م)، وقبل أن يغادر الإمبراطور فردريك الثاني إلى بلاده تبادل الهدايا مع السلطان الكامل محمد[3]، وقد توج نفسه إمبراطوراً في كنيسة القيامة، ثم عاد إلى عكا، ومنها انصرف عائداً إلى غرب أوربة[4].

بعد عودة الإمبراطور فردريك الثاني إلى غرب أوربا، دخل الصليبيون فترة الضعف والانحلال، بسبب ما نشأ بينهم من خلافات ومنازعات[5]، وعلى الرغم من قدرة الأيوبيين في مواجهة الصليبيين إلا أنهم حرصوا على عدم إثارة حرب معهم بالشام في تلك الفترة، لتخوفهم من الخوارزمية وسلطانهم جلال الدين منكبرتي وذلك لأن الخوارزمية اتبعوا سياسة التتار في التدمير والتخريب للبلاد والعباد، حتى لو كانت تلك البلاد من بلاد المسلمين، فلم يبالغ السلطان الكامل محمد والملوك الأيوبيين بخطر الخوارزمية، حين سيطروا على خلاط في (جمادى الأول سنة ٦٢٧هـ / نيسان ١٢٣٠م)، بعد حصارها ستة أشهر، وعندئذ وضعوا السيف في رقاب أهلها[6]، وسبى أهلها وكان من بين الأسرى زوجة الملك الأشرف موسى، فانتهك السلطان جلال الدين منكبرتي عرضها في نفس الليلة التي استولى فيها على المدينة[7].

أمام خطر الخوارزمية تناسى حكام المسلمين في البلدان المجاورة ما بينهم من خصومات،

١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٨١؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص١٧٣؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٤٧١؛ بيضون: تاريخ بلاد الشام، ص٢٦٢.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٨١؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٦؛ سيمينوفا: صلاح الدين والمماليك في مصر، ص٣٣.

٣- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٥؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٥.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٠٩.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٠.

٦- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٨٤؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١١.

٧- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٢٩٩؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١١.

وتحالف الأيوبيون مع عدوهم السابق سلطان سلاجقة الروم كيقباذ الأول[1] (٦١٦_٦٣٤هـ / ١٢١٩_١٢٣٧م)، ضد جلال الدين الخوارزمي، وقد اجتمعت قوات الأيوبيون تحت زعامة الملك الأشرف موسى مع قوات سلاجقة الروم تحت قيادة السلطان كيقباد الأول وانطلقوا نحو خلاط، ودارت معركة في (رمضان سنة ٦٢٧هـ / آب ١٢٣٠م)، حلت الهزيمة الساحقة بالخوارزمية وفر سلطانهم جلال الدين إلى أذربيجان بعد أن فقد كثيراً من رجاله[2]، وهكذا استرد الملك الأشرف موسى خلاط، وبعد فترة تم الصلح بينه وبين السلطان جلال الدين الخوارزمي، لكن بعض الأكراد قاموا بقتل السلطان جلال الدين سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م)، فتمزقت دولته، وانتشرت جموع الخوارزمية في عدد من بلاد المشرق يعرضون خدماتهم على من يرغب شرائها من حكام المسلمين[3].

إلا أن القلق والخوف استمر مع الأيوبيين في الشام ومصر، ذلك لأن التتار استولوا على ممتلكات الخوارزمية، وبذلك أصبحت أنظارهم متوجهة نحو غزو العراق وممتلكات الأيوبيين في الجزيرة وسلاجقة الروم في أسيا الصغرى[4]، فمن الطبيعي أمام هذا الخطر أن يتحالف كل من الأيوبيين مع سلاجقة أسيا الصغرى لصد المغول، مثلما تحالفوا لصد الخوارزمية، ولكن سلطان سلاجقة الروم السلطان علاء الدين كيقباذ الأول، أراد استغلال الموقف لأخذ خلاط والرها وحران من الأيوبيين[5]، ومع ظهور نوايا السلاجقة جمع السلطان الكامل محمد حوله القوى الأيوبية في الشام، وزحف لمواجهة أطماع سلاجقة الروم في آسيا الصغرى سنة (٦٣١هـ / ١٢٣٤م)، إلا أن ملوك بني أيوب خافوا من ازدياد نفوذ السلطان الكامل محمد، وخصوصاً إذ تغلب على سلاجقة الروم، فسيتمكن من القضاء عليهم جميعاً، لذلك تأمروا على السلطان الكامل محمد، وراسلوا في الخفاء سلطان سلاجقة الروم علاء الدين يؤكدون له وقوفهم إلى جانبه ضد السلطان الكامل محمد، وهكذا انتهى الموقف بعودة السلطان الكامل محمد من حيث أتى، في حين استولى السلاجقة على

١- علاء الدين كيقباذ: سلطان سلاجقة الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي تزوج من ابنة الملك العادل الأيوبي توفي في (٧ شوال سنة ٦٣٤هـ / ٢ حزيران ١٢٣٧م). ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص١٩٦.

٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٨٦؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص١٨٠_١٨١.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٨٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٢.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد١٠، ص٤٩٢؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٨؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص١٨٤_١٨٥.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٢.

حران وخلاط والرها سنة (٦٣٢هـ / ١٢٣٥م)[١]، لكن السلطان الكامل محمد استطاع في سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٥م)، استعادة تلك المناطق وأضافها لممتلكاته، فأصبحت آمد وجميع حصونها وممالكها وحران والرها وحصن كيفا تابعة له، وعين عليها ابنه الملك الصالح نجم الدين[٢].

لم ينحصر الصراع والانقسام في البيت الأيوبي على ما حدث أثناء مواجهتهم لسلاجقة الروم، بل سرعان ما أعلن حاكم دمشق الملك الأشرف موسى العصيان على أخيه الأكبر السلطان الكامل محمد الموجود في مصر، مستعيناً في ذلك الوقت بحاكم حمص أسد الدين شيركوه والوصية على حلب ضيفه خاتون[٣]، ولكن القدر شاء أن يتوفى الملك الأشرف موسى في (محرم سنة ٦٣٥هـ / آب ١٢٣٧م)، قبل أن تشتعل نار الحرب الأهلية بين ملوك البيت الأيوبي، لكن الملك الأشرف موسى قد أوصى قبل وفاته بأن يخلفهُ في ملك دمشق أخوه حاكم بصرى الملك الصالح إسماعيل (٦٣٥_٦٤٤هـ / ١٢٣٨_١٢٤٦م)، ولم يكد الملك الصالح إسماعيل أن يتسلم زمام الأمور في دمشق حتى أعاد تكوين الحلف المضاد للسلطان الكامل محمد، فاتصل بحاكم حمص المجاهد أسد الدين شيركوه وحاكم حماة الملك المظفر تقي الدين محمود (٦٢٦_٦٤٢هـ / ١٢٢٩_١٢٤٠م) والوصية على حلب وضيفة خاتون[٤]، ليكونوا جميعاً يداً واحدة ضد السلطان الكامل محمد وأن يقتصر سلطانه على مصر فقط[٥]، فيما لم يستجب حاكم حماة الملك المظفر محمود، وحاكم الكرك الملك الناصر داوود، أما السلطان الكامل محمد عندما علم بذلك أسرع من مصر وحاصر دمشق واستطاع السيطرة عليها في أوائل سنة (٦٣٥هـ / ١٢٣٨م)، وعندئذٍ عاقب الملك الصالح إسماعيل بعزلهِ وإعطائه إقطاعاً صغيراً في بعلبك والبقاع، وبذلك يكون السلطان الكامل محمد قضى على ذلك الحلف في المهد[٦]، أما الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الثاني عمل على استمالة عطف السلطان الكامل محمد، فوافق بتقديم ألفي ألف درهم ويعفو عنهُ،

١– ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص١٩؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٤٧٣.

٢– ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٣، ق١، ص٨١؛ ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٢٨؛المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص٤٧٣.

٣– ضيفة خاتون: بنت العادل سيف الدين أبي بكر محمد بن نجم الدين أيوب ولدت بقلعة حلب سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م) تزوجها الظاهر غازي بعد أختها غازية سنة (٦٠٩هـ / ١٢١٢م) ماتت بقلعة حلب سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م). ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج١، ق٢، ص٢٤.

٤– ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢٠_٢١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٣٤.

٥– عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٦.

٦– ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٣٥.

وفي هذه السنة طلب الخليفة العباسي المستضيء بالله (٦٢٣_٦٤٠هـ / ١٢٢٦_١٢٤٢م) من السلطان الكامل تقديم المساعدة بسبب خطر التتار، فأرسل له خمسة ألاف فارس[١]، إلا أن السلطان الكامل محمد توفي بعد فترة قليلة في (رجب سنة ٦٣٥هـ / آذار ١٢٣٨م)، بقلعة دمشق بدار الفضة ودفن فيها، وقد أجمع المؤرخين المعاصرون على مدحهِ، بأنه كان ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير، فقد كان السلطان الكامل محمد يحسن الإدارة والسياسة، ولا يقصر في عمل، وتقدمت مصر في عهده كثيراً بفضل ما قام به من الأعمال لإصلاح الري وتحسين حال الزراعة، وأتم الكامل بناء قلعة صلاح الدين[٢].

٦_ السلطان العادل الثاني (٦٣٥_٦٣٧هـ / ١٢٣٨_١٢٤٠م):

بعد وفاة السلطان الكامل محمد خلفهُ على عرش مصر ابنه الأصغر وهو الملك العادل الثاني وبقي ابنه الأكبر وهو الملك الصالح نجم الدين أيوب على ولايته الفراتية، لأن أم العادل أرادت أن يكون ابنها سلطاناً فكان لها ما أرادت[٣]، لكنهُ أبعد أمراء والده وقرابته، وأنشأ له أمراء شباناً وأعطاهم الأموال والإقطاعات، وأقبل على شرب الخمر واللهو، في حين خرجت دمشق عن طاعته، وعندما ضاق الأمر بالملك الجواد يونس مظفر بن مودود نائب دمشق (٦٣٥_٦٤١هـ / ١٢٣٧_١٢٤٣م) خاف على نفسه من السلطان العادل الثاني واتصل بالملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب آمد وحصن كيفا لكي يأخذ دمشق، وبالفعل دخل دمشق في سنة (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م)، ودخل قلعتها[٤].

في حين اشتعل الخلاف بين حاكم حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه وحاكم حماة الملك المظفر الثاني تقي الدين محمود[٥]، وقد أدى سيطرت الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق إلى خلاف بينهُ وبين أخيه السلطان العادل الثاني، وفي ذلك النزاع استعان كل طرف بأنصار له من داخل البيت الأيوبي نفسه، فاعتمد السلطان العادل الثاني على الملك المجاهد

١- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢١.

٢- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٣٦؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٥.

٣- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٦.

٤- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢٣؛ ابن شداد: الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج٣، ق١، ص٢٠٢؛ ص٢٠٢؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٤٢؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٥.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٧.

شيركوه، واعتمد الملك الصالح نجم الدين أيوب على الملك المظفر الثاني تقي الدين، هذا بالإضافة إلى استعانة كل فريق بجموع من خارج البيت الأيوبي من مرتزقة الخوارزمية الذين تفرقوا في البلاد بعد مقتل سلطانهم، ثم حدث في نهاية سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، أن الملك الصالح إسماعيل عم السلطان العادل الصغير والملك الصالح نجم الدين أيوب استطاع استرداد دمشق، والتي كان أخوه السلطان الكامل محمد قد طرده منها[١]، وذلك بعد أن اتفق حاكم بعلبك الملك الصالح إسماعيل مع حاكم حمص المجاهد أسد الدين شيركوه على أخذ دمشق وعملوا الحيلة وأخذوها، فتفرقت عساكر الملك الصالح نجم الدين أيوب عنهُ ولم يبق معهُ سوى جماعة قليلة، فقبض عليه الملك الناصر وسجنهُ في قلعة الكرك، ففرح بذلك السلطان العادل الثاني وأقام الولائم وطلب من الملك الناصر صاحب الكرك أن يرسل لهُ أخيهِ الملك الصالح نجم الدين أيوب في قفص من حديد، وأن يعطيه أربعمائة ألف دينار ويفتح دمشق، فأجابهُ الملك الناصر أنهُ إذا افتتحت دمشق وسلمها لهُ يعطيهِ مقابل ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب[٢].

وافق الملك الصالح نجم الدين أيوب على طلب حاكم الكرك الملك الناصر، الخروج إلى مصر لعزل السلطان العادل الثاني، وذلك وفي سنة (٦٣٧هـ / ١٢٤٠م)، مقابل إخراجه من السجن، وعندما علم السلطان العادل الثاني خرج من مصر لمعاقبتهما، وعند بليس أنزل معسكره قاصداً الكرك، لكن اجتمع جميع أمرائه ما عدا الأكراد على خلعهِ فقبضوا عليه وعزلوه وقتلوه، وتم استدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ليتسلم زمام الأمور، وبالفعل دخل القاهرة وأصبح سلطاناً[٣].

إن هذه الحادثة تظهر لنا مدى تفوق القوة المملوكية على القوة الكردية في الدولة الأيوبية ما جعلهم قادرين على خلع سلطان وإقامة أخر والدور الذي ستقوم به هذه القوة فيما بعد.

٧_ السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧_٦٤٧هـ / ١٢٤٠_١٢٤٩م):

لقد اهتم السلطان الصالح نجم الدين أيوب منذ توليه عرش مصر بالإكثار من شراء المماليك الأتراك إلى درجة لم يبلغها غيره من أهل بيته حتى صار معظم جيشه منهم وأسكنهم معهُ في

١- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٨.

٢- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٢٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٤٦_٢٤٧؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥١٥.

٣- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٤٧_٢٤٨؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٥.

قلعة الروضة[1]، وربما يعود ذلك إلى خوفه من اجتماع ملوك الأيوبيين ضده أو من أي خطر خارجي صليبي أو من قبل التتار والخوارزمية.

لقد أدى اشتداد النزاع والصراع بين أفراد البيت الأيوبي إلى إصابة الشام بحالة فوضى نتيجة صراع الملك الصالح نجم الدين أيوب مع عمه حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل والذي شارك فيه ملوك حمص وحماه والكرك كما تم ذكرهُ سابقاً.

ترافق ذلك إلى إرسال البابوية لحملة صليبية جديدة مع نهاية الصلح الذي عقده السلطان الكامل محمد مع الإمبراطور فردريك الثاني، وقد وصلت هذه الحملة في مطلع سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، وعلى رأسها أمير شامبنى ثيبوت الرابع، ويؤخذ على هذه الحملة أن زعمائها افتقروا تماماً إلى المرونة السياسية التي ميزت الملك ريتشارد قلب الأسد والإمبراطور فردريك الثاني، وهكذا لم يستفد الأمير ثيبوت الرابع من حالة الفوضى والنزاع بين ملوك البيت الأيوبي، واتبع سياسة أدت إلى إخفاق حملتهِ في النهاية[2]، وعندما علم الملك الناصر داوود بنزول الصليبيين في عكا سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، أخذ بيت المقدس بحجة أن الصليبيين عمروا المدينة وحصنوها وبذلك نقضوا شروط الصلح مع المسلمين[3]، ومما لا شك فيه بأن ذلك كان صدمة قوية للصليبيين، فقرروا أن يتجهوا إلى عسقلان للاستيلاء عليها ومنها إلى دمشق بوصفها مركز الحركة الإسلامية في بلاد الشام[4]، ومع اتجاه الصليبيين من عكا إلى عسقلان بادر السلطان العادل الثاني الصغير الذي كان لا يزال سلطاناً قبل عزله إلى إرسال قوات استطاعت إنزال هزيمة بالصليبيين قرب غزة وسيق كثير منهم أسرى إلى القاهرة[5].

ففي صيف سنة (٦٣٧هـ / ١٢٤٠م)، حصلت المؤامرة التي انتهت بعزل السلطان العادل الثاني من الحكم، وقيام أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة كما تم ذكرهُ سابقاً، مما أدى إلى استياء حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل، ولا سيما أن السلطان الصالح نجم الدين أيوب أراد مكافأة حليفهُ حاكم الكرك الناصر داوود، فلم يجد الملك الصالح إسماعيل سوى الاستعانة بالصليبيين ومحالفتهم ضد السلطان الصالح نجم الدين أيوب في مصر، وحاكم الكرك الملك الناصر داوود، وفي مقابل ذلك تعهد لهم بإعطائهم بيت المقدس، ولكي يثبت صدق نواياه قام بتسليمهم القدس وطبرية وعسقلان، فضلاً عن عدد أخر من قلاع الشام التي كانت بأيدي

١- المقريزي: الخطط المقريزية، ج٣، ص١٢٢؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٧٦.

٢- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٨.

٣- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٨١٧.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٩.

٥- هاملتون: صلاح الدين الأيوبي، ص٢٢١.

المسلمين[1]، وقرر الطرفان التوجه نحو مصر فتوجه حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل وحاكم حمص الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم الأيوبي (٦٠٠_٦٢٢هـ / ١٢٠٤_١٢٤٦م) الذي خلف أباه المجاهد شيركوه الثاني على رأس جيوشهما مع الصليبيين لغزو مصر، لكن القوات الشامية التابعة للملك الصالح إسماعيل والملك المنصور إبراهيم، لم تقبل فكرة طعن إخوانهم المسلمين، فلم تكد تصل هذه القوات إلى غزة حتى انضمت إلى الجانب المصري ليتعاون الجميع في ضرب الصليبيين، وهكذا حلت الهزيمة بالصليبيين فقتل منهم عدد كبير، وسيق الأسرى إلى القاهرة، وانسحب الباقون إلى عسقلان حيث عقدوا صلحاً مع السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٣٨هـ / ١٢٤٠م)[2].

نتيجة هذه الهزيمة انسحبت الحملة الصليبية من عكا إلى الغرب الأوربي في (صفر سنة ٦٣٨هـ / أيلول ١٢٤٠م)، لكن قوات جديدة وصلت في الشهر التالي بقيادة ريتشارد دي كورنول، وهو أخ ملك إنكلترا هنري الثالث، لكن هذه الحملة لم تقم بعمل حربي لأنها صغيرة عدا تحصين عسقلان ليتخذها الصليبيون قاعدة لصد أي هجوم من ناحية مصر[3]، واستطاع ريتشارد دي كورنول الحصول من السلطان الصالح نجم الدين أيوب على اعتراف بملكية الصليبيين الحصون التي حصلوا عليها مع بيت المقدس ليعود إلى بلاده في (شوال سنة ٦٣٨هـ / أيار ١٢٤١م)[4].

سرعان ما عاد الخلاف مرة أخرى بين السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وعمه حاكم دمشق الملك الصالح إسماعيل، والذي سانده حاكم الكرك الملك الناصر داوود، وطلبوا من الصليبيين المساعدة ضد السلطان الصالح نجم الدين أيوب في مصر، مقابل إحيائهم مملكة بيت المقدس من جديد[5]، حيث انطلق الملوك الثلاثة الصالح إسماعيل والناصر داوود والمنصور إبراهيم لغزو مصر بمساعدة الصليبيين، وتجمعوا في غزة[6]، أما السلطان الصالح نجم الدين أيوب، فلم يجد قوة يمكنها إنقاذه بشكل مباشر سوى الخوارزمية، فاتصل بهم طالباً المساعدة، فرحوا بهذا الطلب لأنها أتاحت لهم دخول بلاد الشام، واندفع منهم عشرة آلاف في اتجاه دمشق ولما وجدوا هذه المدينة قوية التحصين استولوا على طبرية ثم نابلس، ومنها نحو بيت المقدس[7]، في حين لم يكن

١- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١١٩.

٢- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٣؛ ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٤٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٧٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥١٦.

٣- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٣٩_١٠٤٠.

٤- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢١.

٥- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢١.

٦- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٢٤.

٧- شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢٣.

يكن في بيت المقدس تحصينات أو ملك أو زعيم صليبي يدافع عنها، فاستنجد من فيها بأنطاكية وطرابلس وملك قبرص، ولكن لم يتحرك أحد لإنقاذهم، أما ملوك الأيوبيين بالشام فلم يجرؤوا على التدخل لمنع الخوارزمية من الاستيلاء على بيت المقدس، وإلا تعرضوا إلى نقمة المسلمين جميعاً[1]، وبعد هذا الانتصار استطاع السلطان نجم الدين، أن يمنع الخوارزمية من دخول مصر، وأن يقضي عليهم كما تمكن من إعادة الوحدة للدولة الأيوبية.

هكذا استعادت الدولة الأيوبية وحدتها، وصار السلطان الصالح نجم الدين أيوب يجمع بين يديه القاهرة وبيت المقدس ودمشق، وقد أقام السلطان بدمشق في المدة ما بين (٦٤٦_٦٤٧هـ / ١٢٤٨_١٢٤٩م)، حيث وفد عليه حاكم حماة، الملك المنصور الثاني سيف الدين محمود الثاني، وملك حمص الأشرف المظفر الدين موسى الثاني، وغيرهما من ملوك بني أيوب بالشام لتقديم فروض الطاعة والولاء كذلك قام الصالح أيوب بزيارة مدينة بيت المقدس بعد أن عادت نهائياً إلى حضن الدولة الإسلامية فقوى تحصينها ودعمها[2].

أ_ الحملة الصليبية السابعة:

نتيجة سقوط بيت المقدس سنة (٦٤٢هـ / ١٢٤٤م)، بيد الخوارزمية والفظائع التي ارتكبوها بحق الصليبيين كانت السبب الأساسي في مجيء الحملة الصليبية السابعة بقيادة ملك فرنسا الملك لويس التاسع (٦١٠_٦٦٨هـ / ١٢١٤_١٢٧٠م) على مصر[3].

في الوقت الذي أخذ ملك فرنسا الملك لويس التاسع، يبدأ استعداداته لحملته الصليبية، إذ بأخبار تلك الاستعدادات والحملة تتسرب إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وذلك أن الإمبراطور فردريك الثاني ظل محافظاً على صداقتهِ للسلطان الكامل ومن بعده لابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب، حيثُ أرسل له سفيراً متنكراً بلباس تاجر إلى دمشق ليخبره بتفاصيل الحملة[4].

عندها توجه السلطان الصالح نجم الدين أيوب من دمشق إلى مصر ونزل عند بلدة أشموم طناح وهي تقع جنوب دمياط وقريبة منها، لأنهُ كان مدرك تماماً بأن وجهة الصليبيين الأولى ستكون دمياط، كما أنهُ أمر بتحصين دمياط وتزويدها بالذخائر والأسلحة ووضع فيها حامية من

١- قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥١٩.

٢- ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٦٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٢٨٠_٢٨٨، ٢٨١.

٣- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٨٣.

٤- المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٠؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢٧.

عرب بني كنانة وأرسل جيشاً إليها بقيادة الأمير فخر الدين يوسف وأمره أن ينزل بساحلها الغربي ليمنع نزول الصليبيين إلى الشاطئ[١].

أما الملك لويس التاسع فقد وصل على رأس حملته إلى جزيرة قبرص في (جمادى الأول سنة ٦٤٦هـ / أيلول ١٢٤٨م)، حيث قضى بضعة أشهر استراحوا فيها وحصلوا على ما يلزمهم من معلومات عن أحوال المشرق ومن المؤن، وبعد أن استقر رأيهم على التوجه نحو دمياط، أبحروا إليها في (محرم سنة ٦٤٧هـ / أيار ١٢٤٩م). وهنا نلاحظ أمرين: الأول هي فكرة الاستيلاء على مصر بوصفها مفتاح بيت المقدس كانت لا تزال تسيطر على عقول الصليبيين، والأمر الثاني هو أن الملك لويس التاسع اتبع أسلوب المغول بإرساله رسائل مليئة بعبارات التهديد والوعيد إلى حكام البلاد التي يعتزم غزوها فيستسلمون دون قتال، فما كاد الملك لويس التاسع يصل إلى دمياط في (أوائل صفر سنة ٦٤٧هـ / تموز ١٢٤٩م)، حتى بعث برسالة عنيفة تهديدية إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، وعندما تسلم السلطان الصالح نجم الدين أيوب هذه الرسالة وهو مريض، غرقت عيناه بالدموع، ورد على الملك لويس التاسع مذكراً له بانتصارات المسلمين على الصليبيين[٢].

في حين استفاد السلطان الصالح نجم الدين أيوب كثيراً من التحذير الذي أرسله الإمبراطور فردريك الثاني لهُ، وأخذ استعداداته كما تم ذكرهُ سابقاً.

وعندما وجدَ الملك لويس التاسع أن دمياط قوية التحصين، بحيث يتعذر النزول على برها، قرر النزول على الضفة الغربية للنيل المواجهة لدمياط، وعلى الرغم من وجود قوات الأمير فخر الدين ووقوفها في وجه الصليبيين، إلا أنها لم تنجح في منعهم من النزول على الشاطئ، وفي ظلام الليل هرب الأمير فخر الدين وقواته إلى الضفة الشرقية حيث تقوم مدينة دمياط[٣]، وسرعان ما دخل الرعب على قلوب أهل دمياط، فتركوا مدينتهم هاربين، بعد أن أشعلوا النار في سوقها حتى أن عرب بني كنانة المكلفين بحماية المدينة من قبل السلطان الصالح نجم الدين أيوب، كانوا أول التاركين أبواب دمياط[٤]، وهكذا دخلها الفرنج الصليبيين بغير قتال في (صفر سنة ٦٤٧هـ / تموز ١٢٤٩م)، واستولوا على ما فيها من مؤن وأسلحة وأموال بعد أن تأكدوا من خلوا

١– المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١١؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٨٥.

٢– ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٦٦_٣٦٨؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١١؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٢٤_٥٢٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢٨.

٣– المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٢؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٢٥؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢٩.

٤– المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢٩.

المدينة بشكل كامل[١]، لكن الملك لويس التاسع قد أضاع مدة خمسة أشهر كاملة في دمياط دون التقدم إلى قلب البلاد[٢]، فإن ذلك أعطى السلطان الصالح نجم الدين أيوب فرصة جيدة للاستعداد وإعادة تنظيم جيشه.

وقد عاقب السلطان الصالح نجم الدين أيوب أمراء بني كنانة لهروبهم من دمياط دون قتال بالشنق، ووبخ الأمير فخر الدين أشد توبيخ، واضطر أمام ذلك الواقع إلى التراجع بمعسكره إلى مدينة المنصورة، حيث اشتد فيه المرض، وقد نزل بالقصر السلطاني على ساحل النيل حيثُ تجمعت السفن الحربية في النيل، وبدأت وفود المتطوعين بالقدوم لمواجهة الخطر القادم[٣]، واستطاع وهو على فراش المرض أن يدير شؤون الدفاع[٤]، فقد كانت العمليات الحربية في تلك الأثناء مناوشات فردية تهدف إلى أسر عدد من الجنود الصليبيين وإرسالهم إلى القاهرة[٥].

بعد أن وصلت الإمدادات إلى الملك لويس التاسع بصحبة أخيه قرر الصليبيون الزحف نحو القاهرة، ولم يكد الجيش الصليبي يتحرك حتى توفي السلطان الصالح نجم الدين أيوب في (١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ / ٢٢ تشرين الثاني ١٢٤٩م)، مما لا شك فيه أن وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، جاءت في أصعب الظروف في مواجهة الخطر الصليبي[٦]، فعملت زوجتهُ شجر الدر بتدبير شؤون الدولة بعد أن أخفت خبر موتهِ لكي لا يصل للصليبيين، وأصدرت الأوامر بما يشبه توقيعهُ، وجمعت قوات الجيش وأرباب الدولة وزعمت بأن السلطان الصالح نجم الدين أيوب يأمرهم بالبيعة لولده الملك تورانشاه ففعلوا ذلك، وفي الوقت نفسه أرسلت إلى ابن زوجها تورانشاه تحثهُ على القدوم من حصن كيفا إلى مصر ليعتلي عرش السلطنة ويواجه الصليبيين[٧].

على الرغم من كل الاحتياطات لإخفاء خبر وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب، إلا أن خبر وفاته قد تسرب إلى عامة أهل مصر، وإلى الصليبيين أيضاً، لذلك رأى الملك لويس التاسع أن يسرع بالهجوم ليستفيدوا من تلك الظروف المناسبة وليتمكن من إنزال ضربته بالمسلمين قبل وصول الملك تورانشاه[٨].

١– المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٢٩_١٣٠.

٢– عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٠.

٣– المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٢؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٨٥.

٤– عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٠.

٥– العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٨٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٠.

٦– ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٧، ص٣٧٠؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٠.

٧– ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٣٠٢،٣٠٥؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٤؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٢٩؛ شعيب: المختصر في تاريخ مصر، ص٢٠٥؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٨٦.

٨– عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣١_١٣٢.

واستطاع الصليبيون التقدم والوصول إلى مدينة المنصورة وقتل الأمير فخر الدين قائد الجيش الأيوبي ومن دخول المدينة، في الوقت الذي كان هناك قوة جديدة أنقذت الموقف الإسلامي وهي المماليك البحرية، الذين أحاطوا بالصليبيين المنتشرين في دروب المنصورة، وأوسعوهم قتلاً حتى انتهت المعركة بهزيمة الصليبيين وفرار من نجا من القتل[١].

مما لا شك فيه أن موقعة المنصورة أعادت الثقة إلى نفوس المسلمين، فقويت عزائمهم وتطلعوا إلى طرد الصليبيين من مصر، هذا في الوقت الذي حافظ الملك لويس التاسع على ثباته وأخذ يعيد تنظيم صفوف جيشهِ بسرعة، على الرغم من انتشار الحمى بين رجاله[٢].

٨_ السلطان المعظم تورانشاه (٦٤٧_٦٤٨هـ / ١٢٤٩_١٢٥٠م):

ففي (أواخر ذي القعدة سنة ٦٤٧هـ / شباط ١٢٥٠م)، وصل السلطان المعظم تورانشاه إلى المنصورة، بعد أن بويع سلطاناً في دمشق وهو في طريقه إلى القاهرة، وقد أدى وصول السلطان الجديد إلى ارتفاع الروح المعنوية عند المسلمين[٣]، فأُعلِنت وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب أيوب وسلمتهُ شجرة الدر مقاليد الأمور، وبدأ السلطان الجديد بإدارة المعركة ووضع الخطط، وأمر بقطع طريق الإمداد على الصليبيين، ونقل عدة سفن منفصلة على ظهور الجمال وأنزلها في النيل وراء خطوط الفرنج، وبذلك تمكنت السفن الإسلامية من السيطرة على الكثير من السفن الصليبية المحملة بالمؤون والأقوات وأسر من فيها، ونتج عن ذلك حلول مجاعة كبيرة عند الصليبيين وتفشي العديد من الأمراض والأوبئة، الأمر الذي دفع الملك لويس التاسع لطلب الهدنة وتسليم دمياط مقابل أن يأخذ بيت المقدس، لكن الأيوبيين رفضوا ذلك لمعرفتهم بسوء حالة الصليبيين في مصر[٤].

بدأ الصليبيون بالهرب في (محرم سنة ٦٤٨هـ / نيسان ١٢٥٠م)، ولم يترك المسلمون الصليبيون يهربون بسهولة وإنما تعقبوهم وأنزلوا بهم خسائر كبيرة، وعند منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة، قرر المسلمون الهجوم الحاسم عند فارسكور، فوقع الجيش الصليبي بين فكي كماشة وكان مصيرهم إما القتل أو الأسر، ومن بين الأسرى الملك لويس التاسع نفسه وسيق إلى المنصورة وسجن في دار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان[٥].

١- المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٥_٦١٧؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٣.

٢- عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٨٤٦.

٣- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٣.

٤- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٨٩.

٥- المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦١٨_٦١٩؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٩١؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٥_١٣٦.

هكذا وصلت الحملة الصليبية السابعة إلى نهايتها بفضل المماليك القوة الجديدة، وبدأت المفاوضات وكان مطلب السلطان المعظم تورانشاه الحصول على ممتلكات الصليبيين في بلاد الشام لأنه كان على يقين بأن استرداد دمياط صار أمراً مفروغاً منهُ، فأجاب الملك لويس التاسع بأن لا سلطان له على الصليبيين بالشام، فطلب مبلغ ضخم من المال لفداء الجيش الفرنجي على أن يكون الجلاء عن دمياط ثمناً لإطلاق الملك لويس التاسع[١].

إن انتصار المماليك على الصليبيين في المنصورة ثم في فارسكور أدى إلى ازدياد قوة شوكتهم، واعتزازهم بأنفسهم، لاعتقادهم بأنهم أصحاب الفضل في إنقاذ البلاد من الصليبيين[٢]، أما المعظم تورانشاه فعمل على إبعاد أقربائه بتقريب غلمانه الذين وصلوا معهُ من المشرق وعزل أمراء والدِهِ وأساء إلى المماليك وبدأ يحاول التخلص منهم[٣]، بل أن السلطان المعظم تورانشاه لم يحفظ الجميل لزوجة أبيه شجر الدر التي صانت له ملكهُ بعد وفاة أبيه، فأرسل لها يهددها ويطالبها بأموال وجواهر أبيه، فخافت من غدره وكتبت إلى المماليك البحرية تشكو لهم من تصرفاته[٤].

لم يكن المماليك البحرية بحاجة إلى مزيد من التحريض ضد السلطان تورانشاه، إن الفارس أقطاي الذي أرسلتهُ شجر الدر لاستدعاء الملك تورانشاه من حصن كيفا، قد وعده بمنحه ولاية الإسكندرية، لكنه تنكر لوعده كما أنه احتجب عن رؤية المماليك، وأخيراً أدرك المماليك البحرية سوء ما يضمر لهم السلطان المعظم تورانشاه عندما رأوه سكران ذات ليلة يجمع الشموع بين يديه، ويضرب رؤوسها بالسيف واحدة بعد أخرى وهو يردد هكذا أفعل بالبحرية ويسمي أسماء زعمائهم، فقرروا التخلص منه وقتله[٥]، وكان من أبرز الأمراء المماليك الذين شاركوا في قتله فارس الدين أقطاي، وبيبرس البندقداري، في صباح يوم الاثنين الموافق(٢٧ محرم سنة ٦٤٨هـ / أيار ١٢٥٠م)، بعد أن انتهى السلطان المعظم تورانشاه من طعام إفطاره في خيمته بفارسكور، تقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيف فقطع له أصابعهُ، فهرب السلطان تورانشاه إلى البرج

١– قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٤٧؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٣٦.

٢– ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٨، ص٢٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٨٠.

٣– ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨؛ العريني: المماليك، ص٤٦؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٨٠.

٤– ابن أيبك: الدر المطلوب في أخبار بني أيوب، ج٨، ص٣٨٢؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٢٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٤٨؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٩٢_٩٣؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٨١.

٥– المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٢٠؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٤٨؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٩٢؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٨١.

الخشبي الذي أقامه على النيل واحتمى بالبرج، فأشعل المماليك النار بالبرج فاضطر أن يرمي نفسهُ في النيل، فلاحقوه بالنشاب حتى غرق، فمات جريحاً حريقاً غريقاً... وبمقتل السلطان المعظم تورانشاه سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م)، انتهت دولة بني أيوب بعد أن حكموا نحو ٨١ سنة[١].

١- ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص٣٨؛ المقريزي: الخطط المقريزية، ج١، ص٦٢٠_٦٢١؛ أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص٦٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٣٠٥؛ قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، ص٥٤٨_٥٤٩؛ العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٩٣؛ عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٨٢.

الفصل الثاني
أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية الأيوبية

أولاً_ أهم الأنظمة الدفاعية في العمارة العسكرية الإسلامية:

١_ القلعة.

٢_ الحصن.

٣_ الأسوار.

٤_ الأبراج.

٥_ مرامي السهام.

٦_ الخندق.

٧_ السقاطات.

٨_ الشرافات.

ثانياً_ الأنظمة الدفاعية للعمارة العسكرية الأيوبية في بلاد الشام:

قلعة دمشق:

أولاً_ لمحة تاريخية.

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

١_ الموقع.

٢_ الأبراج.

٣_ الأسوار.

٤_ الخندق.

٥_ مرامي السهام.

٦_ السقاطات والرواشن.

٧_ الشرافات.

٨_ مواد البناء.

قلعة بصرى:

أولاً_ لمحة تاريخية.

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

١_ الموقع.

٢_ الأبراج.

٣_ الأسوار.

٤_ الخندق.

٥_ مرامي السهام.

٦_ السقاطات والرواشن.

٧_ الشرافات.

٨_ مواد البناء.

قلعة حمص:

أولاً_ لمحة تاريخية.

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

١_ الموقع.

٢_ الأبراج.

٣_ الأسوار.

٤_ الخندق.

٥_ مرامي السهام.

٦_ السقاطات والرواشن.

٧_ الشرافات.

٨_ مواد البناء.

العمارة هي المرآة التي تعكس حالة المجتمع اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً وفكرياً وسياسياً، وقد نشأت العمارة العربية الإسلامية مع اللحظات الأولى لنشأة الإسلام وظهوره وانتشاره، حيث صبغت العمارة العربية بالصبغة الإسلامية المعروفة ببساطتها المعمارية الأولى.

استفاد العرب المسلمون من الأنماط التقليدية المعمارية التي كانت سائدة في البلاد التي فتحوها في إشادة المباني والمنشآت، وذلك في الفترة الأولى، ثم ما لبثت أن تبلورت مدرسة فنية متكاملة تحمل هوية متجانسة ضمن البلاد الإسلامية قاطبة، وصار من الصعب معرفة الأصول المقتبسة منها فتميزت عن غيرها من المدارس الفنية.

لقد كان العامل الديني من أهم العوامل التي أعطت للعمارة العربية الإسلامية طابعها الخاص، فبدأت اشادة الجوامع والمساجد وفق نظام وتخطيط وطابع خاص يلبيان الحاجة الوظيفية وتأدية الصلاة، كما أثرت البيئة الجغرافية على البنية المعمارية، فتشابه النسيج المعماري في تخطيط المدن، وذلك بالتأكيد على انغلاق المباني من الخارج وانفتاحها على الداخل حول باحة مكشوفة حيث الهواء الطلق والماء والباحة السماوية والنباتات[١].

لقد تميزت العمارة الإسلامية بغنى مفرداتها المعمارية، واهتمامها بالنواحي الحياتية جميعها، فظهرت المباني الدينية مساجد ومدارس وتكايا[٢] وزوايا[٣]...، وأبنية مدنية كالدور والقصور، وأبنية عامة كالبيمارستانات (المشافي) والخانات (محطات استراحة للمسافرين)، والحمامات والأسواق، كما ظهر الاهتمام بالحدائق والسبل على صعيد تخطيط المدن، إضافة للعمارة العسكرية، فقد بنيت القلاع والتحصينات والأربطة، وهي عبارة عن أنظمة دفاعية تقام لحماية البلاد[٤].

أما العامل السياسي فكان له التأثير الأكبر على طراز العمارة العربية الإسلامية وتطورها، ومما لا شك فيه أن الاستقرار ووجود السلام والأمن كانا يساعدان على توجيه النشاط الفني نحو الإنتاج المدني الخاص بالحياة العادية وعلى العكس من ذلك فان قيام الحروب أو وجود أخطار تهدد أمن الناس والبلاد كان يتطلب الاستعداد لمواجهة الحرب ومن ثم كان النشاط الفني وخاصة

١- أكبر (جميل عبد القادر): عمارة الأرض في الإسلام، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٩٩٥م، ص٢٠.

٢- تكايا: تكية، دار تعبد وتصوف انتشرت بكثرة في العصر العثماني وهي مسكن الدراويش. خربوطلي (شكران)، مصطفى (فوزي)، علي (عبد الكريم): الحضارة العربية الاسلامية آثار وفنون، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٨م، ص٣٨٨.

٣- زوايا: زاوية، ركن، جزء من مبنى مخصص للصلاة، وفي شمال إفريقيا يطلق على دور التصوف، واستعملت أيضاً للدلالة على المساجد الصغيرة في مصر. خربوطلي، مصطفى، علي: الحضارة العربية الاسلامية آثار وفنون، ص٣٩٢.

٤- أكبر: عمارة الأرض في الإسلام، ص٢١.

المعماري يتجه نحو بناء الحصون وتعزيز الاستحكامات مما ينتج عنه قلة الإنتاج في النواحي المدنية الأخرى[1].

ترتبط العمارة العسكرية الإسلامية بالتاريخ السياسي ارتباطاً وثيقاً، فقد مرت البلاد بالكثير من الطامعين، فقد عرفت البلاد منذ أقدم العصور القلاع والتحصينات الدفاعية، ولكن فترة الازدهار والقوة التي مرت على الأمة العربية الإسلامية في عهد الأمويين وبداية العباسيين لم تتطلب أي نوع من التحصينات الدفاعية الا عند الثغور[2]، لحماية البلاد من غارات الروم المتوقعة على تلك الثغور والمدن، فاستغلوا الحصون البيزنطية القديمة، ورمموا ما تهدم منها، وبنوا ما كانوا في حاجة لبنائه لتدعيم الدفاع عن حدود البلاد[3]، كما أن الاهتمام بالأنظمة الدفاعية كان واضحاً في الرؤية التخطيطية التي اتبعها الحجاج بن يوسف الثقفي[4] (٤٠_٩٥هـ / ٦٦٠_٧١٤م) عند بنائهِ مدينة واسط[5] (٧٥_٧٨هـ / ٦٩٤_٦٩٧م) فاهتم بإنشاء الأسوار والخندق حولها، لتكون مركزاً إدارياً تمكنهُ من فرض السلطة الأموية على بلاد الرافدين[6]، ومن الأنظمة الدفاعية الأموية قصر الحرانة شرقي نهر الأردن الذي يعود الى عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك[7] (٩٤_٩٧هـ / ٧١٢_٧١٥م) وقد أُنشئ هذا القصر بهدف حربي، فهو قلعة مربعة الجوانب يشتمل كل ركن من أركانه على برج مستدير، بالإضافة الى برج نصف دائري في وسط كل جدار فضلاً عن فتحات مخصصة لرمي السهام، وعلى جانب المدخل برجان على هيئة ربع دائرة يؤدي الى ممر

١- مرسي (ايناس يحيى أحمد): فن العمارة العربية وأشهر معالمها، مر: أمينة الصباح، الكويت، دار الصباح للنشر، ط١، ٢٠٠١م، ص٣٦٠.

٢- الحمصي (أحمد فائز): روائع من العمارة العربية الإسلامية في سورية، قدمهُ: محمد الخطيب، راجعهُ: حسن كامل، دمشق، منشورات وزارة الأوقاف السورية، ١٩٨٢م، ص١٣١؛ الخضر (عبد المعطي): تاريخ العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، حلب، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٠م، ص١٠٢.

٣- عثمان (محمد عبد الستار): المدينة الإسلامية، القاهرة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، ١٩٨٨م، ص١٣٣.

٤- الحجاج بن يوسف الثقفي: (٤٠_٩٥هـ / ٦٦٠_٧١٤م)، قائد، داهية، خطيب، ولدَ ونشأ بالطائف بالحجاز، ولاه الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٢٥_٨٦هـ / ٦٤٦_٧٠٥م) مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليه العراق، بنى مدينة واسط ومات فيها. الزركلي (خير الدين): الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ٨ أجزاء، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م، ج٢، ص١٦٨.

٥- واسط: سبب تسميتها لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة، شرع الحجاج بن يوسف الثقفي في عمارتها سنة (٨٤هـ / ٧٠٣م)، وانتهى منها سنة (٨٦هـ / ٧٠٥م)، فكانت عمارتها في عاميين، مات فيها عبد الملك بن مروان. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣٤٧.

٦- عثمان: المدينة الإسلامية، ص٦٧_٦٨.

٧- الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٥٤_٩٩هـ / ٦٧٤_٧١٧م)، ولدَ في خلافة معاوية بن أبي سفيان حوالي سنة (٥٤٠هـ / ٦٧٤م)، في المدينة المنورة، شهد عهد الوليد أعظم حركات الفتوحات الإسلامية غي ظل الخلافة الأموية، ونجح الوليد في مدة خلافته التي لم تتجاوز العشر سنوات من أن يقيم دولة عظيمة. المغلوث (سامي): أطلس تاريخ الدولة الأموية، الرياض، مكتبة العبيكات، ط١، ٢٠١١م، ص١٥٣.

على جانبيه حجرات تصل الى صحن سماوي، كذلك نجد تلك العناصر الحربية في قصر الحير الشرقي[1] وقصر الحير الغربي[2]، الأمر نفسهُ نشاهدهُ أيام العباسيين عندما قاموا بإنشاء مدينة بغداد وسامراء[3] وفق مخطط منتظم أحاط المدينة بسور لحمايتها، ومن المدن التي تعكس ذلك المهدية والقاهرة وفاس ومراكش[4] والرباط وغيرها من المدن التي أنشئت للعامة وضمت في الوقت الوقت ذاتهِ مقراً للسلطة وجب تأمينهُ، بقلعة محاطة بأسوار منيعة[5]، حتى ظهر الخطر مع بداية الحملات الصليبية على بلاد الشام وتطلب ذلك قيام العديد من القلاع والتحصينات التي كانت تنشأ في الأماكن الاستراتيجية التي تتحكم بالطرق أو المراكز الهامة[6].

أولاً_ أهم الأنظمة الدفاعية في العمارة العسكرية الإسلامية:

برزت الحاجة إلى تحصين المدن منذ عهد قديم، عندما نشأت المدن وزاد عمرانها وثراؤها، وبدأت تتعرض لهجمات الأعداء، الذين يطمعون في السيطرة عليها أو نهب ثرواتها، مما أدى إلى بناء الأسوار حول المدن، ولنشر الأمن والأمان بنيت الأبراج على السور وشيدت القلعة في أعلى مكان من المدينة[7]، عدَّ الإسلام بناء الأسوار والأبراج والقلاع والحصون من الوسائل التي تساعد على حفظ النفس والمال والعرض وهي من مقاصد الإسلام، ومن هنا صنفها الفقهاء تصنيفاً يضعها في عداد البناء الواجب، ولا سيما اذا كانت الحاجة ملحة لاستخدامها في الدفاع عن حرمات المسلمين[8].

١- قصر الحير الشرقي: يقع إلى الشمال الشرقي من تدمر على بعد ١٠٠كم، وهو من بناء الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (٧١_١٢٥هـ / ٦٩١_٧٤٣م)، وكان هذا من عمل أهل حمص على يد سليمان بن عبيد سنة (١١٠هـ / ٧٢٩م). صارم (وفاء)، حسن (غادة): الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، جامعة تشرين، منشورات جامعة تشرين، ٢٠١٦م، ص٨٣.

٢- الجهني (محمد): إطلالة على العمارة الحربية في شرق العالم الإسلامي، القاهرة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، ٢٠٠٧م، ص١١.

قصر الحير الغربي: شيد هذا القصر في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك فوق بقعة خصبة في بادية الشام على الطريق بين دمشق وتدمر، وإلى الشرق من قرية القريتين. صارم، حسن: الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، ص٨٠.

٣- سامراء: سُميت سر من رأى، وهي بالعراق بناها الخليفة العباسي المعتصم بالله (١٧٩_٢٢٧هـ / ٧٩٤_٨٤٢م)، وذكر أنها كانت مدينة سام بن نوح، وهي المدينة الثانية من بناء الخلافة العباسية، كانت في متقدم الزمان صحراء وبها دير للنصارى بالموضع الذي صار دار الحاكم. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٠٠.

٤- مراكش: شمال أغمات بالمغرب العربي بناها يوسف بن تاشفين سنة (٤٥٩هـ / ١٠٦٧م)، حولها فقط جبل الجيلز ثم ملكها عبد المؤمن بن علي الموحدي، وهي أكبر مدن المغرب الأقصى. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٤٠.

٥- عثمان: المدينة الإسلامية، ص٦٨_٦٩.

٦- الخضر: تاريخ العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، ص١٠٢.

٧- عثمان: المدينة الإسلامية، ص٦٩.

٨- عثمان: المدينة الإسلامية، ص١٢١.

أكثر المسلمون من تشييد العمائر ذات الصفة الحربية في كافة البلدان التي دخلوها، وكان ذلك لنشر الأمن والأمان وللحفاظ على الحضارة من أي خطر خارجي، فشيدوا الأربطة وهي أبنية مستطيلة ذات أبراج للمراقبة قاعاتها بلا نوافذ يقيم بها المجاهدون المكلفون بالدفاع، كما شيدوا القلاع والمدن المحصنة بالأسوار، وإلى جانب تأمين المدينة فقد كان للقلاع دورها في توفير الحماية لطرق المواصلات، وكذلك لتكون مركزاً لإدارة الأقاليم وإحكام السيطرة عليها وجمع الضرائب من سكانها[١]، ومهما تعددت الأسباب عند المسلمين لبناء القلاع، فإن لكل إقليم أسبابهُ الخاصة لبناء قلاعهِ، كما كان لكل قلعة ظروفها المحيطة بها[٢].

١ _ القلعة:

القلعة في اللغة هي: صخورٌ عظامٌ مُتقَلّعةٌ، واحدته قلّاعةٌ، والحجارة الضخمة هي القَلعٌ، والقلاعةُ: صخرة عظيمة وسط فضاء سهل[٣].

القلعة اصطلاحاً هي: الحصن الممتنع في الجبل، كما أنها الحصن المشرف صعب المرتقى، وجمعها قلاعٌ، وتدل القلعة على المكان المحصن الذي يعطي صاحبه القدرة على الدفاع عنه إما بحكم العوامل الطبيعية، أو بما تصنعه يد الانسان، وأنها مسكن الشجعان من النبلاء يتم اختياره على أرض ملائمة، فالقلعة بهذه المعاني ترمز إلى القوة في الابداع عند العقل البشري للسيطرة على الأرض[٤].

٢ _ الحصن:

الحصن لغةً: حَصُن المكان يَحْصُنُ حصانةٌ، فهو حصين: منيع، وأحصنهُ صاحبهُ وحصنهُ، والجمع حصون، وهو من الحصانة[٥].

الحصن اصطلاحاً: الموضع الحصين الذي لا يوصل إلى جوفه، وهو نوعان واحد يشكل بناء منفصلاً بذاته يبني على السواحل أو طرق القوافل أو المراكز العسكرية الحساسة المشرفة على حدود البلدان وثغورها، وآخر تابع لبناء داخل سور[٦]، فهو البناء الذي لا يصل إلى داخله من الأعداء إلا بقتال وهو على نوعين منفصل كالموجود في الساحل وطرق القوافل التجارية والمواقع الاستراتيجية المشرفة على حدود الدولة، والآخر بناء متصل بسور القلعة مثل البرج،

١- العطار (نادر): "فن العمارة الإسلامية"، مجلة الحوليات الأثرية، ١٩٥٣م، المجلد٣، ج١، ص٧٤؛ الجهني: إطلالة على العمارة الحربية في شرق العالم الإسلامي، ص٧.

٢- المومني: القلاع الإسلامية في الأردن، ص٨٣.

٣- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري، ت ٧١١هـ / ١٣١٢م): لسان العرب، ١٥ جزء، بيروت، دار صادر، ط٣، ٢٠١٠م، ج١٢، ص١٧٧.

٤- المومني: القلاع الإسلامية في الأردن، ص٦٩.

٥- ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص١٧٧.

٦- غالب (عبد الرحيم): موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، المطبعة العربية، ط١، ١٩٨٨م، ص١٣٣.

ومهمة الحصن مخزن سلاح في الأسفل وفي طابقه الأعلى يوجد فيه مزاغل وسقاطات لرمي السهام والمواد الحارقة وللمراقبة[١].

٣_ الأسوار:

السور: حائط عظيم يحيط بالمدينة أو القلعة ولا يكتفي بتعريض الجدار فارتفاعه وطوله وثقله، تستوجب الارتفاع بأساساته فوق الأرض أحياناً فتأتي وكأنها جدار عريض يرتفع فوقه جدار السور وتتوزع عليه الدعائم[٢]، وهو جدار عال ضخم يحيط بالبناء لحمايته ويضم السور أبراج نصف دائرية أو ثلاثة أرباع دائرية ذات أحجار مصقولة كما في عهد صلاح الدين الأيوبي وأبراج مربعة ذات أحجار مسننة كما بنيت في عهد الملك العادل وابنه الكامل محمد[٣].

البدنة: تعبير قديم يطلق على قطعة من السور بين برجين[٤].

٤_ الأبراج:

_برج _أبراج _بروج: أصبح السور خطاً دفاعياً هجومياً متكاملاً، وحتى يستطيع هذا الخط الدفاعي الهجومي أن يحقق مهمتهُ بكفاءة، كان لابد من تزويدهُ بما يحتاج إليهِ من عتاد، وتقوية بعض نقاطهِ على مسافات مختلفة بأبراج[٥]، فالبرج بناء مرتفع ينتمي إلى المصطلح المعماري العسكري، يشكل عنصراً دفاعياً ملحقاً بسور المدينة أو القلعة أو قصر أو أية عمارة عظيمة ويبنى عادة في أعلى مراكز البناء ويبرز عنه، ويأخذ شكلاً اسطوانياً أو نصف دائري أو مضلعاً كما بناه الموحدون أو هرمياً، كما أن الغاية من بناء لبرج لم تكن حربية دائماً، فقد يبنى لدعم البناء الذي يقام فيه وخصوصاً في المساجد والأبنية غير العسكرية[٦]، كما يقصد بالبرج بالمصطلح الأثري المعماري بناء مرتفع في سور المدينة أو القلعة أو الحصن، وقد يبنى البرج في المدن الساحلية على الشاطئ للدفاع عن المدينة المتاخمة له، ويكون في هذه الحالة أشبه بقلعة صغيرة تشكل خط الدفاع المتقدم عن المدينة، ومن هنا شكل البرج عنصراً دفاعياً هاماً في أسوار المدن والقلاع والحصون والخانات، ويحتوي البرج على مقاذف مفتوحة في جدرانه المطلة على الخارج لتمكن من سهولة الدفاع دون التعرض لخطر سهام العدو، يضاف الى ذلك يشتمل البرج على ممرات داخلية ومخازن مؤن وأسلحة وصهاريج مياه واستخدم الأيوبيون نظام الأسوار

١- رزق (عاصم محمد): معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، دمشق، الناشر مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٠م، ص٨١.

٢- غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص٢٣٠.

٣- رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص١٥٣.

٤- الريحاوي (عبد القادر): قلعة دمشق، تقديم وضبط: خيري الذهبي، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة، ٢٠٠٨م، ص٢٨١.

٥- عثمان: المدينة الإسلامية، ص١٢٤.

٦- غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص٧٩.

والأبراج ذات الطوابق المتعددة من خلال الممرات الداخلية، فكان توزيع الأبراج على الأسوار يزيل رتابة اتساع سطوحها[١].

٥_ مرامي السهام:

مرامي السهام: وهو العنصر الدفاعي المخصص لرمي العدو بالسهام، وقد جعل على شكل نافذة ضيقة من الخارج واسعة من الداخل أو شق في جدار السور أو البرج أو القلعة[٢]، ويعود ظهور مرامي السهام إلى أيام الرومان، وقد تطورت أشكال المرامي وتصميماتها خلال العصور ووصلت الى أرقى مستوى لها في (القرنيين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)[٣].

٦_ الخندق:

الخندق: تعد الخنادق من أهم العناصر الدفاعية في أعمال التحصين وهو عنصر دفاعي متقدم، وقد عرف استعمال الخنادق منذ العصور القديمة كمانع اصطناعي، لاسيما حينما يكون المكان محروماً من الموانع الطبيعية[٤]، وعندما ألحت الحاجة للدفاع عن المدينة المنورة وتأمينها من جهة الشمال، أخذ الرسول (ص) بمشورة سليمان الفارسي في ضرورة حفر الخندق، وباشر الرسول (ص) بنفسه مع الصحابة بالعمل لحفرِه، فهو عمل معماري حربي ضخم، واستكمالاً لأعمال التحصين حصنت جدران المنازل التي قرب الخندق والتي بينها وبين العدو مسافة قصيرة، هذا الأمر يدل أن هجرة الرسول (ص) إلى المدينة المنورة أعقبها اهتمام بالشؤون الدفاعية والحربية هدف الى الدفاع عن المدينة المنورة وحمايتها من أعدائها، فكان حفر الخندق، بمثابة إقرار وسنة بإنشاء مثل هذه المنشآت التي عدت من البناء الواجب شرعاً[٥]، يحفر في ميدان القتال ليحتمي به الجنود، وأيضاً حول أسوار المدن والقلاع والمعسكرات الحربية لحمايتها واعاقة المهاجمين لها، وقد يكون فارغاً من الماء أو مملوءاً به[٦].

٧_ السقاطات:

السقاطة: السقاطات: هي عنصر دفاعي فوق الأبواب والأبراج[٧]، هي عبارة عن بناء بارز عن سمت السور من أعلى، في أرضيتهِ فتحات يمكن من خلالها إسقاط الزيت المغلي والحمم

١- رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص٣٤.

٢- عبد الباقي (محمد): "مصطلحات صنعت تاريخ مصر"، مجلة الآثار المصرية، ٢٠١٥م، العدد١، ص٥٠.

٣- الريحاوي: قلعة دمشق، ص٣٦٢.

٤- الريحاوي: قلعة دمشق، ص٣٧٣.

٥- عثمان: المدينة الإسلامية، ص٥٢_٥٣.

٦- رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص١٠١.

٧- الخضر: تاريخ العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، ص٢٣٥.

والضرب بالسهام لمن يتجرأ من الالتصاق بالسور[1]. فهي عبارة عن شرفة بارزة مسقوفة، فوق بوابة قلعة أو حصن لإلقاء الأحجار والسهام والمواد الحارقة كالزيت المغلي نحو المهاجمين[2].

٨_ الشرافات:

الشرفة: جمعها شرفات وهي عبارة عن حليات محجرة توضع فوق جدران المنشآت بغرض الزخرفة من جهة، ومن جهة أخرى هي من مكونات العمارة الدفاعية في الأسوار والأبراج والأبواب، وكانت تنشأ ليستتر خلفها المحاربون ورماة السهام اتقاءً من هجمات الأعداء وأسلحتهم، ولكنها أدخلت على عمارة المساجد كشكل من أشكال الزينة، استخدمت للدلالة على ما يوضع أعالي القصور وأسوار المدن، وتصنع من الحجارة أو الآّجر، وكانت تستخدم لصب المواد الحارقة وقد انتقلت الشرفات المسننة من مصر الى بلاد الشام في العصر الأيوبي ومنها عبر الصليبيين إلى العمارة الحربية الأوربية في العصور الوسطى[3].

ثانياً_ الأنظمة الدفاعية للعمارة العسكرية الأيوبية في بلاد الشام:

نشأت الدولة الأيوبية نتيجة ثمرة مشروع الجبهة الإسلامية المتحدة، وقد قدر للدولة الأيوبية أن تعاصر أشد مراحل الحروب الفرنجية الصليبية ضراوة وعنفاً، لذلك كان من الطبيعي أن يزداد الاهتمام في الجيش والأنظمة الدفاعية المعمارية أيام تلك الدولة.

انتشرت القلاع والحصون في بلاد الشام بالعصور الوسطى خاصة في الفترة التي كان الصليبيون فيها في بلاد الشام، ولاسيما أنهم ملكوا القلاع والحصون أيضاً. فتكاد لا تخلو مدينة هامة أو نقطة استراتيجية منها، ويدل انتشار القلاع الواسع على اضطراب حبل الأمن في بلاد الشام خلال فترة الحروب الصليبية، فسعى كل فريق إلى إقامة القلاع والحصون والتحصن فيها ضد عدوهِ خوفاً منهُ، وقد لعبت هذه دوراً كبيراً في الدفاع عن المدن والمناطق التي أقيمت فيها، وكان للطبيعة الجغرافية دوراً في اختيار مواضع القلاع بالإضافة إلى أهمية الموقع المختار والمدينة التي تضم القلعة[4]، ولا بد لنا أن نشير إلى أن كل مدينة في تلك الفترة تتكون من مدينة ومن قلعتها، وأنهُ في كثير من الأحيان تستسلم المدينة في حال الهجوم وتمتنع القلعة عليهم لقدرتها في الدفاع عن نفسها، ولا تعد المدينة سقطت إلا بسقوط قلعتها[5]، فقد شهدت البلاد في

١- عثمان: المدينة الإسلامية، ص١٢٥.

٢- رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص١٦٠؛ الريحاوي: قلعة دمشق، ص٣٦٧؛ عبد الباقي: "مصطلحات صنعت تاريخ مصر"، ص٥٠.

٣- رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص١٦١؛ عبد الباقي: "مصطلحات صنعت تاريخ مصر"، ص٥٠.

٤- شعث (شوقي): قلعة حلب، حلب، دار القلم العربي، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٤-٥٥.

٥- العبادي: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص١٠٠.

العصر الأيوبي حركة عمرانية لامثيل لها، ويرجع السبب في ذلك إلى ترسيخ الوحدة التي تحققت منذ أيام نور الدين محمود والى الازدهار الاقتصادي واستتباب الأمن في المناطق التي يسيطر عليها الأيوبيين[١]، لقد أعد السلطان صلاح الدين الأيوبي مشروعاً لتحصين القاهرة، فالقلعة المرتفعة التي هي في جوهرها من عهد السلطان صلاح الدين، كانت النية تتجه إلى ادماجها في سور المدينة وخلق نظام كامل من الحصون ذي أبراج نصف دائرية بدلاً من الأبراج المربعة التي ترجع إلى العهد الفاطمي[٢]، وقد أدخل السلطان صلاح الدين تطوراً كبيراً في الأنظمة الدفاعية المعمارية، منها استخدام المداخل المنكسرة[٣]، حيث تطور بناء القلاع وتوسع في (القرنيين السادس والسابع الهجريين / القرنيين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين) ليصبح أشبه بمدينة متكاملة وذلك من خلال وجود كافة الفعاليات والمرافق الضرورية واللازمة للمدن، وقد قام العرب المسلمون وخاصة الأيوبيين بتطوير الوسائل الدفاعية في القلاع وكان من أهمها السقاطات الخاصة لرمي السوائل المحرقة على الغزاة في حال اقترابهم من القلعة وأسوارها كما جعلوا المداخل منكسرة بزاوية قائمة "الباشورة" لتأمين القوة والمناعة، وكان من بين اهتماماتهم صقل الأوجه الخارجية للجدران "لحجارة الجدران" لتصبح ناعمة مما يمنع العدو من الصاق سلالمهِ وأدوات التسلق بالجدران كي يتمكن من النيل من قلاعهم، كما أنه لم يتبق من القلاع الإفرنجية التي سيطر عليها العرب المسلمون بوجه عام سوى المخطط الأساسي حيث أجرى العرب المسلمون العديد من التعديلات المعمارية[٤].

وكما رأينا سابقاً في الدراسة التاريخية للأيوبيين، منذ ظهورهم الأول على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية وحتى نهاية دولتهم، تحملهم العبء الأكبر من خطر الحملات الصليبية، وحملهم راية الجهاد لطردهم من البلاد، فرض عليهم الاهتمام بالعمارة العسكرية وأنظمة الدفاع لتحصين المدن من الخطر الصليبي والمغولي الذي هدد البلاد، وإنشاء قلاع وأبراج مراقبة وحماية في المناطق المحررة كنقاط تثبيت حيث انتشرت القلاع الأيوبية على مختلف أرجاء البلاد، ومن النماذج الأيوبية في بلاد الشام المدروسة، ثلاثة نماذج للأنظمة الدفاعية للعمارة العسكرية الأيوبية في بلاد الشام وهي قلعة دمشق، قلعة بصرى، قلعة حمص.

١- الريحاوي (عبد القادر): العمارة الإسلامية، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر، ١٩٩٩م، ص١١٥.

٢- خماش (نجدة): دراسات في الآثار الإسلامية، دمشق، مطبعة رياض، ١٩٨٢م، ص١٧٠.

٣- عثمان: المدينة الإسلامية، ص١٢٩.

٤- ديوب (طالب): تاريخ العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، جامعة البعث، منشورات جامعة البعث، ٢٠٠١م، ص١٩٢.

فبالرغم من خطورة الأحداث التي عاشتها الأمة العربية والإسلامية خلال العصر الأيوبي، التي فرضت على الأيوبيين توظيف جميع طاقاتهم في الدفاع عن البلاد من الخطر الفرنجي[١]، فإن الأيوبيين لم يهملوا العمارة المدنية ولا الدينية فبنوا الجوامع والمدارس التي تدرس الفقه الإسلامي وتنوع بنائها جاء وفق المذاهب التي تدرس فيها فالمدارس التي يدرس فيها مذهب واحد كانت تحتوي على ايواناً كبيراً للتدريس ورواقين محمولين على أروقة محمولين على أعمدة ذات تيجان والمدارس التي كانت تدرس مذهبين كانت تحتوي على إيوانيين، أما المدارس التي كانت أكثر من مذهب فكانت تحتوي قاعات للتدريس، كما اهتموا بالزخارف الجصية والحفر على الخشب، واستخدموا أشرطة الكتابات في تزين واجهات المباني[٢]. فالعمارة هي المرآة التي تعكس آمال الشعوب وأمنياتها وقدراتها العلمية وذوقها الرفيع، بل وفلسفتها أيضاً.

١- عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٦٧.

٢- الخضر: تاريخ العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، ص١١٩؛ عبد الرحمن (عمار): "العمارة الإسلامية في دمشق"، مجلة جامعة دمشق، ٢٠٠٨م، عدد خاص عن دمشق عاصمة الثقافة العربية، ص٦٠.

قلعة دمشق

أولاً_ لمحة تاريخية:

لقد لعبت مدينة دمشق منذ القدم دوراً سياسياً وعسكرياً وتجارياً هاماً، بسبب موقعها الاستراتيجي فكانت من المدن الأولى المأهولة في العالم والتي استمرت حتى الآن ومركزاً لإدارة

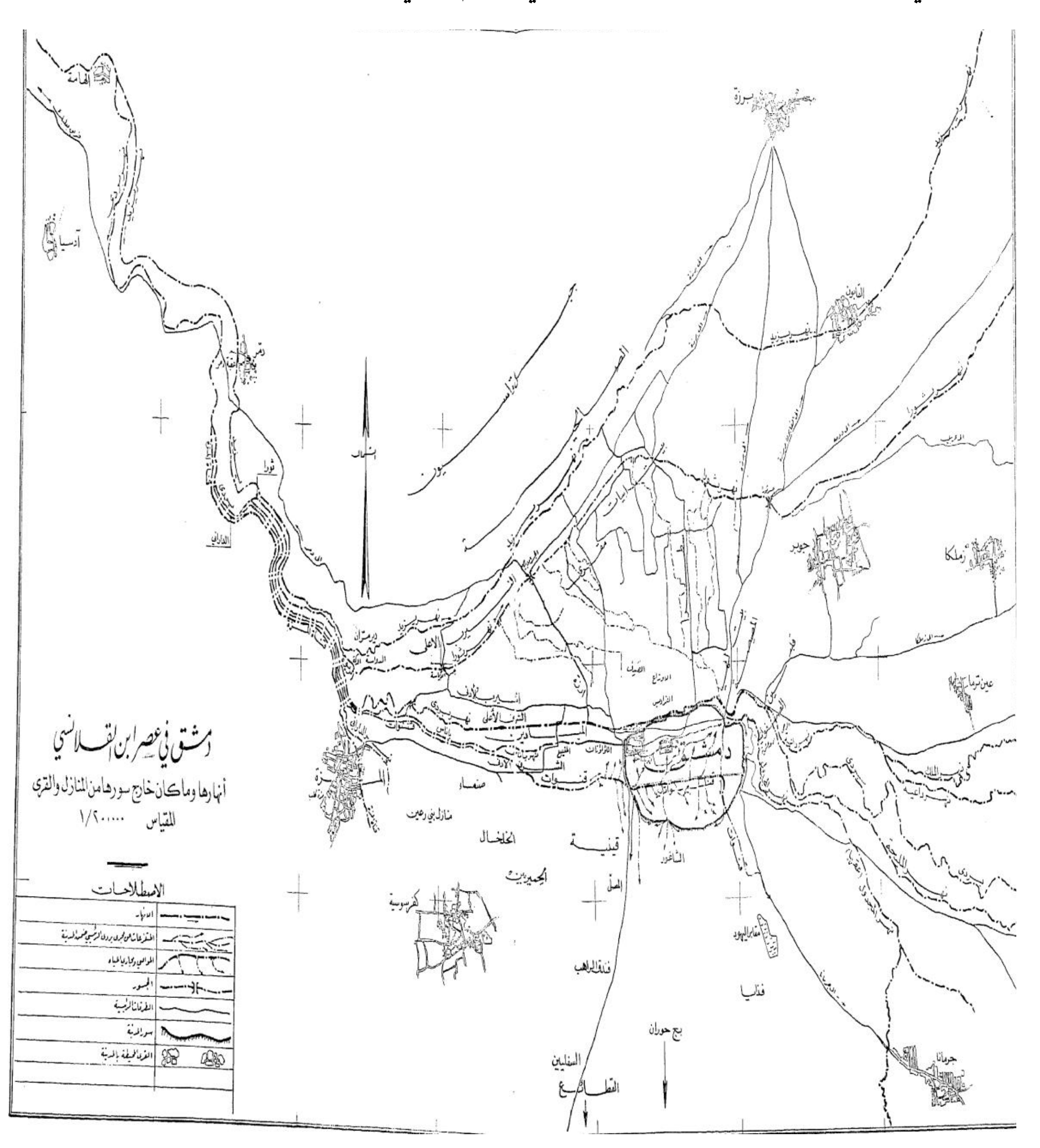

الشكل (١) موقع مدينة دمشق[1].

١- ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص٤٥٢.

المناطق المحيطة بها. الأمر الذي دفع الرومان لإقامة حصن في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة خلال (القرن الثالث الميلادي)[1]، لكننا لا نجد أي ذكر لهذا الحصن في كتب التاريخ والفتوحات أثناء دخول العرب المسلمون لمدينة دمشق سنة (١٤هـ / ٦٣٥م)[2]، ثم أصبحت المدينة عاصمة الخلافة الأموية ومن أهم المدن العباسية. (الشكل، ١)

شهدت بلاد الشام في فترة الحروب الصليبية حركة واسعة في مجال بناء الحصون وتشييد القلاع وأسوار المدن. وماتزال أثار هذه القلاع قائمة إلى يومنا هذا ومن أهمها قلعة دمشق، ولم نجد في المصادر العربية من يروي لنا خبر بناء القلعة بشكل واضح، سوى المؤرخين المتأخرين أمثال ابن شداد في (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) وابن كثير في (القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي). أما المؤرخون الأقدم عهداً ممن عاصروا القلعة السلجوقية، كابن القلانسي وابن عساكر وابن الأثير، فمنهم من أهمل موضوع بناء القلعة ولم يشر إليه بشيء، ومنهم من أشار اليه عرضاً، كما فعل ابن عساكر لدى حديثه عن أبواب دمشق "أحدثت في غربي البلد في دولة الأتراك..." والمقصود بالأتراك هنا السلاجقة، أما ابن شداد فقد ذكر ".. ولم يبق بدمشق دار إمارة إلى أن ملكها تاج الدولة تتش سنة (٤٧١هـ / ١٠٧٨م)، فبنى بها قلعة لطيفة جعلها دار إمارة وسكنها...[3]).

أدت حركة البناء هذه إلى تطور ملحوظ في فن العمارة العسكرية الإسلامية، وبلغ ذروته في مطلع (القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي)، وهي الفترة التي شيدت فيها قلعة دمشق وحين دخل السلطان صلاح الدين مدينة دمشق سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٤م) قام بتحصين القلعة وجعلها مقراً لإقامتهِ[4]، وقد توفي فيما بعد في هذه القلعة، ثم دفن بتربتهِ المعروفة في المدرسة العزيزية بدمشق[5]، حيث كانت قلعة دمشق حين تم بناؤها من قبل السلطان الأيوبي الملك العادل

١- الريحاوي: قلعة دمشق، ص٦٣؛ عبد الرحمن: "العمارة الإسلامية في دمشق" ص٦١؛ عمران (هزار): "قلعة دمشق في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ٢٠٠١م، مجلد٤٤، ص٩٣.

٢- ساطع (أكرم): القلاع والحصون في سورية، دمشق، دار طلاس، ١٩٧٥م، ص٢٦؛ عمران: "قلعة دمشق في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي"، ص٩٤.

٣- ابن طولون (محمد بن علي، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م): الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية، دمشق، مكتبة الترقي، ١٩٤٨م، ص٣؛ الريحاوي: قلعة دمشق، ص٣١_ ٣٢، ٣٤١.

٤- الحمصي: روائع من العمارة العربية الإسلامية في سورية، ص١٣٤؛ عمران (هزار)، دبورة (جورج): قلعة دمشق، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٨م، ص١٦.

٥- الحمصي: روائع من العمارة العربية الإسلامية في سورية، ص١٣٤.

أبي بكر بن أيوب سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م) مثال القوة والحصانة في عصرها[١]، ونتيجة الظروف التي أحاطت الدولة الأيوبية، فإن القلعة القديمة لم تعد تلبي الحاجات المطلوبة منها ولم تعد تتفق مع التطور الذي حدث في فن العمارة والتحصين العسكري، وبعد الزلازل الذي أصابت دمشق في عامي (٥٩٧_٥٩٨هـ / ١٢٠٠_١٢٠١م) قرر الملك العادل هدم القلعة القديمة وأشاد قلعة حديثة فوق منها وفق مخطط جديد ومعماري متطور فجاءت مختلفة عن السابقة من حيث القوة والأبراج والمساحة والضخامة[٢]، ويبدو أن خطة الملك العادل كانت منصرفةً لاستبدال سور القلعة القديمة بسور حديث مزود بأبراج أكثر قوة وحصانة، فهو لم يهدم كل القلعة القديمة، بل احتفظ ببعض المباني وشرع باستكمال القلعة الجديدة وأسهم في أعمال البناء أهل دمشق على مختلف طبقاتهم وانتماءاتهم[٣]، ويبلغ طولها ٢٤٠_٢٥٠م وعرضها ١٦٥_١٢٠م[٤]، وتقدر مساحتها بنحو ٣٢ ألف متر مربع تقريباً[٥]، بالإضافة أنها مقر للسلطان، فقد ضمت معمل للأسلحة، وبيت المال، وأسواق وحمامات ومسجد، ودار لضرب النقود، وبالقلعة آبار ومجارٍ للماء بحيث إذ وقع الحصار وقطع عنها الماء تستخدم الآبار، فهي مدينة تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها[٦]، وقد استخدمت سجناً للأسرى الصليبيين أيام الأيوبيين[٧]، وغدت القلعة مقراً للملوك للملوك والحكام الأيوبيين ومن بعدهم المماليك[٨].

١– الريحاوي: قلعة دمشق، ص٣٤١_٣٤٢.

٢– الريحاوي (عبد القادر): قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، دمشق، مطبوعات هيئة تدريب القوات المسلحة في الجيش العربي السوري، ١٩٧٩م، ص٦٥؛ الريحاوي (عبد القادر): قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ٢ جزء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٠م، ج١، ص٣١٧.

٣– الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة واثارها وفنونها المعمارية، ص٦٥_٦٦.

٤– بهنسي (عفيف): الفن الإسلامي، دمشق، دار طلاس، ط٢، ١٩٩٨م، ص٢٨٣؛ الريحاوي: قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ج١، ص٣٢١.

٥– ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص٣٣.

٦– أبو البقاء (عبد الله بن محمد، من علماء القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي): نزهة الأنام في محاسن الشام، الشام، بغداد، المكتبة العربية، ١٩٢٣م، ص٦٠_٦١؛ البني (عدنان): "قلعة دمشق"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ١٩٥٤_١٩٥٥م، المجلدان٤_٥، مجلد٤، ص٣١؛ الحمصي: روائع من العمارة العربية الإسلامية في سورية، ص١٣٤؛ بهنسي: الفن الإسلامي، ص٢٨٤.

٧– القططي (عبد الرؤوف جبر): السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، رسالة ماجستير، اشراف اشراف د رياض مصطفى شاهين، غزة، الجامعة الإسلامية، ٢٠١٢م، ص٦٢.

٨– الريحاوي (عبد القادر): العمارة في الحضارة العربية الإسلامية، جدة، دار العالمي، ط١، ١٩٩٠م، ص٢٦٩.

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

١_ الموقع:

حلت القلعة الأيوبية مكان القلعة السلجوقية، حيث تقع قلعة دمشق في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة[١] (الشكل ٢)، ولعل السبب في هذا الاختيار هو الاعتماد على أسوار المدينة القديمة في الجهتين الغربية والشمالية، ويكتفى بإحداث سورين فقط من الجهتين الشرقية والجنوبية، وقرب المنطقة من نهر بردى وفروعهِ مما يمكن استخدام الماء كعنصر دفاعي وتمويني[٢]، تمتد من باب الفرج (المناخليه) في الشمال حتى باب النصر في الغرب، أما حدود

الشكل (٢) موقع القلعة ضمن مدينة دمشق[٣].

١– عمران، دبورة: قلعة دمشق، ص٤٩.

٢– الريحاوي: قلعة دمشق، ص٣٣، ٨٦.

٣– زاك (دور وتيه): دمشق تطور وبنيان مدينة مشرقية وإسلامية، تر: قاسم طوير، مر: نزيه كواكبي _ أريانا أحمد، دمشق، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ٢٠٠٥م، ص٨٥.

القلعة الشمالية فهي لم تتغير عن القلعة السابقة، حيث تجري بالقرب من السور قناة تتفرع عن نهر بردى، وتعرف حديثاً بالنهر العقرباني، يليها نهر بردى، وعليهِ أمام القلعة جسران مازالا موجودين إلى اليوم، الجسر الشرقي يقابل باب القلعة الشمالي وكان يسمى جسر باب الحديد، أما الجسر الغربي فيطلق عليهِ اسم جسر الزرابلية، أما حدود القلعة الغربية محاط بخندق القلعة، لكنهُ ردم في أواخر العصر العثماني ويعرف الآن بسوق الخجا، وفي الجهة الشرقية للقلعة يوجد سوق العصرونية، الذي أقيم بعد ردم الخندق في أواخر العصر العثماني، أما الجهة الجنوبية فهي اليوم تعرف بسوق الحميدية[1]، وتتمركز وسط السهل المطل على نهر بردى، وقد بنيت على مستوى سطح الأرض[2]، يصف القلعة أبو البقاء: "ومن محاسن الشام قلعتها وحسن بنائها واتساعها فإنها قدر مدينة"[3]. (الشكل، ٢)

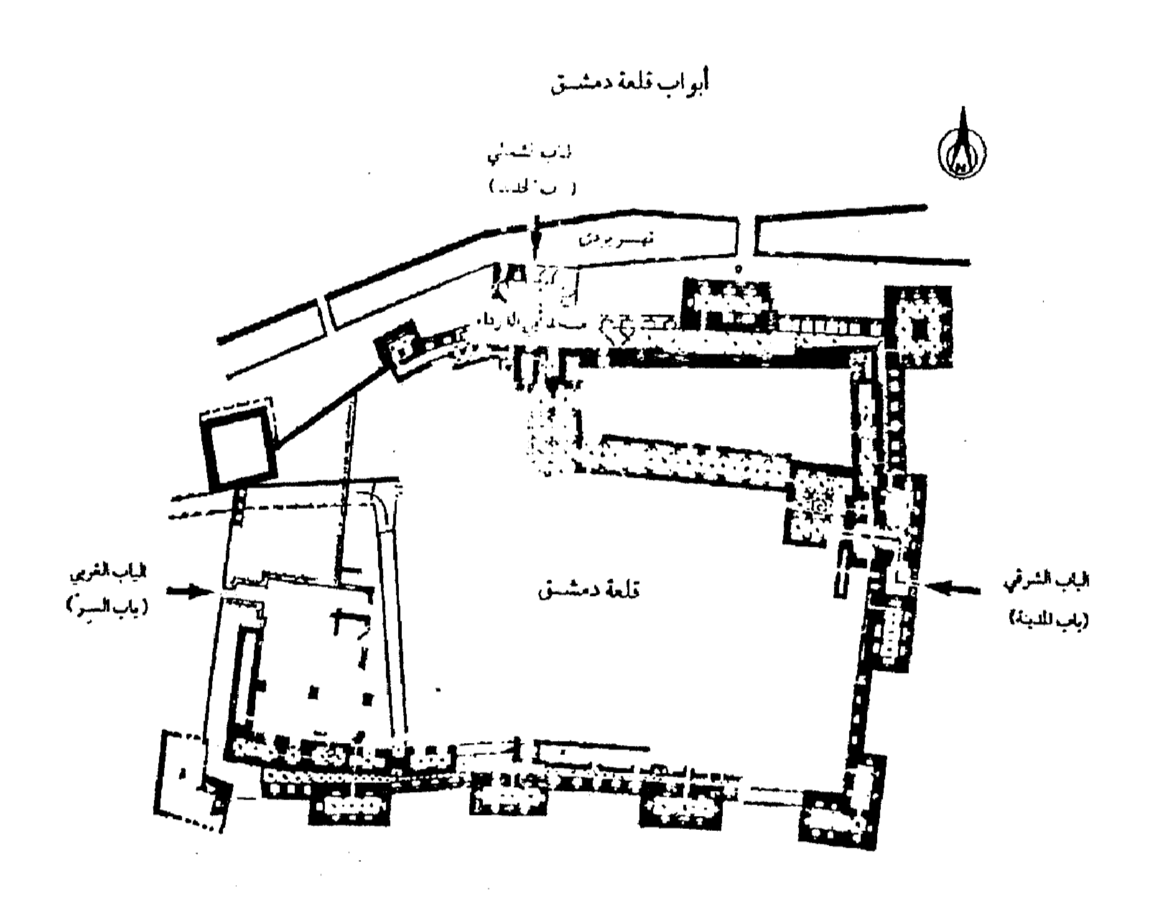

الشكل (٣) مسقط أفقي لقلعة دمشق يظهر الأبواب والأبراج[4].

١- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة واثارها وفنونها المعمارية، ص٧٤_٧٥.

٢- الريحاوي: قلعة دمشق، ص١٢٩.

٣- أبو البقاء: نزهة الأنام في محاسن الشام، ص٦٠.

٤- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة واثارها وفنونها المعمارية، ص٦٣.

أما أبواب القلعة فقد اجتمعت المصادر على وجود أربع أبواب بينها اثنان رئيسيان وثابتان إحداهما في الشمال يصل القلعة بخارج المدينة مباشرة والثاني في الشرق يفتح على المدينة وهو المدخل الرسمي، وثمة بابان آخران أطلقَ عليهما أبواب السر، وهي أبواب تؤدي إلى الخندق، بواسطة جسور معلقة[١]. (الشكل، ٣)

٢_ الأبراج:

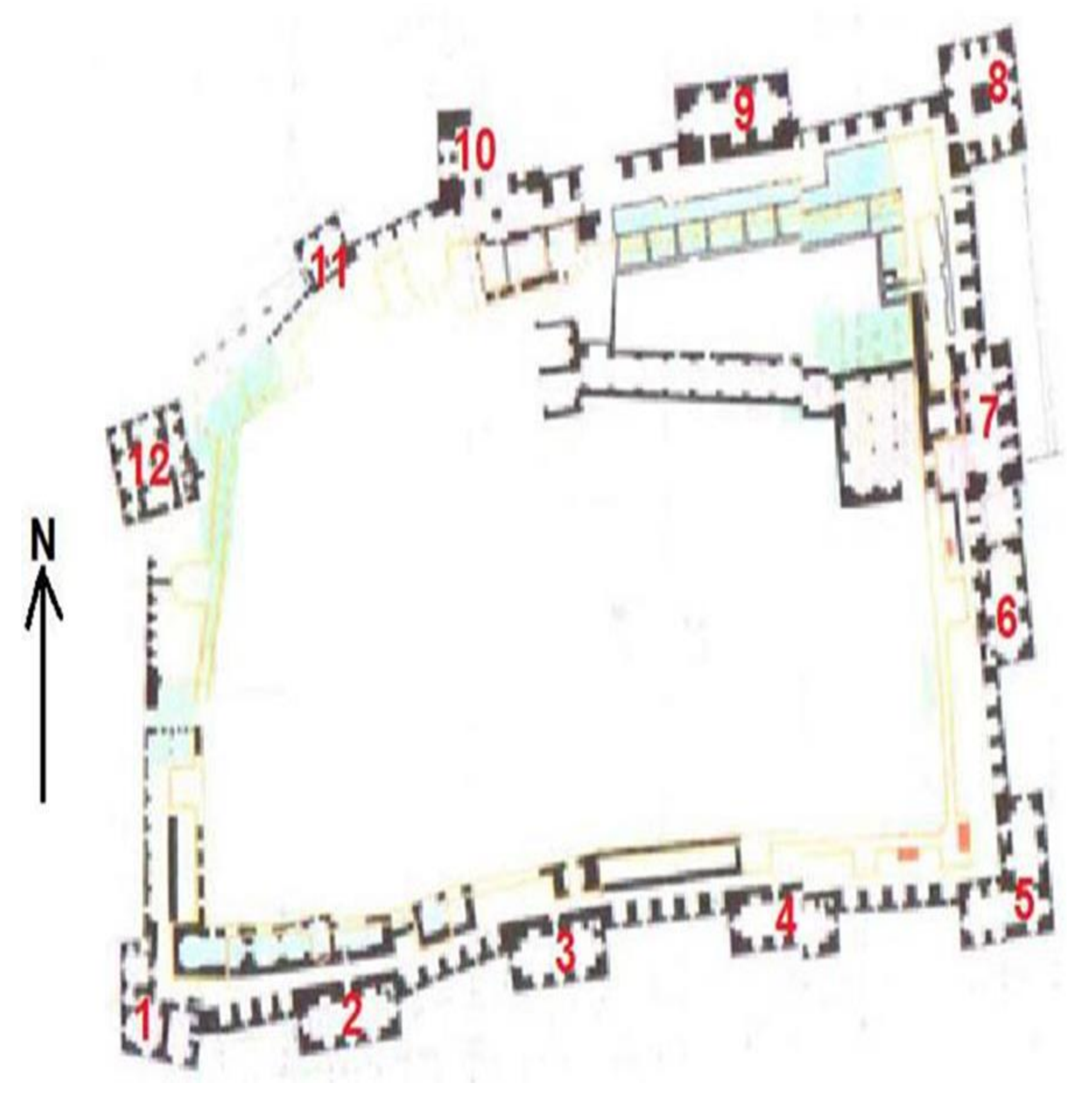

الشكل (٤) مسقط أفقي يبين أبراج قلعة دمشق[٢].

١– الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٧٦؛ الريحاوي: قلعة دمشق، ص١١٢_ ١١٣.

٢– العجي (أدمون): أعمال ترميم وتأهيل قلعة دمشق المرحلة الأولى، المديرية العامة للأثار والمتاحف، ٢٠٠٧م، ص٦.

تتألف من اثني عشر برجاً أغلبها بحالة جيدة وكاملة[1]، حيث يقع البرج الأول في الزاوية الجنوبية الغربية، أما البرج الثاني يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من السور الجنوبي، وبالنسبة للبرج الثالث والرابع في الزاوية الجنوبية، أما البرج الخامس في الزاوية الجنوبية الشرقية، والبرج السادس والسابع في الزاوية الشرقية، ويتميز بوجود مرامي للسهام لحماية بوابة القلعة، وجميعها أبراج أيوبية، بالنسبة للبرج الثامن في الزاوية الشمالية الشرقية وهو برج مملوكي، أما البرجين التاسع والعاشر في الزاوية الشمالية فالبرج التاسع مملوكي والعاشر أيوبي، أما البرج الحادي عشر والثاني عشر في الزاوية الشمالية الغربية، ويعودان للفترة المملوكية، ونلاحظ أن أشكال الأبراج كانت إما مستطيلة الشكل أو مربعة أو على شكل حرف (L) وجميعها يبرز عن السور[2] (الشكل، ٣). حيث لعبت جميع الأبراج دور دفاعي مهم خلال المراحل التاريخية التي مرت على القلعة. إذ يتألف كل برج من طابقين أو ثلاثة، يصعد اليها بدرج داخلي، وكل طابق له وظيفة يؤديها، فطابق للذخيرة وآخر للاستراحة وبعضها للدفاع والمراقبة[3]، وتميزت الأبراج بالارتفاع والضخامة حتى وصلت في بعض الأحيان عرض ٢٠ متر بارتفاع ٢٤ متر تقريباً[4]. (الشكل، ٤)

٣_ الأسوار:

بالنسبة للأسوار التي تصل بين الأبراج بدنات، والمقصود بالبدنة السور الواقع بين برجين، تبلغ سماكتها ما بين ٤–٥م وتتألف من قسمين ستائر مزودة بشرفات ذات مرمى سهام، أما بالنسبة للقسم الثاني فيتألف من أقواس معقودة ضمنها فتحات لرُماةِ السهام[5]، وهناك ممر مسقوف يحاذي الأبراج والبدنات من الداخل من جهاتها الأربع، وقد تهدم أكثرُهُ، وأهم أقسامهُ الباقية نجدها في الجهة الجنوبية والشرقية[6]، وإذا تأملنا (الشكل، ٤) نلاحظ بأن القلعة لها شكل مستطيل، ولكنهُ غير منتظم، ونلاحظ بأن الأضلاع غير مستقيمة.

١– الريحاوي (عبد القادر): العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٩م، ص١٢١؛ عمران، دبورة: قلعة دمشق، ص٥٣.

٢– الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٧٩.

٣– الخضر: تاريخ العمارة في العصور الوسطى، ص١٠٣.

٤ الريحاوي (عبد القادر): قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٢٤٩.

٥– الريحاوي: العمارة في الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٧٣_٢٧٤؛ الريحاوي: قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ج١، ص٣٢٠، ٣٢٢.

٦– الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة واثارها وفنونها المعمارية، ص٨٠.

٤ _ الخندق:

أما بالنسبة للخندق الذي يحيط بالقلعة، أكدت التنقيبات الأثرية بأن القلعة السلجوقية كانت محصنة بخندق، يحيط بالقلعة من كل جهاتها، ثم احتاج الأمر إلى توسيعه بما يتناسب مع ضخامة البنيان الجديد، وقد توسع الخندق أيام الملك العادل الأيوبي وتم ذلك على مراحل[١]، ففي سنة (٦١١هـ / ١٢١٤م) جرى توسيع الخندق من جهة الشرق فأخربت دور كثير هناك[٢]، وفي سنة (٦١٣هـ / ١٢١٦م) جرى توسيع الخندق من جهة الغرب[٣]، وقد لعب دور دفاعي مهم، ولم يكن له علاقة بسور المدينة، حيث يتراوح عرضه بين ٥ _ ٢٠ متر بعمق حوالي ٦ أمتار فقد تعرض للهدم في كافة أجزائه باستثناء الجهة الشمالية[٤]، ومن المؤكد أن خندق قلعة دمشق لم يكن خندقاً جافاً، بل كان معداً لملئه بالمياه ليزيد في حصانة القلعة[٥]. ولا يوجد اليوم أية قطعة ظاهرة من الخندق كي نحاول الاعتماد عليها. (الشكل ٥)

الشكل (٥) يبين جسر البوابة الشرقية[٦].

١- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٦٩.

٢- ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٧، ص٤١؛ عمران، دبورة: قلعة دمشق، ص٢٠.

٣- ابن طولون: الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية، ص٥؛ الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٦٩.

٤- الصواف (حسن زكي): دمشق الأسطورة والتاريخ، دمشق، دار المكتبي، ط١، ٢٠١٠م، ص٣٦.

٥- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٦٩، ٨٦؛ الريحاوي: قلعة دمشق، ص١٢٠_١٢١.

٦- تصوير الباحث.

٥_ مرامي السهام:

حيث توجد مرامي السهام في واجهات الأبراج بمعدل ثلاثة مرامي كحد أدنى ويصل في بعض الأحيان إلى أربعين، وأيضاً في كل طابق، في الواجهة وعلى الجوانب، علما أنه يختلف عدد مرامي السهام من برج إلى أخر (الشكلين، ٦–٧)، وكل برج مزود بمرامي السهام التي يسمح تصميمها برؤيا واسعة للخارج تساعد المدافع على مراقبة تحركات العدو وضربه في نقاط متعددة، ومرامي السهام متوزعة بحيث يستطيع المدافعون أن يضربوا سوية على تجمع واحد للعدو. وهناك نقطة ضعف يلاحظها المختصون بفن التحصين في قلعة دمشق، تتعلق بسوء توزيع المرامي في الأبراج[١].

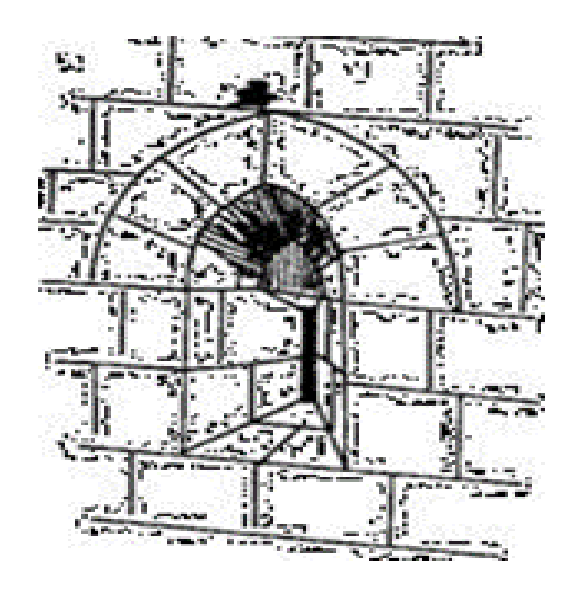

الشكل (٦) مرمى السهام[٢].

الشكل (٧) رسم توضيحي يبين مرامي السهام[٣].

٦_ السقاطات الرواشن[٤]:

تبرز كعنصر دفاعي هام في أماكن متعددة من القلعة فوق الأبواب وفي واجهة الأبراج وفي الممرات، لسكب الزيتيوت الحارقة أثناء حصار واقتحام القلعة، وهي مزودة أيضاً بمرامي سهام، وتتوزع في واجهات الأبواب والأبراج وزواياهما (الشكل ٨–٩).

١– الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٢٤٩.

٢– تصوير الباحث.

٣– سوفاجيه (جان): دمشق الشام، تر: فؤاد أفرام البستاني، تح: أكرم العلبي، دار الوارف، بيروت، ١٩٨٩م، ص٥٠.

٤– السقاطة: فهي عبارة عن شرفة بارزة فوق بوابة قلعة أو حصن لإلقاء الأحجار والسهام والمواد الحارقة كالزيت المغلي نحو المهاجمين. رزق: معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص١٤١.

الشكل(٨) السقاطة في الزاوية الجنوبية الغربية[١].

الشكل (٩) السقاطات الشمالية[٢].

٧_ الشرافات:

تنتهي الأبراج في أعلاها بستائر مزودة بشرافات مستطيلة الشكل ذات مرامي سهام صغيرة (الشكل، ١٠).

الشكل(١٠) الشرافات في أعلى الأبراج[٣].

١- تصوير الباحث.

٢- تصوير الباحث.

٣- تصوير الباحث.

٨_ مواد البناء المستخدمة:

تتنوع مواد البناء بين حجارة كلسية والتي تتوافر في ضواحي دمشق، واستخدمت معها حجارة بازلتية سوداء بشكل محدود[١]، وهناك أيضاً حجارة ملساء وحجارة محدبة الشكل، وقد بنيت سماكة الأبراج بين ٣.٩٠ و ٤.٩٠ متر، ويوجد أيضاً حجارة تزينية وزخرفية على شكل مقرنصات[٢]، أما بالنسبة للأساليب التي استخدمت لبناء القلعة، كانت متعددة، واستخدمت القواعد الاستنادية للأبراج (حتى لا تتأثر بمياه الخندق) وأيضاً تمنح البرج دفاعاً يقاوم ضربات حجارة المنجنيقات ويجعل التسلق من قبل المهاجمين صعباً. فأحجار الأبراج صممت بشكل بارز، أحجار ذات بطون بحيث تمتص صدمات القذائف الموجهة إليها[٣]، وتجدر الإشارة أيضاً أن استخدام النمط المستطيل في بناء الأبراج وجعل الضلع الطويلة هي الواجهة الرئيسية للبرج مما يمكن من فتح أكبر قدر من مرامي السهام في كل برج واستخدام النمط حرف (L) يحقق تماسك في واجهتين مما يدل على أن الهجمات كانت أكثر خطراً على هذه النقاط من الأبراج، وتتصف الحجارة المستخدمة بأنها من النوع ذات الرؤوس الماسية، وهي ذات وجه بارز مقطوع قطعاً غير منتظمة يحيط به إطار ثقيل، يتراوح البروز ما بين ١٥-٢٠ سم[٤]، وقد تم الاستعانة في بعض الأحيان بالحجارة من المباني القديمة الرومانية واستخدمت الحجارة كبيرة الحجم[٥].

لقد استعملت أسلحة مختلفة للدفاع عن القلعة، أهمها المنجنيق الذي يقذف الحجارة الكبيرة، والمكحلة أو المدفع الذي يستخدم كحل البارود ثم استعمل فيه قوارير النفط[٦].

مداخل القلعة كانت محمية من إصابات المنجنيقات أضف إلى ذلك تخصيص مصاطب للحراس والآلات الحربية في الردهة مما يدل على الاستعداد الدائم لأي خطر يهدد القلعة.

١- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٨٠.

٢- المقرنصات: هي من مميزات العمارة الإسلامية وتشبه المقرنص الواحد المحراب ولا يستعمل الا متكاثراً متزاحماً بصفوف مدروسة التوزيع والتركيب متجاورة متعالية حتى تبدو مجموعة المقرنصات وكأنها بيوت نحل. غالب: موسوعة العمارة الإسلامية، ص٣٩٧.

٣- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٨٠؛ عمران، دبورة: قلعة دمشق، ص٥٤.

٤- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٨٠.

٥- الريحاوي: قلعة دمشق تاريخ القلعة وآثارها وفنونها المعمارية، ص٨١.

٦- بهنسي (عفيف): موسوعة التراث المعماري، ٢مجلد، دمشق، دار نبيل، ٢٠٠٤م، المجلد الأول، ص٢٢٦.

إن منشآت القلعة وعناصرها الدفاعية التي أشرنا إليها سابقاً يجعل من القلعة منذ بداية إنشائها حصناً عسكرياً لعب دوراً كبيراً وهاماً في الدفاع عن المدينة خلال الغزوات وأثناء الحصار، وفي حالات السلم كانت مقراً لسلاطين الأيوبيين.

قلعة بصرى

أولاً_ لمحة تاريخية:

هي مدينة قديمة جداً أتت على ذكرها ألواح تحوتمس الثالث وأخناتون في (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)[١]، وبالنسبة لتسمية بصرى قديماً تسمى بصرى اسكي شام وبالعربية بصرى وبالفرنجية bostra[٢].

بنيت القلعة على عدة مراحل متعددة (الشكل، ١١) حيث كان التأسيس في (القرن الأول ق م) (الأنباط) حيث ذكر ذلك من قبل الأستاذ كلير مون غافو في أبحاثه عن حضارة العرب[٣]، حيث أجرت المديرية العامة للأثار والمتاحف في سورية العديد من التنقيبات وكل المعطيات الأثرية تدل على أن القلعة تعرضت للهدم في أكثر من عهد وكان ذلك بدايةً في العصر الروماني[٤]، ففي العصر الروماني غدت بصرى عاصمة وكانت مركز التقاء طرق القوافل التجارية وقوافل الحجيج ومحل إقامة الامبراطور الروماني[٥]، هدمت قلعة الأنباط وأسس المسرح الكبير وكان ذلك في سنة (١٠٦م)، بينما أسس نواة للقلعة خلال العصر الأموي (١٢٩ه / ٧٤٧م)، ثم تحولت القلعة الى حصن منيع خلال العصر العباسي، بني البرجان على جانبي المسرح وفي الجهة الغربية من القلعة خلال العصر الفاطمي وبقيت هذه التحصينات خلال العصر السلجوقي (٤٦٨ه / ١٠٧٦م)، وخلال العصر الأيوبي تعرضت القلعة للعديد من الهجمات الصليبية (٥٤٢، ٥٨٧ه / ١١٤٧، ١١٨٢م) لم تعد تتسع القلعة للملك وحاشيته فبنيت العديد من الأبراج الجديدة وهيّئت الخنادق العميقة واضافة لذلك لغرف للتموين والذخيرة[٦]، فقد كانت القلعة تستخدم كنقطة ارتكاز لحاميات حكام الولاية، وكانت فكرة الملك العادل سد الجهة الشمالية للقلعة، حتى تصبح أكثر من ملجأ للدفاع أو الهجوم، وفعلاً صارت تعد نوعاً من

١- قباني (صباح): سورية، دمشق، منشورات وزارة السياحة، ٢٠٠٦م، ص١٢٨.

٢- فينر (فولفغانغ مولر): القلاع أيام الحروب الصليبية، تر: محمد وليد الجلاد، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، ط١، ١٩٨٢م، ص٨٧.

٣- مقداد (دريد): الأماكن الأثرية في بصرى، بيروت، المكتبة العصرية، ط٤، ٢٠٠٥م، ص٢٠.

٤- مقداد: الأماكن الأثرية في بصرى، ص٢١.

٥- ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص١٥؛ قباني: سورية، دمشق، ص١٢٨.

٦- مقداد: الأماكن الأثرية في بصرى ، ص٢٢.

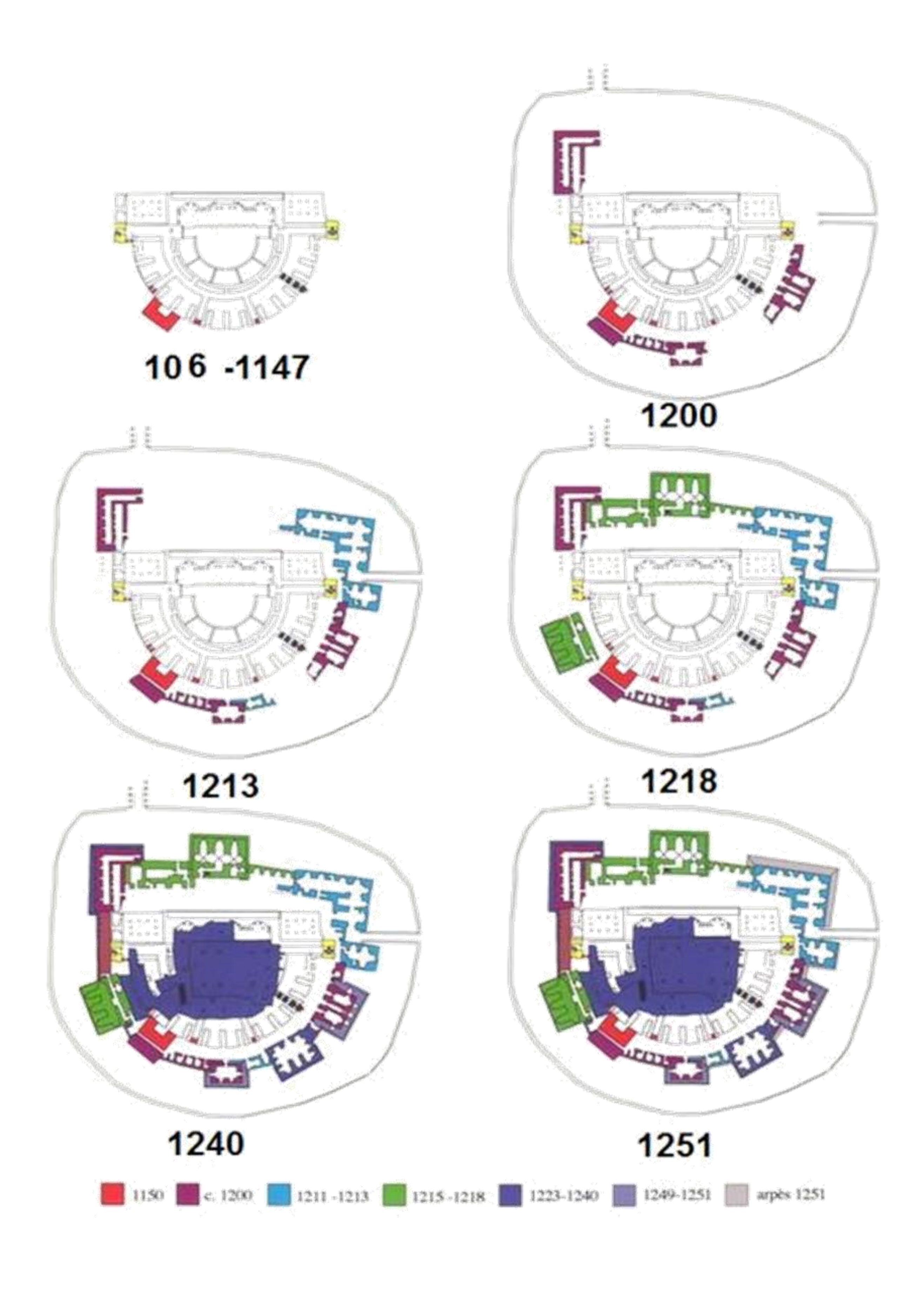

الشكل (١١) مراحل البناء التي مرت بها قلعة بصرى[١].

١- المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، أرشيف صور قلعة بصرى.

المدن المحصنة في السهل[١]، وقد بني صهريج لتجميع مياه الأمطار في مكان العازفين (الأوركسترا) على شكل مستطيل، لتأمين مخزون للمياه أثناء الحصار تكفي القلعة لمدة سنة أثناء الحصار[٢]، كما أنها استخدمت للنفي وسجناً[٣]، دمرت جدران القلعة خلال الغزو المغولي للشرق سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) وفي العام نفسه سابقاً دخل المماليك ورممت القلعة من قبل السلطان الظاهر بيبرس[٤].

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

تقسم العناصر الدفاعية للقلعة بشكل رئيسي الى ما يلي:

١_ الموقع:

تقع قلعة بصرى في الجهة الجنوبية الغربية لمدينة بصرى القديمة في سهل حوران، على بعد ١٤٥ كم جنوب مدينة دمشق[٥]، (الشكلين، ١٢ _ ١٣) في وسط سهول حوران الفسيحة[٦]،

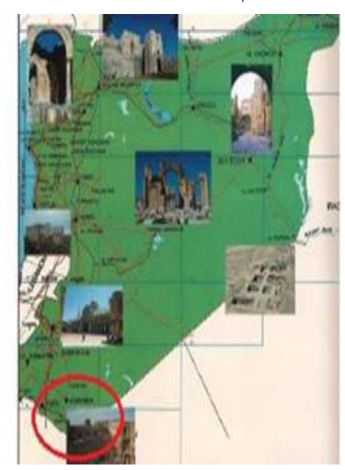

الشكل (١٢) موقع مدينة بصرى[٧].

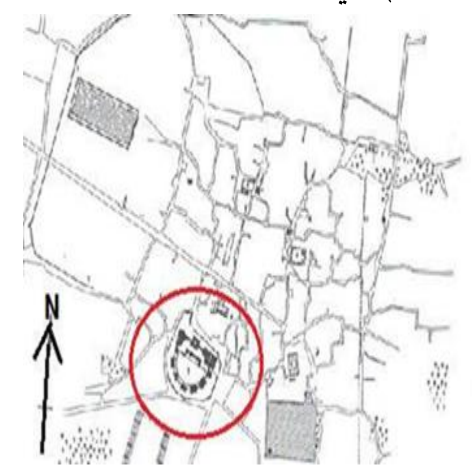

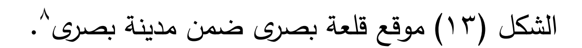

الشكل (١٣) موقع قلعة بصرى ضمن مدينة بصرى[٨].

١- ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص١٩.

٢- ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص٢٠.

٣- القططي: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص٧٤.

٤- مقداد: الأماكن الأثرية في بصرى، ص٢٢.

٥- ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص١٥؛ قباني: سورية، ص١٢٨.

٦- ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص١٥.

٧- فينر: القلاع أيام الحروب الصليبية، ص٨٧.

٨- جواد الله (فاطمة): سورية نبع الحضارات تاريخ وجغرافية أهم الآثار السورية، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩٩م، ص٢٥٠.

تتألف المناطق المحيطة بمدينة بصرى مباشرة، من الربع الجنوبي الشرقي من منطقة بركانية ممتدة من جنوبي دمشق حتى وادي الأردن الأعلى وبحر الجليل (بحيرة طبريا) نحو الشرق إلى

الشكل (١٤) صورة جوية لقلعة بصرى[١].

السهول السورية وهي من أخصب المناطق الزراعية، ترتفع مدينة بصرى عن المناطق المحيطة بها حوالي ٨٥٠ م، والاسم السامي لبصرى يعني (القلعة) مما يوحي بأنها كانت منذ تأسيسها موقعاً محصناً[٢]، كما تبلغ مساحتها حوالي سبعة عشر ألف متر مربع[٣]. (الشكل، ١٤)

١- المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، أرشيف صور قلعة بصرى.

٢- ميلر (دورس): "بصرى في بلاد العرب"، تر: شوقي شعث، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ١٩٨٦م، المجلد ٣٦، ص١٣٣_١٣٤.

٣- مقداد: الأماكن الأثرية في بصرى، ص٢٥.

٢_ الأبراج:

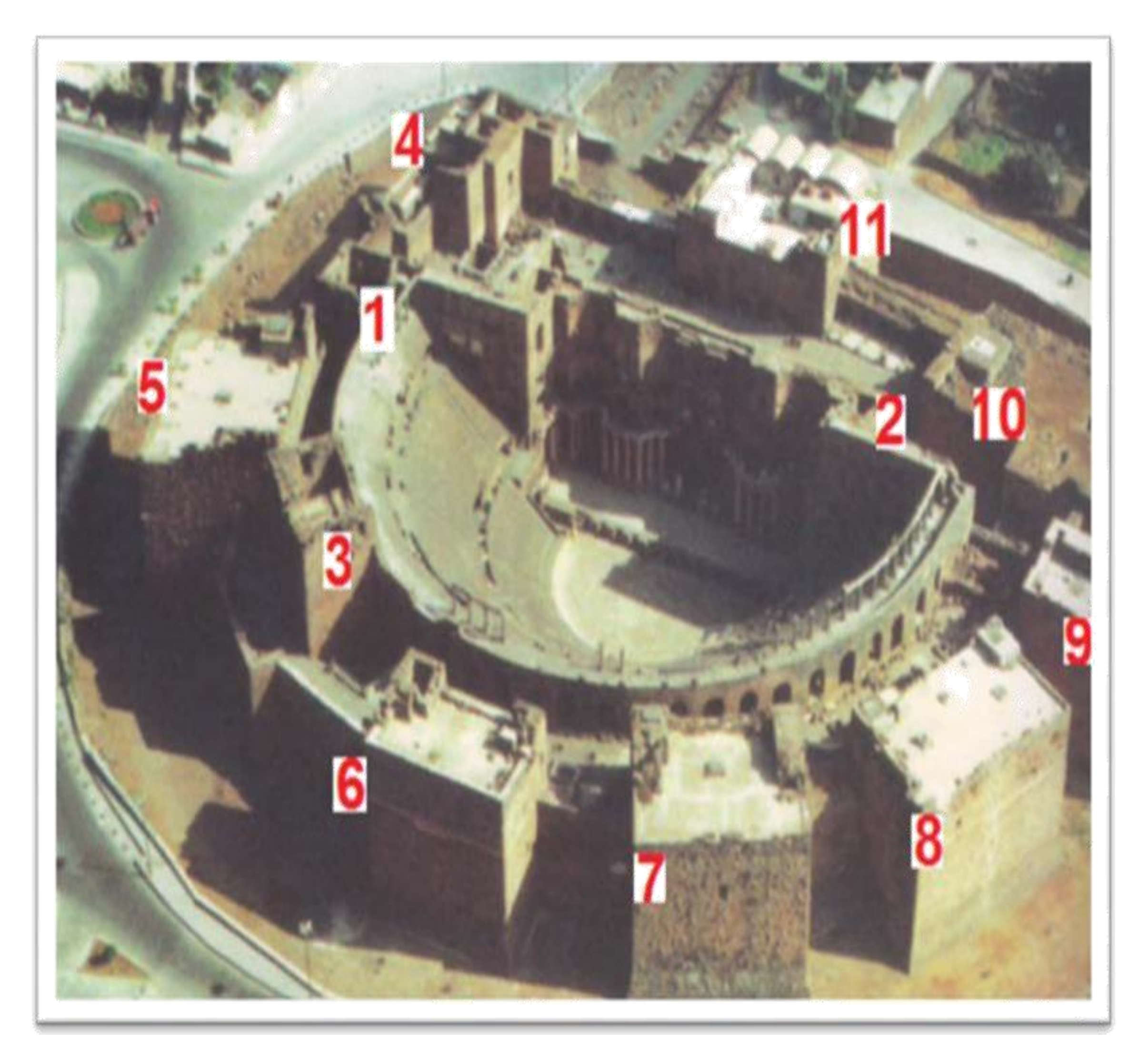

الشكل(١٥) صورة جوية تظهر أبراج القلعة[١].

يوجد في قلعة بصرى ١١ برج كما في (الشكل، ١٥)، البرج الأول في القسم الغربي الملاصق للمسرح، البرج الثاني يقع في القسم الشرقي الملاصق للمسرح وهي تعود إلى العصرين الفاطمي والسلجوقي، وذلك اعتماداً على ما ذكرتهُ د. فاطمة جواد الله من تحول البرجين على جانبي المسرح في فترة الفاطمية إلى برجين دفاعيين وتجدر الإشارة أن الأبراج خلال الفترة السابقة الأنفة الذكر كانت مربعة الشكل، أما البرج الثالث يقع في القسم الجنوبي الغربي، والبرج الرابع في القسم الشمالي الغربي، والبرج الخامس في القسم الغربي، وهي تعود الى العصر السلجوقي و الأيوبي حيث كانت مستطيلة الشكل. في العصر الأيوبي وخلال فترة حكم الملك

١- المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، أرشيف صور قلعة بصرى.

العادل الأيوبي، بنيت الأبراج البقية والتي تبعد عن الجدار الخارجي حوالي عشرة أمتار، والبرج السادس في القسم الجنوبي، أما البرج السابع في القسم الجنوبي الشرقي، والبرجين الثامن والتاسع في القسم الشرقي وتجدر الإشارة إلى أن هذا البرج له شكل شبه منحرف وذلك بعكس سابقيه، البرج العاشر يقع في القسم الشمالي الشرقي، وفيه منفذ مدخل القلعة ويتم الدخول اليها بالمرور فوق الخندق على الجسر الذي يقوم على ٦ أقواس، والمدخل محمي بوجود البرجين التاسع والعاشر، في حين يقع البرج الحادي عشر في القسم الشمال الغربي، وكان مقراً للحاكم[١]، وتبلغ أبعاد بعض الأبراج ٣٤ x ٢٤ متراً وبعضها يزيد عن ذلك وبخاصة البرج الغربي، كما أنهُ تختلف مساحة الأبراج من ١٧ x ٢١ متر الى ١٢ x ١٩متر[٢].

٣_الأسوار:

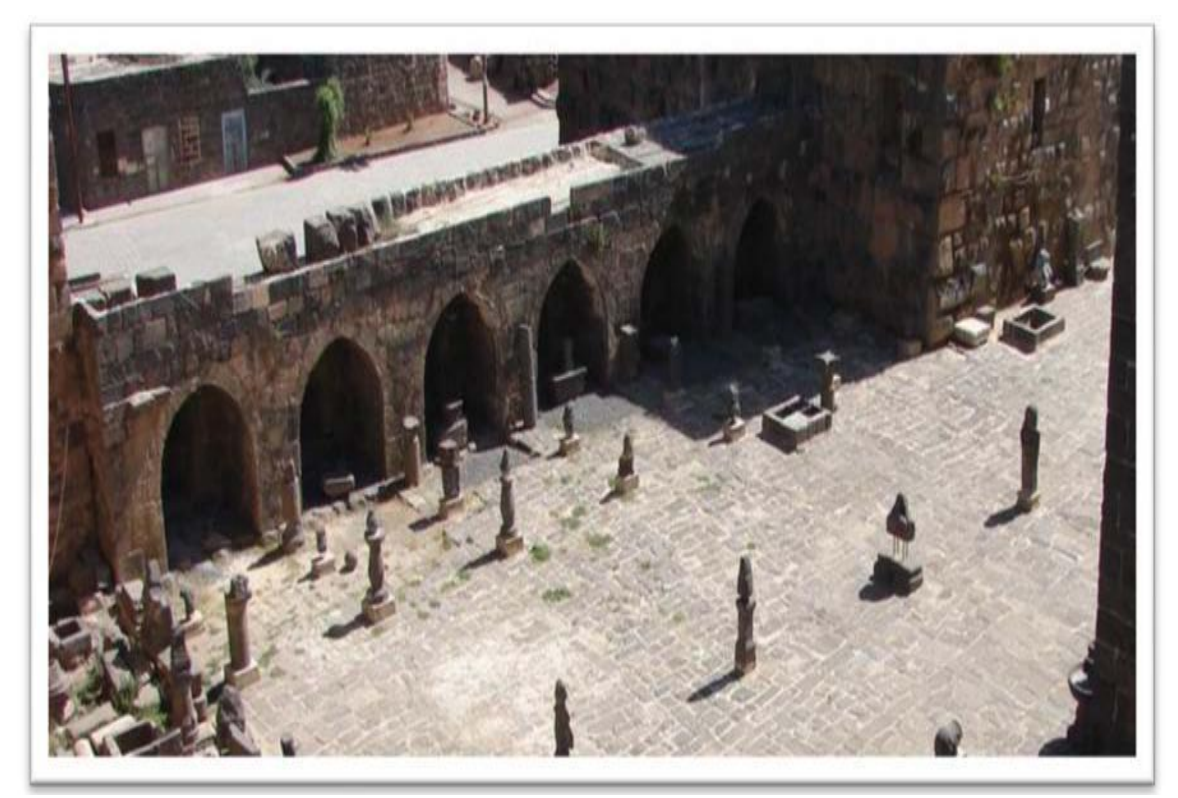

الشكل (١٦) الأسوار التي تربط بين الأبراج من الداخل مع الأقواس المعقودة[٣].

تبدو الأسوار رصينة كما في (الشكل، ١٦)، وهي تصل بين الأبراج تبلغ سماكتها ما بين ٤ – ٥ أمتار وتتألف من الأقواس المعقودة من الداخل التي تمنح هذا النوع من الأسوار متانة

١– جواد الله: سورية نبع الحضارات تاريخ وجغرافية أهم الآثار السورية، ص٢٥٢.

٢– بهنسي: الفن الإسلامي، ص٢٨٩.

٣– المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، أرشيف صور قلعة بصرى.

دفاعية كبيرة، وهي مرتفعة نوعاً ما تتألف من طابقين، بنيت على مصاطب استنادية (الشكل، ١٧) مما منحها ارتفاع ومتانة جيدة[١]، كما يوجد انحدار في الجدران المائلة بمحاذاة الخندق،

الشكل (١٧) المصاطب الاستنادية في الأبراج[٢].

منعاً من تسلق أحد من الأعداء أثناء الحصار، ومن المستحسن أن ننوه إلى الممرات الأيوبية الواسعة التي أضيفت خلف كواريس المسرح الروماني وبمحاذاة السور، وكانت واسطة الاتصال بين الطوابق الأرضية للأبراج المنشأة في الجهات الغربية والشمالية والشرقية من القلعة[٣]، وقد اتخذت القلعة شكلاً شبه دائري لأنها أحاطت بالمدرج القديم، الذي غدا جزءاً من تحصيناتها[٤].

٤ _ الخندق:

حفر حتى الوصول الى الصخر الطبيعي على نفس مستوى ساحة الأوركسترا (المسرح)، ويبلغ عمق ٦ أمتار وعرض ٣٠ متر وذلك في سنة (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) على يد الملك يوسف

١- بهنسي: الفن الإسلامي، ص٢٨٩.

٢- صور من أرشيف لجنة التراث الهندسي: نقابة المهندسين، فرع حمص.

٣- عبد الحق (سليم عادل): "مسرح بصرى وقلعتهُ"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ١٩٦٤م، المجلد١٤، ص١٥، ٢١_٢٢.

٤- الريحاوي: قلعة دمشق، ص٣٤٣.

بن محمد بن أيوب، كما بني جسر للقلعة فوق الخندق على قناطر حجرية ضخمة في زمن إنشاء الأبراج، يتقدمها جسر متحرك من الخشب يرفع بحبال مثبتة عند باب القلعة[1].

٥_ مرامي السهام:

الشكل (١٨) توزع مرامي السهام ضمن الأبراج والسور[2].

توجد مرامي السهام في الواجهات الرئيسية والجانبية للأبراج (الشكلين، ١٨_٢٠) كافة وفي الأسوار وتتوزع على الطوابق كلها وبشكل متناوب وفي تصوينة الأبراج تعويضاً بذلك عن الشرافات، بالنسبة لمرامي السهام يمكن ملاحظتها ضمن أقواس معقودة من الداخل (الأمر الذي يمنحها نظام دفاعي أقوى) من البرج الرابع وحتى السادس وضمن بدنات السور، وكان في مستوى الخندق ستون فتحة لرمي السهام[3].

١- ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص٢٤.

٢_ صور من أرشيف لجنة التراث الهندسي: نقابة المهندسين، فرع حمص.

٣_ ابل (أي): "القلعة الأيوبية في بصرى أسكى شام"، تر: بشير زهدي، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ١٩٥٦م، المجلد٦، ص١٤٥.

الشكل (١٩) يوضح فتحات مرامي السهام في الأبراج الخامس والسادس[١].

٦_ السقاطات:

توجد السقاطات في البرجين العاشر والحادي عشر، وعلى أجزاء من بدنات السور والأبراج.

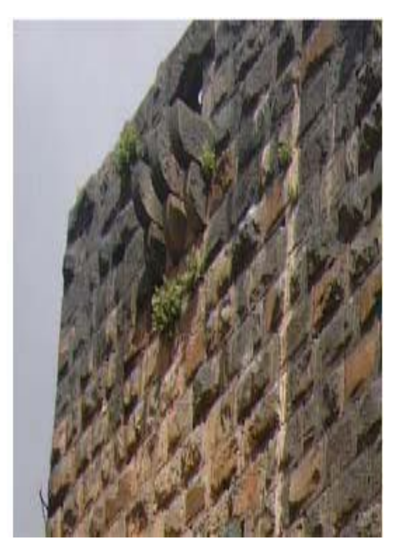

الشكل (٢٠) يظهر موقع السقاطة في البرج[٢].

٧_ الشرافات:

استعيض عنها بمرامي سهام على ارتفاع عالٍ من الأبراج وتصوينتها.

١- المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، أرشيف صور قلعة بصرى.

٢- المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية، أرشيف صور قلعة بصرى.

٨_ مواد البناء المستخدمة:

استخدم الحجر البازلتي الأسود ذو السطح النافر وذلك لرد الكرات الحجرية المقذوفة من خلال المنجنيقات حيث تسقط هذه الكتل الحجرية على نتوء بارز ولا يحدث ذلك أي تأثير على الأسوار كما استخدمت بعض الحجارة الزخرفية حيث خصصت للكتابات التأريخية[١]، وتجدر الإشارة هنا أن الأسوار الرومانية قد أزيلت لإعادة استخدام حجارتها في بناء القلعة خلال الفترة الأيوبية ولكن الكتل الحجرية الضخمة التي تعود للعهد الروماني بقيت في مكانها في السور الداخلي[٢]. (الشكل، ٢١)

لقد استعملت أسلحة مختلفة للدفاع عن القلعة، أهمها المنجنيق الذي يقذف الحجارة الكبيرة، والمكحلة أو المدفع من خلال (الشكل، ٢٢) نلاحظ قذائف المنجنيقات.

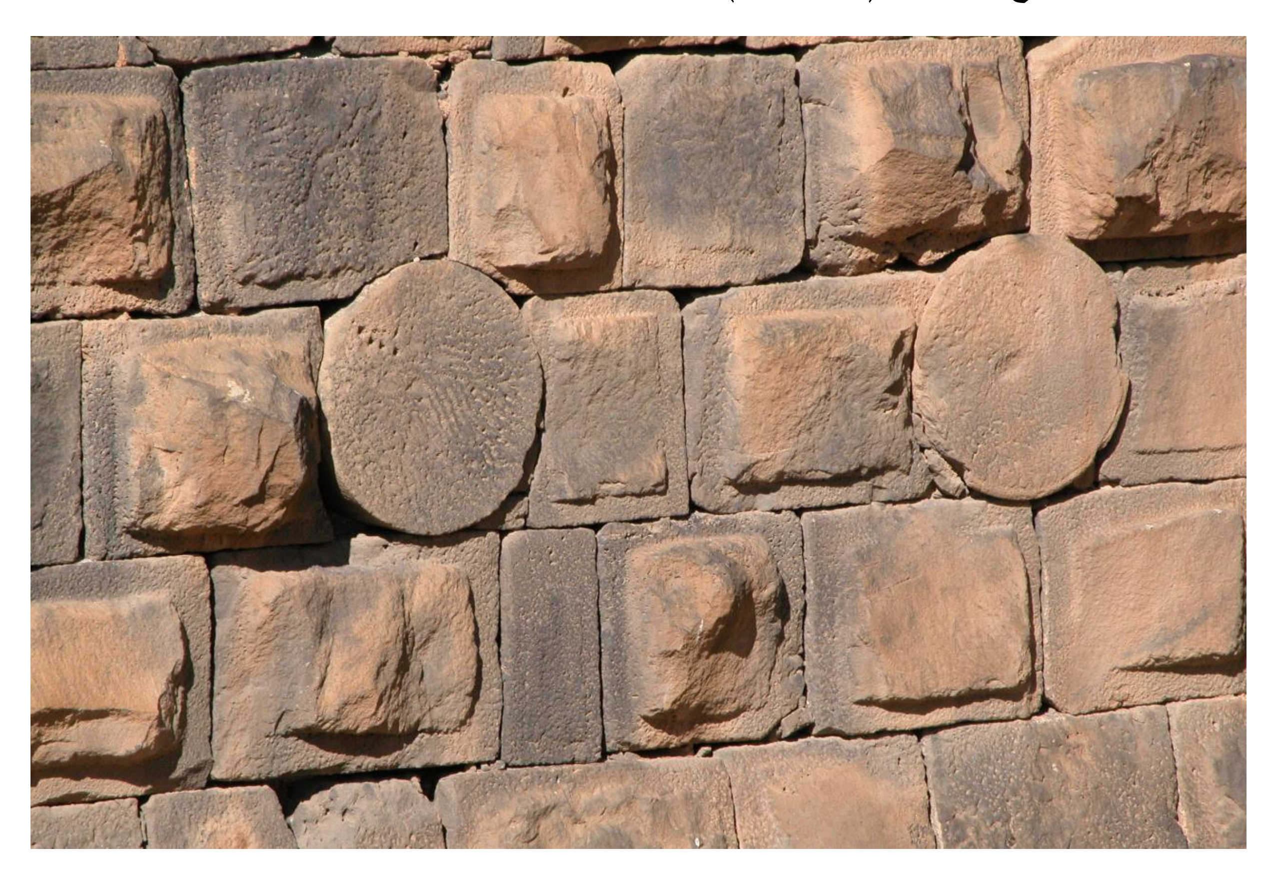

الشكل (٢١) الحجارة المستخدمة في البناء[٣].

١- جاموس (بسام): المسارح في سورية، تر: ريما الحكيم، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ط١، ٢٠١٢م، ص٢٤.

٢- ميلر: "بصرى في بلاد العرب"، المجلد٣٦، ص١٣٩.

٣- صور من أرشيف لجنة التراث الهندسي: نقابة المهندسين، فرع حمص.

وهي من أهم العناصر الدفاعية.

الشكل (٢٢) قذائف المنجنيقات[١].

١- صور من أرشيف لجنة التراث الهندسي: نقابة المهندسين، فرع حمص.

قلعة حمص

أولاً_ لمحة تاريخية:

حمص مدينة بالشام من أوسع مدنها، وهي مدينة حسنة في مستوٍ من الأرض وهي عامرة بالناس، والمسافرون يقصدونها بالأمتعة والبضائع من كل فن، وأسواقها قائمة وخصبهم تام ومعايشهم رقيقة وفي نسائهم جمال وحسن[١].

يرقى تاريخ مدينة وقلعة حمص إلى حوالي (٥٠٠٠) عام، وكان لهذه المدينة دوماً دور هام لعبتهُ عبر تاريخها الطويل، تم ذكرها في ألواح تل العمارنة أيام الفراعنة وألواح أشور، عدّها المصريون القدماء مفتاح آسيا الوسطى، ونظر إليها الآشوريون أنها حصن منيع صعب الحصول عليه[٢]، لعبت حمص دوراً هاماً في حياة الإمبراطورية الرومانية وخاصة زمن حكم السلالة الحمصية الملكية (أسرة شمسيغرام) وتزوجت ابنتها جوليا دومنه من القائد العسكري الروماني سبتيموس سيفيرس وأضحى أبنائها أباطرة جلسوا على عرش الإمبراطورية الرومانية حوالي خمسين عاماً[٣]، فازدهرت ازدهاراً ملموساً وأضحت نقطة تقاطع لطرق القوافل والجيوش الرومانية[٤]، فاتسعت حمص وخرجت عن كونها مدينة توجد على تل إلى مدينة لها شكل مستطيل (١٤٠٠م x ٩٠٠م)[٥]، وكانت تعد مدينة الشمس المقدسة[٦]، أطلق عليها اليونانيين والسلوقيين اسم أمسيا[٧]، واهتم البيزنطيون بتحصين القلعة[٨]، وعندما وصلت الجيوش العربية الإسلامية إلى حمص تحت إمرة القائدين أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، دخلتها صلحاً سنة (١٥هـ / ٦٣٦م)، سكن حمص صحابة الرسول (ص) وبلغ عددهم خمسمائة وأقام فيها ودفن القائد العربي خالد بن الوليد[٩]، تبوأت حمص مكانة مرموقة في عهد الأمويين، وقد لجأ الخليفة الأموي مروان

١- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٩٨.

٢- أسعد (عيسى): تاريخ حمص، ٢ جزء، حمص، مطبعة مطرانية الروم الأرثوذكس، ط١، ١٩٤٠م، ج١، ص٣٢.

٣- الموصلي (محمد ماجد): تاريخ مدينة حمص وآثارها، حمص، مطبعة الروضة، ١٩٨٤م، ص٥؛ قباني: سورية، ص١٤٠.

٤- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص١٥؛ الحايك: مملكة حمص في العصر الأيوبي، ص٣٦.

٥- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٢٥.

٦- أسعد: تاريخ حمص، ج١، ص٣٣.

٧- أسعد: تاريخ حمص، ج١، ص٣٢٢؛ الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص١٧.

٨- أسعد: تاريخ حمص، ج٢، ص٤٢٠.

٩- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٣٩.

بن الحكم إلى تقوية أسوار حمص ورفعها، ثم دخلت المدينة تحت حكم الخلافة العباسية[1]، وفي عهد السلاجقة والزنكيين غدت حمص وقلعتها معسكراً حربياً لتجميع الجيوش بهدف مواجهة الصليبيين[2]، أول من تسلم إمارة حمص وقلعتها من الأيوبيين هو أسد الدين شيركوه أيام نور الدين محمود[3]، وبعد تسلم السلطان صلاح الدين السلطنة، أعطى حمص الأهمية التي تستحق، فحصن قلعتها وعدها منطلقاً ومحرساً تجاه الفرنجة، ثم أعطاها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه سنة (٥٨١هـ / ١٠٨٥م)[4].

اهتم ملوك الأسرة الأسدية بمدنهم، وخاصة عاصمتهم حمص، ونتيجة لواقع الحرب الذي كانت تعيشهُ الدولة الأيوبية، كان الاهتمام بالمباني العسكرية، ومن ثم مباني المرافق العامة[5]، فقد فقد كانت حمص على حدود مناطق سيطرة الفرنجة، الذين حاولوا السيطرة عليها عدة مرات، فكان من الطبيعي أن تتوجه الاهتمامات نحو إقامة المنشآت العسكرية الدفاعية، ولكن ما بقي منها الآن قليل.

وكان أكثر اهتماماً بالقلعة هو المجاهد شيركوه بن محمد وذلك من خلال الكتابات التي تظهر على أبراجها[6]، وفي عهد الملك المنصور إبراهيم الأيوبي (٦٣٧_٦٤٤هـ / ١٢٣٩_١٢٤٥م) قويت الهجمات الصليبية على المنطقة من جهة طرابلس وقلعة الحصن، مما اضطرهُ إلى تقوية القلعة والأسوار والبوابات[7].

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

١_ الموقع:

لقد دلت التنقيبات الأثرية أن أقدم موضع نشأ فيه السكن بحمص هو تل حمص (قلعة

١- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٤٠_٤١.

٢- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٤٩_٥٠.

٣- أسعد: تاريخ حمص، ج٢، ص٢١٧.

٤- شيخاني (محمد فيصل): حمص عبر التاريخ، مر: هشام سعيد الحلاق، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠١١م، ص٢٩.

٥- الريحاوي: العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، ص١٤٤؛ الحايك: مملكة حمص في العصر الأيوبي، ص٢٨٣.

٦- ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص٣٥؛ القططي: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص٧٢.

٧- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٥٣.

حمص) فهو يبعد عن نهر العاصي حوالي ٥,٢ كم، ومن خلال دراسة طبوغرافية الأرض المحيطة بتل حمص، أن السكن نشأ عند مصدر مياه يتكون من تجمع المياه الدائمة أو الفصلية المنحدرة من منطقة تقع الى الجنوب الشرقي من التل قبل نشوئهِ وكانت ترتفع أكثر من ٤٠ متر عن ارتفاع السوية الدنيا وهي مياه تجري ضمن ثلاث وديان رئيسية هي وادي الذهب ووادي إبراهيم ووادي حلالو، وكانت تلك الوديان فروع تصب في نهر العاصي[١].

بنيت قلعة حمص فوق أنقاض الطبقة البيزنطية، ويُعتقد أن تاريخ بناء القلعة يعود إلى الحمدانيين، فقد كشفت التنقيبات الأثرية التي أجريت سنة (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م)، من خلال الأسبار المدروسة في القلعة، أن قلعتين تقوم واحدة (القلعة الأيوبية) فوق الأخرى (القلعة الحمدانية)، وقد نسبت القلعة إلى أسامة بن المنقذ والحقيقة أن القلعة الحمدانية لم يبنها أسامة بن المنقذ بل أباه نصر علي بن المنقذ أخذها من خلف بن ملاعب في (٢٩ شوال سنة ٤٩٧هـ / ٢٦ تموز ١١٠٤م)، لكن القلعة الحمدانية انهارت نتيجة الزلزال سنة (٥٦٥هـ / ١١٧٠م)، وأن الجدران القائمة فوق القلعة هي الأجزاء المتبقية من القلعة الأيوبية والتي يُعتقد أن الملك المنصور إبراهيم حصنها[٢]. (الشكل، ٢٣)

١- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٨.

٢- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٨٥.

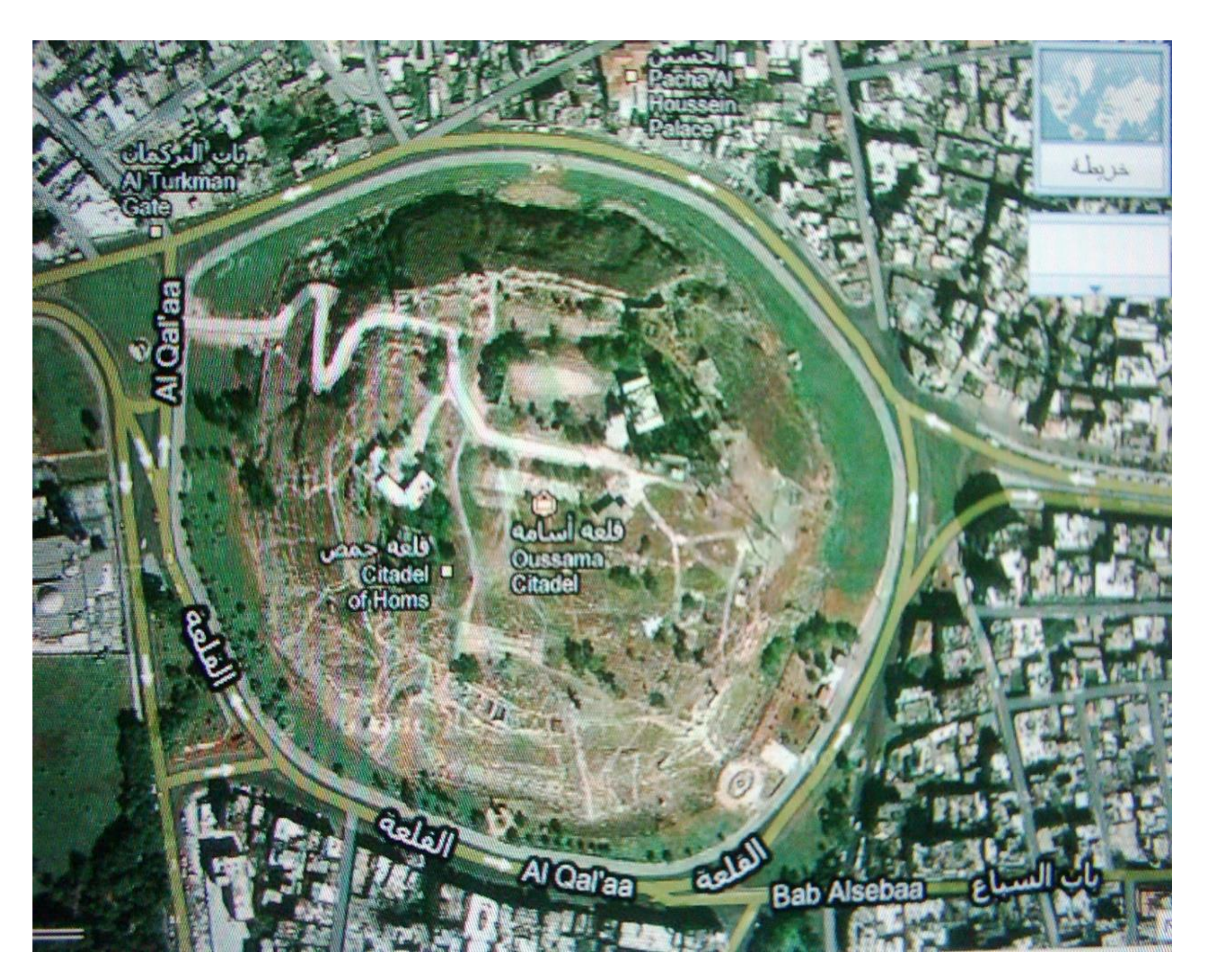

الشكل (٢٣) منظر جوي لقلعة حمص[١].

تُعد قلعة حمص من أعظم المنشآت التي تعود لأسرة أسد الدين شيركوه الأيوبي فقد أظهرت الأسبار الأثرية أن القلعة الأيوبية قامت فوق موقع أنقاض قلعة بيزنطية قديمة ففي سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) قام الملك المجاهد بتعمير خندق القلعة الذي كان صغيراً قبل ذلك ووسع القلعة[٢]، فقد كانت القلاع في ذلك العصر المركز العسكري والمقر الأساسي للملوك وحاشيتهم، فاقتضى ذلك إلى إقامة منشئات خدمية ودفاعية ضمن القلعة[٣]، فأصبحت قلعة حمص مدينة ملكية مصغرة فهي مقر الحاكم وفيها دور للسكن والمستودعات والمسجد وكل ما يلزم الإقامة والدفاع، كما أنها استخدمت كسجن[٤]، وأظهرت التنقيبات لوجود صهريج عميق يتجاوز عمقهُ ٢٧

١- دائرة الآثار بحمص زيارة ميدانية.

٢- ابن نظيف (محمد بن علي بن نظيف الحموي، ت: نحو ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م): التاريخ المنصوري "تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"، تح: أبو العبد دودو، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٩٨١م، ص١٢٢_١٣٧.

٣- سوفاجيه: دمشق الشام، ص٦٥.

٤- القططي: السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، ص٧٢.

متر لتخزين المياه والاستفادة منها أثناء الحصار[١]، تقع القلعة في الجنوب الغربي للمدينة، وشيدت فوق تل يعلو عن سطح البحر حوالي ٥٣٣ متر فوق تل طبيعي صخري على شكل مخروط، وارتفاع التل عن سطح الأرض نحو ٣٠ متر يشرف هذا التل على مدينة حمص وسهولها، وجزء من هذا التل طبيعي وجزء أخر اصطناعي[٢]، يبلغ قطر تل القلعة ٢٧٥ متر، ومن المفترض أنها تدفن تحت طبقاتها حمص القديمة قبل توسعها خارج حدود التل إبان العصر الروماني[٣]، مساحتها ١٤٤,٤١م٢، وكانت في سنة (١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م) ١٢٦,٣٩م٢، وفي سنة (١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م) ٣٨٢٨م٢[٤]، ويصفها الحميري بأنها "قلعة حصينة منيعة، أسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة مبنية بالحجارة السود أبوابها حديدية هائلة المنظر تكثفها الأبراج الحصينة" وهوائها أعدل هواء بمدن الشام، وهي مطلسمة لا تدخله حية ولا عقرب ومتى دخلت على باب المدينة هلكت في الحال[٥]، وعند الفتح الإسلامي للمدينة كان في حمص أربع أبواب، باب الرستن، باب الشام، باب الجبل، باب صغير، وفي الفترة الأيوبية أصبح لها سبعة أبواب: باب السوق، باب تدمر، باب الدريب، باب السباع، باب التركمان، الباب المسدود، باب هود[٦].

٢ _ الأبراج:

تشتمل هذه القلعة على خمسة أبراج دفاعية مستطيلة الشكل مفرغة من الداخل وموزعة على الشكل التالي، البرج الأول في الزاوية الشمالية الغربية للقلعة، البرج الثاني في الجهة الشمالية، البرج الثالث في الجهة الشمالية الشرقية، البرج الرابع في الجهة الشرقية، البرج الخامس في الجهة الجنوبية الشرقية[٧].

البرج الأول يرتفع عن الأرض ١,٥ متر، وتبلغ ثخانته ٦٥ سم، بالنسبة للبرج الثاني يتراوح أبعاده ما بين ٦٠ _ ١٢٠ سم و٦٠ _ ٩٠ سم، ارتفاعه ٧,٥ متر، أما ثخانته فهي ١٨٠ سم، البرج الثالث فتبلغ أبعاده ١٧ متر طول، و ٧,٥ متر ارتفاعه، يبلغ عرضه حوالي ٤,٥ متر،

١- عبد الحق (سليم): "مدينة حمص وأثارها"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، ١٩٦٠م، المجلد العاشر، ص٢٨.

٢- عبد الحق: "مدينة حمص وأثارها"، المجلد العاشر، ص٢٧؛ ساطع: القلاع والحصون في سورية، ص٣٥.

٣- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٩.

٤- دائرة المساحة بحمص، زيارة ميدانية.

٥- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٩٨.

٦- الموصلي: تاريخ مدينة حمص وآثارها، ص٦٤.

٧- الزهراوي (نعيم سليم): العمارة الأبلقية والتراثية بحمص، تح: محمد غانم ناصيف مكي _عبد المسيح عشي، حمص، مطبعة جامعة البعث، ٢٠٠٦م، ص٣٦.

البرج الرابع فيبلغ طوله في الجهة الشرقية ٩,٦٠ متر، في حين تتدنى أبعاده في الجهة الجنوبية والشمالية لتصل إلى ٤,٣٠ متر، وثخانته ٩٠ سم، أما بالنسبة للبرج الخامس فلم يتبقَ منهُ الا جانبين الجانب الشرقي يبلغ طوله ١٢ متر، في حين الجانب الجنوبي يبلغ طوله ٦ متر، وثخانته ٩٠ سم[١].(الشكل، ٢٤)

٣_ السور:

يحيط بمدينة حمص القديمة سور حجري أسود ارتفاعه عشرة أمتار وعرضه أربعة أمتار[٢]، لهذا السور عدة أبواب لتنظيم دخول وخروج السكان بكافة الاتجاهات، وعددها سبعة أبواب أما اليوم فهو باب واحد الباب المسدود والتي مازالت أبراجه قائمة بحجارته البازلتية التي تحكي قصص الدفاع عن المدينة، وكيفية استخدام الزيت المغلي، ورمي السهام عن سطح أبراجه المربعة، علماً أن بقية الأبراج التي اندثرت كانت دائرية الشكل على الأرجح[٣]، وقد هدم السور أكثر من مرة نتيجة الحروب المتعددة، وقد زالت أهمية هذا السور ولم تعد له أهمية دفاعية، وذلك بعد بناء السكان منازلهم خارج سور المدينة القديمة منذ سنة (١٣١٨هـ / ١٩٠٠م)[٤]، أما بالنسبة بالنسبة لأبدان القلعة والتي ينبغي أن تكون موزعة بين الأبراج فلم يبق منها حالياً سوى أجزاء قليلة على محيط القلعة.

١- دراسة ميدانية للباحث.

٢- الزهراوي: العمارة الأبلقية والتراثية بحمص، ص٨.

٣- الأتاسي (نوار): توظيف مفردة معمارية في حمص القديمة، جامعة البعث، منشورات مطبعة جامعة البعث، ٢٠٠٠م، ص٢٣.

٤- الأتاسي: توظيف مفردة معمارية في حمص القديمة، ص٢٠.

نقابة المهندسين
فرع حمص -لجنة التراث

قلعة حمص
من تاريخ القلعة

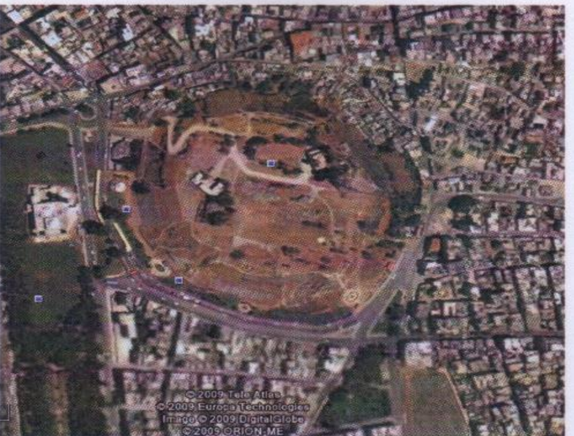

منظر جوي للقلعة
قبل ازالة البيوت بعام 2004

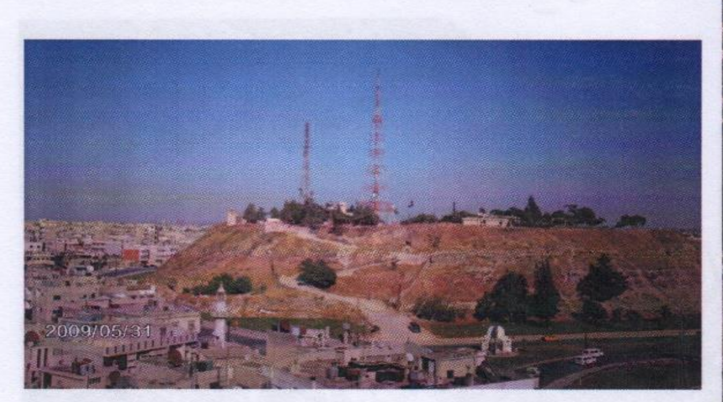

قلعة حمص لعام 2009

القلعة كما رسمها الفنان الفرنسي كاساس عام 1785ميلادي

الشكل (٢٤)[١].

١- صور من أرشيف لجنة التراث الهندسي: نقابة المهندسين، فرع حمص.

الشكل (٢٥) مخطط كدسترائي "بلان" ١/١٠٠ للقلعة[١].

١- دائرة المساحة بحمص، زيارة ميدانية.

بين البرج الذي يقع في الزاوية الشمالية الغربية والبرج في الجهة الشمالية من القلعة، كما أن تلة القلعة كانت مرصوفة بمربعات من الحجر الأسود البركاني، وهو شديد الانحدار ويكاد يكون عامودياً في الجهة الشمالية، لحماية التل الصناعي من جهة ولصعوبة تسلق الأعداء المهاجمين وسكب الزيت المغلي أو الحمم النارية لإعاقة التسلق على التلة، ولكن معظمهُ أخذته بلدية حمص سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) في الفترة العثمانية لتبليط شوارع المدينة[١]. (الشكل، ٢٥)

٤_ الخندق:

يذكر المؤرخون في أحداث سنة (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) "وفيها شرع السلطان الملك المجاهد صاحب حمص في حفر خندق القلعة وتوسيعهُ وحصانته لأنه من الثغور الإسلامية"[٢]، يحيط بالسور خندق وكان يملئ بالماء أثناء الحروب والحصار، ويقع هذا الخندق في الزاوية الجنوبية الغربية من سور قلعة حمص، وقد تم ردمه في سنة (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م) وذلك ليتم إنشاء شارع عريض، وقد نفذ المشروع حول محيط القلعة القديمة، ويعرف هذا الشارع بشارع الخندق، ولا يمكن حالياً التعرف على أثار الخندق، ولم يبقَ من معالمهِ في أيامنا إلا الشيء النادر[٣]، فإذا اتجهنا من باب السباع شرقاً مقابل السور الهابط من القلعة وجدنا أثار الخندق واضحة بينما لا وجود لأي أثر للسور لأن أبنية أقيمت مكانهُ[٤].

٥_ مرامي السهام:

أعطى الأيوبيين عنايتهم الخاصة في توزيع الفتحات المخصصة لرماة الأسهم والحراسة ضمن الأبراج والسور[٥]، والمسافة الفاصلة بين الأبراج الموجودة ضمن الأسوار، كانت تتحدد هذه الفواصل بمدى رمي السهام أو القذائف لحماية الأسوار، (الشكل، ٢٦).

١- أسعد: تاريخ حمص، ج٢، ص٣٨٩؛ الزهراوي: العمارة الأبلقية والتراثية بحمص، ص٢٧؛ شيخاني: حمص عبر التاريخ، ص٥٨.

٢- عواد (خالد): معالم وأعلام من حمص، تعليق: نبيل صافي، حمص، دار طه، ٢٠١٠م، ص٤٣.

٣- الأتاسي: توظيف مفردة معمارية في حمص القديمة، ص٢٣؛ عواد: معالم وأعلام من حمص، ص٤٤.

٤- الشاطر (محمد) ، الحمودي (منذر): "حمص قلعتها أسوارها أبوابها"، مجلة البحث التاريخي، ١٩٧٩م، العدد الثاني، ص١٣٠؛ شيخاني: حمص عبر التاريخ، ص٥٩.

٥- الزهراوي: العمارة الأبلقية والتراثية بحمص، ص٨.

نقابة المهندسين

فرع حمص –لجنة التراث

قلعة حمص

من تاريخ القلعة

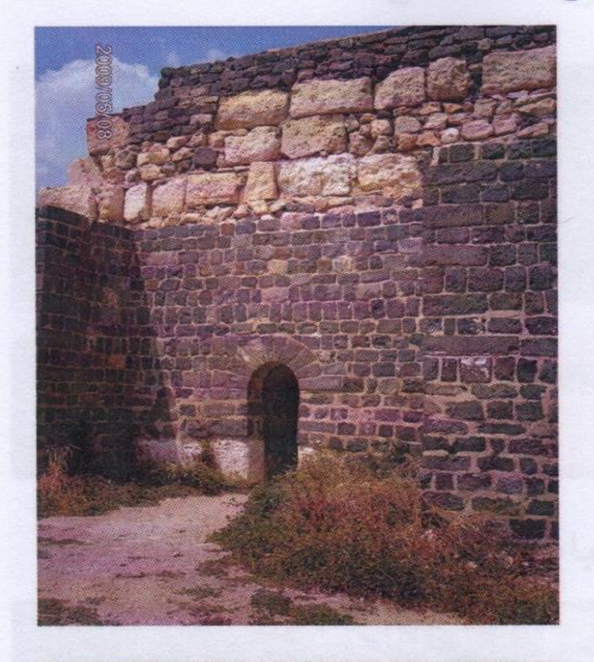

من الملفت ضخامة الحجر الابيض

يعتقد بإحضارة من الرستن

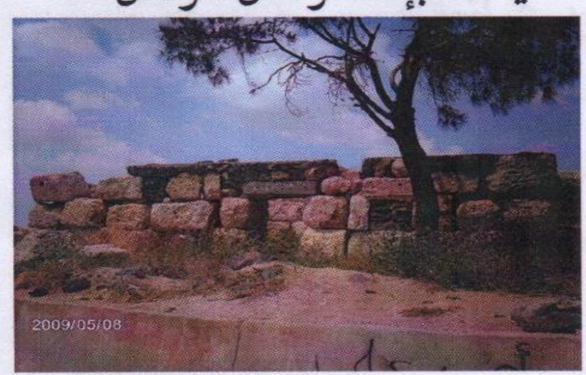

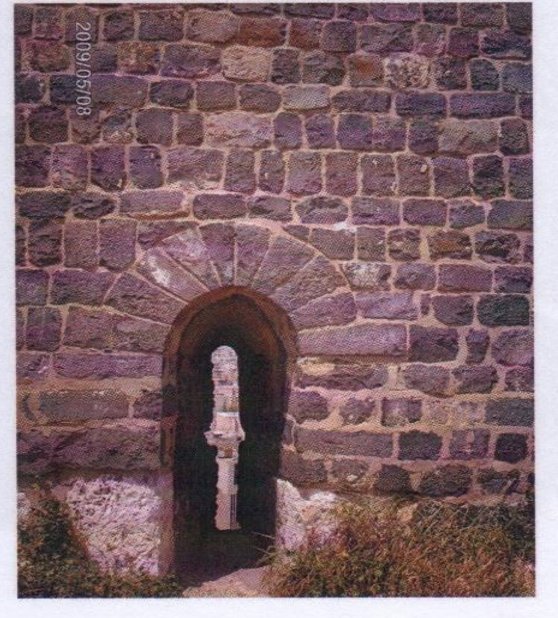

مرمى السهام من الحجر الاسود

الابراج الدفاعية من الحجر الابيض والاسود

الشكل (٢٦)[١].

١- صور من أرشيف لجنة التراث الهندسي: نقابة المهندسين، فرع حمص.

٦_ السقاطات:

وقد لوحظ وجود سقاطات في البرج الوحيد المتبقي بسور القلعة[١]. ونتيجة ذلك لا يمكننا تسليط الضوء على هذا العنصر الدفاعي الهام، وذلك بسبب اندثار بقية المعالم المعمارية من الأبراج المتبقية من سور القلعة.

٧_ الشرافات:

لا يمكننا تسليط الضوء على هذا العنصر الدفاعي الزخرفي الهام، وذلك بسبب اندثار بقية المعالم المعمارية من الأبراج المتبقية من سور القلعة. فقد أمر إبراهيم باشا عند دخولهِ حمص بتخريب منشآت القلعة وأن تنزع الطبقة البازلتية من على سطوحها لتستخدم في بناء المستودع العسكري، وأكملت بلدية حمص سنة (١٣٢٩هـ / ١٩١١م) أي في عهد رئيسها إبراهيم الأتاسي المهمة عندما قامت باقتلاع ما تبقى من أحجار البازلت من سفوح القلعة[٢]، وعدم ذكرهِ من قبل المؤرخين والباحثين والرحالة، ولكن نعتقد بوجود هذا العنصر الدفاعي لتميز الأيوبيين به بتلك الفترة.

٨_ مواد البناء المستخدمة:

استخدمت الأحجار البازلتية السوداء المشذبة بشكل واسع في أسوار القلعة، إضافة لاستخدام الحجارة البازلتية لإكساء سفح التل في القلعة وذلك الاكساء يعيق من تسلق القوى المعادية للقلعة، واستخدم أيضاً البلاط الكلسي في ملئ الفراغات بين الحجارة الكلسية الكبيرة والحجارة البازلتية، ونلاحظ استخدام الحجارة الكلسية التي تبلغ أبعادها (٨٠ x ٥٠) في الزوايا السفلية للأبراج، يعلوها مباشرة حجارة بازلتية مستطيلة أبعادها (٤٠ x ٣٠)[٣].

١- الأتاسي: توظيف مفردة معمارية في حمص القديمة، ص٢٣.

٢- عواد: معالم وأعلام من حمص، ص٤٤.

٣- زهران (ربيع): "أنظمة الدفاع وتقنيات البناء في مدينة حمص منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العصر العثماني"، مجلة جامعة دمشق، ٢٠١٣م، العددان ١١٩_١٢٠، ص٢٣٧_٢٣٨.

الفصل الثالث

الدراسة التاريخية لعصري المرابطين والموحدين

دولة لمرابطين (٤٤٨_٥٤١هـ / ١٠٥٦_١١٤٧م):

أولاً_ أصل المرابطين وموطنهم.

ثانياً_ فترة التأسيس (٤٣٠_٤٥٣هـ/ ١٠٣٨_١٠٦١م):

١_ يحيى بن إبراهيم.

٢_ عبد الله بن ياسين (٤٣٠_٤٥١هـ / ١٠٣٨_١٠٥٩م).

٣_ يحيى بن عمر اللمتوني.

٤_ أبو بكر بن عمر (٤٤٧_٤٣٥هـ / ١٠٥٥_١٠٦١م).

رابعاً_ فترة الازدهار "يوسف بن تاشفين" (٤٥٣_٥٠٠هـ / ١٠٦١_١١٠٦م):

١_ الأوضاع قبل معركة الزلاقة وأسبابها.

٢_ الاستعداد للمعركة:

أ_ التنظيم التعبوي.

ب_ سير المعركة.

ج_ نتائج معركة الزلاقة.

خامساً_ أوضاع دولة المرابطين قبيل السقوط:

١_ أوضاع المغرب قبيل سقوط دولة المرابطين:

أ_ الثورات التي قامت ضد علي بن يوسف.

ب_ تسلط الفقهاء.

ج_ الضرائب.

د_ الهجوم الجنوي النورماندي البحري.

هـ_ اضراب الإدارة.

٢_ أوضاع الأندلس قبيل سقوط دواة المرابطين.

أ_ تسلط الفقهاء .

ب_ سقوط سرقسطة.

ج_ ثورة قرطبة.

د_ ثورة المريدين.

هـ_ ثورة القضاة.

و_ ثورة الشرق.

سادساً_ فترة الضعف والانهيار "علي بن يوسف وخلفائهِ":

١_ علي بن يوسف (٥٠٠_٥٤١هـ / ١١٠٦_١١٤٦م).

٢_ أسباب سقوط دولة المرابطين.

أ_ التحجر في التفكير

ب_ ضعف القيادة.

ت_ الأزمة اقتصادية.

ث_ انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي.

ج_ اختلال الأوضاع في المغرب والأندلس.

ح_ الصراع السياسي الداخلي وظهور الموحدين.

دولة الموحدين

أولاً_ فترة التأسيس:

١- المؤسس محمد بن تومرت (٤٧٣_٥٢٤هـ / ١٠٨٠_١١٣٠م).

٢- عبد المؤمن بن علي (٥٢٤_٥٥٨هـ / ١١٣٠_١١٦٤م):

أ_ توطيد دولة الموحدين.

ب_ الدور السياسي والعسكري لعبد المؤمن في الأندلس.

ثانياً_ فترة الازدهار:

١- أبو يعقوب بن عبد المؤمن بن علي (٥٥٨_٥٨٠هـ / ١١٦٢_١١٨٤م).

أ_ غزوة شنترين (٥٨٠هـ / ١١٨٤م).

ب_ الجهد ضد البرتغاليين.

٢- أبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف (٥٨٠_٥٩٥هـ / ١١٨٤_١١٩٨م):

أ_ جهاده في الأندلس ضد الممالك النصرانية.

ب_ معركة الأرك (٥٩١هـ / ١١٩٥م).

ثالثاً_ فترة الضعف والانهيار:

١- أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥_٦١٠هـ / ١١٩٨_١٢١٣م):

أ_ معركة العقاب (٦٠٩هـ / ١٢١٢م).

٢- خلفاء الخليفة الناصر عبد الله وتساقط ممالك الأندلس.

رابعاً_ أسباب سقوط دولة الموحدين:

١- الضعف السياسي:

أ_ تعدد الخلفاء في وقت واحد.

ب_ الاستعانة بالنصارى.

ج_ تولية حكام ضعاف.

٢- التفكك الإداري.

٣- الانهيار العسكري.

٤- اتساع نطاق الثورات والفتن الداخلية:

أ_ ثورة بنو غانية.

ب_ العرب.

ج_ ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين.

٥- تقلص أراضي الدولة في إفريقيا والمغرب والأندلس.

٦- الانهيار الاقتصادي.

أولاً_ أصل المرابطين وموطنهم:

وردت الإشارة في القرآن الكريم إلى الرباط والمرابطة[١] في عدة آيات منها قولهُ تعالى: "واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"[٢]، وتيمناً بهذا الرباط والمرابطة أطلق الشيخ عبد الله ابن ياسين المتوفى في (٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ / ٧ تموز ١٠٥٩م)، اسم المرابطين على إخوانهِ الذين انضموا إليه، ورابطوا في إحدى الجزر القريبة من نهر السنغال، فربما عرفوا بهذا الاسم نسبة إلى الرباط الذي كان مقراً لهم ولم يكن هذا الشيخ أول من أسس الرباط إذ أن الربط كانت معروفة في الدولة الإسلامية تقام في الثغور المحاذية للأعداء ويسكنها العلماء والدعاة والمجاهدين والصالحون[٣].

ينسب المرابطون إلى صنهاجة إحدى قبائل الوبانس من البربر وأنهم أعظم قبائلها بالمغرب، وتذكر الروايات لنا أن النسابين العرب زعموا أن صنهاجة وكتامة من حمير خلفهم الملك أفريقيش بالمغرب فاستحالت لغتهم إلى البربرية، والتحقيق خلاف ذلك وأنهم من كنعان بن حام كسائر البربر، فلما قتل جالوت تفرقوا في البلاد وأغزى إفريقش المغرب ونقلهم من سواحل الشام وأسكنهم إفريقية وسماهم بربر[٤]. ويتفرع من صنهاجة قبائل كثيرة تنتهي إلى السبعين منهم لمتونة وجدالة ومسوفة ومسرته ومداسه وبنو وارث وبنو خير وبنو زيار وبنو موسى وبنو قشتال وغير ذلك وضمنها بطون وأفخاذ تفوق العد وكانت لهم بالمغرب دولتان عظيمتان إحداهما دولة بني

١– الرباط: معناها اللغوي هو: الثبوت واللزوم وربط النفس على الأمر لأي تثبيتها عليه وإلزامها إياه، ومعناها الشرعي هو: ملازمة الثغور والثبوت فيها لمحاربة الأعداء، وفرائض الرباط النية الصافية والزاد الحلال وعدة الأسلحة والمعقل. مفتاح (محمد): "مفهوم الجهاد والاتحاد في الأدب الأندلسي"، مجلة عالم الفكر، ١٩٨١م، المجلد١٢، العدد٤، ص١٨٣.

٢_ القرآن: سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٣_ حسين (حمدي عبد المنعم محمد): تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م، ص٣٧؛ خليفة (حامد محمد): يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصلبيين، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٠.

٤_ نصر الله (سعدون عباس): دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٥م، ص١٢.

زيري بن مناد الصنهاجيين بإفريقية ورثوا ملكها من يد الشيعة العبيدين والأخرى دولة الملثمين بالمغرب الأقصى والأوسط والأندلس[1].

موطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان حتى مصب نهر السنغالي[2].

ثانياً_ أصل اللثام:

قيل لهم الملثمون لأنهم يتلثمون ولا يكشفون عن وجوههم أصلاً، وذلك لأسباب كثيرة منها تجنب حرارة شمس الصحراء الساطعة[3]، فاللثام سنة لهم يتوارثونها خلفاً عن سلف، وسببهُ أن قوماً من أعدائهم كانوا يقصدونهم غفلة إذا غابوا عن بيوتهم فيطرقون الحي ويأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زي الرجال إلى ناحية ويجلس الرجال في البيوت متلثمين في زي النساء، ففعلوا ذلك وأتاهم العدو وظنوهم نساء خرجوا عليهم بالسيوف فقتلوهم جميعاً، ولزموا اللثام تبركاً به بما حصل لهم من الظفر بالعدو، فلا يعرف الشيخ من الشاب ولا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً[4].

واللثام المتخذ من فضل العمامة لتغطية الفم والأنف معاً، فلا يظهر من الوجه إلا العينان وهو الذي أعطاهم سر الملثمين[5]، فاللثام للمرابطين هو زيهم الذي اختاروه لأنفسهم ونشأوا عليه وتوارثوه ودرجوا عليه سلفاً عن خلف، فلا كراهية فيه عليهم، بل يستحب لهم التزامه والمحافظة عليه ويكره لهم مفارقته، لأنه شعارهم الذي تميزوا به من سائر الناس في أول أمرهم، إذ قاموا بدعوة الحق[6].

١- الناصري (أحمد بن خالد، ت ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري، محمد الناصري، ٩ أجزاء، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٩٧م، ج١، ص٤٥.

٢- عبد الحميد (سعد زغلول): تاريخ المغرب العربي، ٤ أجزاء، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٥م، ج٤، ص٤٥.

٣- خليفة: يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصلبيين، ص٢١.

٤- الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص٩٨.

٥- القلقشندي (أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٢م، ج٣، ص٤٧٧.

٦- الونشريسي (أحمد بن يحيى، ت ٩١٣هـ / ١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والأندلس والمغرب، تح: محمد الحجي، ١٣جزء، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٨١، ج١، ص٢٢٥.

ثالثاً_ فترة التأسيس (٤٣٠_٤٥٣هـ / ١٠٣٨_١٠٦١م):

١_ يحيى بن إبراهيم:

اجتمعت قبائل صنهاجة في المغرب العربي بعد تفرق دام مئة وعشرين سنةً على يد أحد زعمائهم المسمى أبو عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف بتارشتا اللمتوني (٤٠٠_٤٠٣هـ / ١٠٠٩_١٠١٢م)، ولما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت قام بأمر صنهاجة بعده صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي (٤٠٣_٤٣٤هـ / ١٠١٢_١٠٣٤م)[١]، وبعض الروايات تذكر أن يحيى بن إبراهيم الجدالي[٢] التقى بأبي عمران الفاسي أول مرة أثناء ذهابه للحج والثانية في طريق العودة سنة (٤٤٠هـ / ١٠٤٨م)[٣]، وفي طريق العودة عرج على القيروان وحضر مجلس دروس الفقيه أبا عمران الفاسي[٤]، فسأله الشيخ عن بلدهِ وأحوالهِ ومذاهب أهله الدينية، واختبره ببعض فروض الدين الدين فلم يجده يعرف منها شيئاً، فسأله عن السبب، فكان رد يحيى بن إبراهيم عدم وجود عالم وفقيه يرشدهم أصول الدين في بلادهِ، وطلب منهُ أن يرسل معه أحد الفقهاء إلى بلاده فندب الشيخ أبو عمران أحد تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول الصحراء[٥]، فكتب الشيخ أبو عمران كتاباً إلى الشيخ وجاج بن زلوا اللمطي[٦]، من أهل السوس الأقصى[٧] يذكر فيه "أما بعد إذا وصلك

١_ حسين : تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٧؛ حموش (عبد الحق): ابن تاشفين، الدار البيضاء، دار الكتاب، د. ت، ص١٩.

٢_ لم تشر المصادر التي ترجمت للأمير يحيى بن إبراهيم، إلى نشأتهُ الأولى ولا سنة ولادتهِ، كما لم تذكر أيضاً تاريخ وفاتهِ، وإنما اكتفت بذكر بعض الأحداث المهمة والرئيسية التي عاشها الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، إذ أن أغلب المصادر التاريخية ربطت ترجمتهِ، انطلاقاً من سنة (٤٢٧هـ / ١٠٣٥م)، وهي السنة التي رحل فيه الأمير يحيى بن إبراهيم لأداء فريضة الحج، إلى السنة التي عاصرت بداية نشأة الدولة المرابطية.

٣_ عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص١٧٠.

٤_ بدر (أحمد): تاريخ المغرب والأندلس، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨١_١٩٨٢م، ص١٨٣.

٥_ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد٨، ص٩؛ العبادي (أحمد مختار): "الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين"، مجلة مجلة جامعة الاسكندرية، ١٩٦٧م، العدد٢١، ص٥١؛ مؤنس (حسين): معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار الرشاد، ٢٠٠٤م، ص١٨٣.

٦_ وجاج بن زلوا اللمطي: هو أحد تلاميذ أبي عمران الفاسي الذي عاد إلى السوس بعد إكمال تعليمه وبنى هناك داراً للعلم سماها دار المرابطين ويعد رباط وجاج أقدم رباط مغربي. ابن أبي زرع (علي بن عبد الله الفاسي، ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور، د. ت، ص١٨٣؛ ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ١٠ أجزاء، بيروت، مؤسسة الأعلمي للطباعة، ١٩٧١م، ج٦، ص٣٧٤.

٧- السوس: تقع وراء الأطلس الكبير الى الجهة المقابلة لبلاد حاحا.... تبدأ غرباً من المحيط وتنتهي جنوباً في رمال الصحراء وشمالاً في الأطلس وشرقاً عند نهر السوس، والسوس الأقصى ما وراء مراكش ويشمل "تارودانت، وسهول

وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن إبراهيم الجدالي فابعث من طلبتك من تثق بعلمه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفهمهم دين الله"[1].

وصل يحيى بن إبراهيم إلى الشيخ وجاج بن زلو اللمطي، وأعطاه الكتاب وكان ذلك في (رجب سنة ٤٣٠هـ / آذار ١٠٤١م) فانتدب رجل يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي[2]، فهو من الصحراء من قبيلة جزولة[3].

٢_ عبد الله بن ياسين (٤٣٠_٤٥١هـ / ١٠٣٨_١٠٥٩م).

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك علي بن ياسين الجزولي خرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، استقبلت قبائل جدالة و لمتونة يحيى بن إبراهيم ومعه الفقيه عبد الله بن ياسين استقبالاً حافلاً، ولكن بعد فترة من تعليمه لهم أصول الدين الصحيح استصعبوا الالتزام بما فرضه عليهم[4]، فلما رأى ذلك عبد الله بن ياسين عزم الرحيل عنهم إلى بلاد أسوان، ولم يشأ يحيى بن إبراهيم الجدالي ترك عبد الله بن ياسين يغادر لوحده فأراد مرافقته[5]، فدخلوا أرضاً ومعهما سبعة نفر من جدالة وجعلوا منها رابطة، اختلف المؤرخون في تحديد مكان هذا الرباط والغالب أنهُ كان شمال نهر السنغال عند مصبهِ حيثُ توجد بعرضهِ جزر صغرى[6] أقاموا رباطهم بإحداها وانتشر خبرهم بين الناس[7].

السوس، وأفران، الغيران، والأطلس الصغير يخترقهُ نهر السوس الى البحر. الوزاني (حسن بن محمد الزياتي، ت ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م): وصف إفريقية، تر: عبد الرحمن حميدة، مر: علي عبد الواحد، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية، ٢٠٠٥م، ص١٢٤.

١- البكري (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز، ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، دي سلان للنشر، ١٩١١م، ص١٦٥؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص٩٩.

٢- الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص٩٩.

٣- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص١٧٤.

٤- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد٨، ص٧٤؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٠٠؛ السيد (محمود): تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٩م، ص٢٤.

٥- بدر: تاريخ المغرب والأندلس، ص١٨٥.

٦- الجزر الصغرى: يرجح أنها تقع في منحى نهر النيجر على مقربة من مدينة تنكبتوا فمن هنا بدأ أمر المرابطين. عنان (محمد عبد الله): دولة الإسلام في الأندلس، ٥ أجزاء، القاهرة، الناشر مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٩٠م، ج٣، ق١، ص٣٠٢.

٧- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق١، ص٣٠٢؛ زبيب (نجيب): الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تقديم: أحمد بن سودة، ٤ أجزاء، بيروت، دار الأمير، ط١، ١٩٩٥م، ج٢، ص٢٣٢.

فبدأ المعجبون والمتطوعون يفدون إلى رباط عبد الله بن ياسين[1]، حتى وصل عددهم إلى ألف رجل، فقرر الفقيه أن يرسل هؤلاء إلى أقوامهم يدعونهم لإصلاح أمورهم الدينية، والطاعة للفقيه، عاد الرجال حاملين معهم أخبار الرفض من قبائلهم، فقال أنذرنا وأعذرنا فوجب علينا الآن جهادهم[2]، بدأ المرابطون تحت قيادتهم العسكرية يحيى بن إبراهيم والدينية عبد الله بن ياسين إخضاع القبائل فتم لهم إخضاع جدالة، ثم لمتونة ومسوفة، وبعد خضوع القبائل الصنهاجية الكبرى لابن ياسين دخلت قبائل صنهاجة الصحراء في دعوة الرباط وتم التخلص من معارضين الفقيه عبد الله بن ياسين سنة (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م)[3].

٣_ يحيى بن عمر اللمتوني:

توفي يحيى بن إبراهيم الجدالي سنة (٤٣٤هـ / ١٠٤٢م)، فعزم عبد الله بن ياسين على تقديم رجل يقوم بأمر المرابطين في حربهم وجهادهم، فولى يحيى بن عمر اللمتوني، وبقي عبد الله بن ياسين هو المتحكم الأساسي[4].

تلا ذلك فتح درعه[5] وسجلماسة[6] سنة (٤٤٥هـ / ١٠٥٣م)، وبذلك تمت لهم السيطرة على الطريق التجاري بين الساحل نحو غانا والسودان ثم سيطروا على أودغست[7] سنة (٤٤٦هـ / ١٠٥٣م)، وهكذا توجه المرابطون الصنهاجيون الصحراويون إلى تأسيس دولة واسعة الأرجاء.

١- أحمد (علي): تاريخ المغرب القديم والإسلامي، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦_٢٠٠٧م، ص١٤٠.

٢- الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٠٠؛ عنان (محمد عبد الله): دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٦٩م، ص٣٠٢.

٣- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص١٩٦.

٤- ابن عذارى (أحمد بن محمد، ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ٤ أقسام، تطوان، دار كريماديس للطباعة، ١٩٦٠م، ق٤، ص١٢؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٠٠؛ عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ص٣٠٣.

٥- درعه: مدينة عامرة من جهة سجلماسة تبعد عنها ثلاث مراحل _ والمرحلة هي المسافة التي يقطعها المسافر في نحو يوم تقريبا سيراً على الأقدام_. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٣٥.

٦- سجلماسة: مدينة جنوب المغرب في مقطع جبل درن سكانها من أغنى الناس لوقوعها على طريق غانا بلد الذهب تأسست سنة (١٤٠هـ / ٧٥٧م) على يد مدرار بن عبد الله. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٩٢؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٠٤.

٧- أدوغست: مدينة بين صحراء لمتونة والسودان لها بساتين ونخل كثير وأهلها أخلاط من جميع الأمصار. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٦٣_٦٤.

استمر الأمير يحيى بن عمر اللمتوني في جهاده حتى توفي سنة (٤٤٨هـ / ١٠٥٦م)، فقدم الفقيه عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر، وجعل ابن عمه يوسف بن تاشفين في مقدمة الجيش، وسيطروا على بلاد السوس وغزوا جزولة[١] ثم توجه عبد الله بن ياسين إلى بلاد المصامدة[٢] ففتح جبل درن[٣]، إلى أن توفي الفقيه عبد الله بن ياسين الأحد (٢٤ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ / ٧ تموز ١٠٥٩م)[٤]، وانقسمت قوة المرابطين الى قسمين واحدة منها مركزةُ سهل مراكش وميدان نشاطهِ المغرب العربي الإسلامي ويقودهُ يوسف بن تاشفين، والثاني كان في قلب الصحراء الإفريقية المدارية الغربية ويقودهُ أبو بكر بن عمر[٥].

٤_ أبو بكر بن عمر (٤٤٧_٤٣٥هـ / ١٠٥٥_١٠٦١م).

هو الأمير أبو بكر بن عمر بن تلاكاكين اللمتوني خلف أخاه القائد العسكري للمرابطين، خرج الأمير أبو بكر بن عمر سنة (٤٥٢هـ / ١٠٦٠م) متوجهاً لاستكمال السيطرة على بلاد المغرب، ومعهُ أمم لا تحصى من صنهاجة وجزولة ومصمودة، واستقرت له معظم بلاد المغرب، وشرع في تأسيس حاضرة لهُ هي مدينة مراكش[٦]، إلا أن خبراً جاءه باختلال أمر الصحراء ووقوع ووقوع خلاف بين أهله، فقرر الرحيل إليهم ليلم شملهم ويوحد كلمتهم فتوجه إلى الصحراء ليصلح الأمور، استطاع أبا بكر إخماد الفتنة ومتابعة أعمال الجهاد في السودان ثم رجع إلى الشمال سنة (٤٥٣هـ / ١٠٦١م)، فتلقاه يوسف بن تاشفين في جيش عظيم وقدم إليه هدايا ثمينة، فعرف أبو بكر أنّ الامور استقرت ليوسف فتنازل ليوسف بن تاشفين عن ولاية المغرب[٧]، ثم رجع إلى

١- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٨٨.

٢- المصامدة: هم من بربر البرانس كانوا يؤلفون معظم سكان المغرب أيام الفتح الإسلامي حيث كانوا يشغلون معظم المناطق الجبلية وسهول الأطلسي ويعد الأطلسان الصغير والكبير موطناً للمصامدة. حركات (إبراهيم): المغرب عبر التاريخ، ٣ أجزاء، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٦.

٣- جبل درن: جبل مشهور بالمغرب العربي معترض بالصحراء في أعلاه مجموعة قلاع وحصون تزيد على السبعين حصناً وينفجر منه نهر نفيس ووادي أغمات. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٣٤.

٤_ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، ص٣٧٦؛ عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص٢١١.

٥- المراكشي (محي الدين عبد الواحد التميمي، ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): وثائق المرابطين والموحدين، تح: حسين مؤنس، القاهرة، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ٢٠٠٦م، ص٢٠.

٦- ابن عذارى: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٤، ص١٩.

٧- أشباخ (يوسف): تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مؤسسة الخانجى، ط٢، ١٩٥٨م، ص٦٦.

الصحراء، وعاش أبو بكر يجاهد في بلاد السودان ويعمل على نشر الاسلام حتى توفي سنة (٤٨٠هـ / ١٠٨٧م) على الأكثر[١].

رابعاً_ فترة الازدهار "يوسف بن تاشفين" (٤٥٣_٥٠٠هـ / ١٠٦١_١١٠٦م):

هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورفيت بن واراتقطين بن مصالة بن أمية بن واتلمي بن تامليت الحميري، من قبيلة لمتونة الصنهاجية، وتنازل أبو بكر لابن عمه يوسف بن تاشفين بصفة رسمية عن الإمارة على بلاد المغرب العربي الإسلامي سنة (٤٥٣هـ / ١٠٦١م)[٢]. كما كانت انتصارات يوسف بن تاشفين عظيمة، وبعد أن عظم شأنه أراد بناء مدينة له فاشترى مدينة مراكش ممن كان يملكه المصامدة، سنة (٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) وفتح مدينة فاس[٣] وغيرها[٤].

وهكذا لم تأتِ سنة (٤٥٨هـ / ١٠٦٦م) وحتى دانت بلاد المغرب ما عدا سبة[٥] وطنجة[٦] إلى إلى يوسف بن تاشفين[٧]، وضم تلمسان[٨] والجزء المغربي من المغرب الأوسط، وبذلك استطاع أن أن يوحد المغرب كاملاً من الصحراء، حتى البحر المتوسط والأطلسي والجزائر وستظل دائماً نقطة البداية في إنشاء ما يسمى المغرب العربي الكبير[٩].

١- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٩١؛ سالم (عبد العزيز): تاريخ المغرب الكبير، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦٦م، ص٦٩٨.

٢_ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٠٥.

٣_ فاس: مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب العربي، واختطت بين ثنيتين عظيمتين، وبها عيون كثيرة. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٣٠.

٤- مجهول (المؤلف): مفاخر البربر، تح: عبد القادر بوباية، الرباط، دار أبي قراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥م، ص٨٨.

٥- سبتة: هي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب وهي على بر البربر، تقابل جزيرة الأندلس، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص١٨٢.

٦- طنجة: مدينة بالمغرب العربي قديمة على ساحل البحر المتوسط، بينها وبين سبتة ثلاثون ميلاً في البر ونصف مجرى مجرى في البحر، فتحها عقبة بن نافع، ولها نهر كبير، ويقال إنها آخر حدود افريقيا في المغرب. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٩٥_٣٩٦.

٧- الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٠٩.

٨- تلمسان: قاعدة المغرب الأوسط، وهي مدينة في أول الصحراء على الطريق إلى سجلماسة ووارٍكلان، كانت دار مملكة مملكة زناتة، لها سور وخمسة أبواب، كثيرة الخصب رخيصة الأسعار. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٣٥.

٩- مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص١٨٩.

إن صاحب المسؤولية الأولى عن قيام دولة الطوائف في الأندلس هو أبو الحزم جهور بن محمد المتوفى (محرم سنة ٤٣٥هـ / آب ١٠٤٣م)، بإلغائه الخلافة الأموية ثم العامرية من قرطبة[١]، الأمر الذي أدى إلى قيام دويلات متنازعة، إذ استقل كل أمير بإقليمه، وأعلن نفسه ملكاً ملكاً عليه، فدخلت البلاد في عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف[٢].

استمرت الأندلس تحت حكم دول الطوائف، مع استمرار الضغط الإسباني عليها، إلى أن قام المعتمد بن عباد (٤٣١_٤٨٨هـ / ١٠٤٠_١٠٩٥م) في أخذ زمام المبادرة وطلب النجدة من المرابطين، وتم ذلك بعد سقوط طليطلة[٣]، وفرض الكثير من الغرامات على بن عباد حتى اضطر اضطر إلى قتل السفير الإسباني وهو يهودي، فالتجأ إلى يوسف بن تاشفين[٤]، ترافق ذلك مع حصار يوسف بن تاشفين لسبتة، رأى يوسف بن تاشفين أنه لا يمكنه العبور إلا بعد تأمين ظهره في سبتة وطنجة، وطلب من بن عباد إرسال أسطول لمحاصرتهما من البحر وقد أنجده بن عباد فاستولى بن تاشفين على سبتة سنة (٤٧٧هـ / ١٠٨٤م)[٥]، ثم تابع بعد ذلك يوسف بن تاشفين في استقرار أمور المغرب وفتح طنجة، واشترط لعبوره إلى الأندلس لمواجهة النصارى الإسبان السيطرة على ثغر الجزيرة الخضراء[٦]، وكان واليها وقتئذ يزيد الراضي بالله بن المعتمد بن عباد (٤٨٤هـ / ١٠٩١م) فاضطر إلى الموافقة، وإخلاء الجزيرة الخضراء للمرابطين سنة (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) واتخذوها قاعدة لهم وأصبحت مركزاً رئيساً لعبور جيوش المرابطين إلى الأندلس[٧].

١– ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الخطيب، ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عنان، ٥ أجزاء، القاهرة، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٤م، ج٢، ص١١٠؛ الحجي (عبد الرحمن علي): التاريخ السياسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢_٨٧٧هـ / ٧١١_١٤٩٢م)، دمشق، دار القلم، ط٣، ١٩٨٧م، ص٥٥.

قرطبة: وهي مدينة عظيمة في الأندلس، فهي قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها الجامع المشهور أمره. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٥٦.

٢– فيلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٤م، ص٢٦٩.

٣– طليطلة: مدينة بالأندلس، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة، بينها وبين قرطبة سبعة أيام. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩، ٤٤.

٤– الحجي: التاريخ السياسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢_٨٧٧هـ / ٧١١_١٤٩٢م)، ص٣٧٣.

٥– موسى (عز الدين عمر أحمد): دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٨٣م، ص٤٧.

٦– الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣٦.

٧– المراكشي (محي الدين عبد الواحد بن علي التميمي، ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: تح: محمد سعيد العريان، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ط١، ١٩٤٩م، ص١٣١؛ أبو مصطفى (كمال السيد): تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مركز الاسكندرية للكتاب، ١٩٩٧م، ص١٤٨.

عبر يوسف بن تاشفين في (ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ / تموز ١٠٨٩م)، إلى الجزيرة الخضراء، حيث استقبلهُ ملوك الأندلس[١].

وصل الخبر إلى الملك الأدفونش "ألفونسوا السادس" (٤٣٤_٥٠٢هـ / ١٠٤٣_١١٠٩م)[٢]، الذي كان يحاصر سرقسطة[٣]، وتوجه لمحاربة يوسف بن تاشفين الذي وجه له رسالة يدعوه فيها إلى دفع الجزية أو الإسلام أو الحرب فاختار الحرب دون معرفة خطط يوسف بن تاشفين القتالية الذي أرسل بن عباد إلى موقع يسمى الزلاقة وتأخر قليلاً عن القدوم ليطبق بالجيش الإسباني ويوقع به أشد العقاب من القتل، على الرغم من استخدام الملك الأدفونش لأساليب الخداع والكذب[٤]، وقام بعدها يوسف بن تاشفين بالعبور مرة أخرى سنة (٤٨١هـ / ١٠٨٨م)[٥] والعبور للمرة الرابعة سنة (٤٨٤هـ / ١٠٩١م)، ولكن هذه المرة لإنهاء نظام الطوائف خاصة بعد اتصالهم بالنصارى ونجدتهم ضد المرابطين[٦].

١ _ الأوضاع قبل معركة الزلاقة وأسبابها:

سقطت طليطلة التي كان يحكمها بنو ذو النون (٤٢٧_٤٧٨هـ / ١٠٣٦_١٠٨٥م) الذين حكموها في فترة ملوك الطوائف بالأندلس مدة ٧٨ سنة، لكنها سقطت في يد ملك قشتالة النصراني ألفونسوا السادس سنة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) بمعاونة المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية[٧]، إشبيلية[٧]، بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً، وأحدث سقوطها دوياً عنيفاً، واشتدت وطأة النصارى وتوحدت جهودهم ضد المسلمين وساروا بجيش مشترك وحاصروا مدناً

١– الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١١١.

٢– الملك الأدفونش: هو ادفونش بن فردلند غرسيه بن شانجه، كان من أشجع اخوته يرد في المصادر والمراجع بلفظ ألفونس والش، توفي في مدينة طليطلة سنة (٥٠٢هـ / ١١٠٩م). ابن عذاري (أحمد بن محمد، ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تح: احسان عباس، ٤ أجزاء، بيروت، دار الثقافة، ط٣، ١٩٨٣م، ج٤، ص٥؛ الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٢٤.

٣– سرقسطة: بلدة مشهورة في شرق الأندلس، وهي المدينة البيضاء مبنية على نهر كبير. الحميري: الروض المعطار في في خبر الأقطار، ص٣١٧.

٤– زبيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، ج٢، ص٢٧٤.

٥– ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص١٠٦.

٦– أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين، ص٩٤.

٧– إشبيلية: مدينة بالأندلس، لها أسوار حصينة، والنهر في غربها ويطل عليها جبل الشرق. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٨، ٦٠.

وقلاعاً واحتلوا قرى وأحرقوا أراضي كثيرة[1]، انتبه المعتمد بن عباد لخطئهِ بمعاونة النصارى، فاجتمع مع أمراء الأندلس الآخرين في إشبيلية ثم في قرطبة واتفقوا على أن يرسلوا سفيراً إلى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين، يلتمسون عونه ووصلت الوفود إلى مراكش فوافق يوسف بن تاشفين شرط أن يعطيه الأندلسيون الجزيرة الخضراء ليجعل فيها أثقاله وأجناده وتكون حصناً له وليكون بها على اتصال بإفريقية[2].

قبل يوسف بن تاشفين الدعوة، ولما أنهى استعداداته، أمر بالعبور في (ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ / تموز ١٠٨٦م) انطلق يوسف بن تاشفين بجيشهِ من سبتة إلى شاطئ الأندلس وتسلم بن تاشفين الجزيرة الخضراء وأمر بتحصينها، ثم غادرها جيشه إلى إشبيلية وبقي فيها ثمانية أيام لترتيب القوات والإعداد ثم غادر إشبيلية إلى بطليوس[3].

٢ _ الاستعداد للمعركة:

أ _ التنظيم التعبوي:

ضم جيش المرابطين في معركة الزلاقة فرقاً عديدة وبلغ تعداد هذا الجيش ثمانية وأربعين ألفاً من الأندلسيين والمرابطين وقاد الفرسان في مقدمة الجيش أبو سليمان داوود بن عائشة، وقوات الأندلس المعتمد بن عباد[4].

كان الملك ألفونسو السادس محاصراً سرقسطة، لما سمع بقدوم المرابطين، تحالف مع ملك أراغون الملك سانشو راميريز (٤٣٢_٤٨٧هـ / ١٠٤٢_١٠٩٤م) والكونت ريموند وفرسان من فرنسا وإمدادات من ملوك أوروبا، وقد بلغ تعداد جيش الملك ألفونسو السادس تقريباً مائة ألف من المشاة وثمانين ألفاً من الفرسان، وعسكر الجيشان قرب بطليوس في سهل تظللهُ الأحراش

١- العسلي (بسام): قادة الحروب الصليبية "المسلمون"، بيروت، دار النفائس، ط١، ٢٠١٢م، ص٥٨٣_٥٨٤.

٢- العسلي (بسام): الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، بيروت، دار النفائس، ط٣، ١٩٩٣م، ص٤٩_٥٠.

٣- خليفة: يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصلبيين، ص٢٢٣.

بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس، من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة، بناها عبد الرحمن بن مروان الجليقي. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٤٧؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٩٣.

٤- الصلابي (علي محمد): تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، بيروت، دار المعرفة، ط٣، ٢٠٠٩م، ص١٠٢.

سماه العرب الزلاقة[1]، ولبث الجيشان أمام بعضهما ثلاثة أيام راسل فيها يوسف بن تاشفين النصارى يدعوهم للإسلام أو الجزية أو القتال فاختاروا الثالثة[2].

ب_ سير المعركة:

بدأت المعركة في يوم الجمعة (١٢ رجب سنة ٤٧٩هـ / ٢٢ تشرين الأول ١٠٨٦م)، حيث خطط المرابطون تخطيطاً جيداً إذ اتخذوا من الجزيرة الخضراء خطاً للرجعة، وحينما قاتل جيشهم بنظام متماسك أربك النصارى وهو نظام الصفوف المتراصة المتناسقة الثابتة[3]، وسير الملك ألفونسو السادس القسم الأول من جيشه لينقض على معسكر الأندلسيين الذي يقوده المعتمد بن عباد حيث استطاعوا بقيادته الصمود ومقاتلة النصارى يؤازرهم ابن عائشة وفرسانه، وأيقن الملك ألفونسو السادس بالنصر عندما رأى مقاومة المعتمد تضعف، وفي هذه اللحظة الحرجة وثب الجيش المرابطي إلى الميدان وأرسل يوسف بن تاشفين عدة فرق لغوث المعتمد وبادر بالزحف في حرسه الضخم واستطاع أن يباغت معسكر الملك ألفونسو السادس الذي كان يطارد المعتمد بن عباد، وعندما رأى الملك ألفونسو السادس جموعاً فارة من النصارى علم أن يوسف بن تاشفين قد احتوى المعسكر النصراني فترك ألفونسو مطاردة الأندلسيين وارتد من فوره ليسترد معسكره[4].

ودام القتال بضع ساعات وسقطت ألوف مؤلفة وقد حصدتهم سيوف المرابطين، وسرعان ما علم المعتمد بن عباد وابن عائشة أن النصر قد مال إلى جانب يوسف بن تاشفين فجمعا قواتهما وعادا إلى الميدان، وأصبح الملك ألفونسو السادس بين مطرقة بن عباد وسندان بن تاشفين[5].

كانت الضربة الأخيرة أن دفع يوسف بن تاشفين بحرسهِ إلى قلب المعركة وقوامه أربعة آلاف، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس وأن يطعنه بخنجر في فخذه[6]،

١- الزلاقة: تقع الزلاقة في إقليم بطليوس غرب الأندلس. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٢٨٧.

٢- أبو خليل (شوقي): الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، دمشق، دار الفكر، ١٩٧٩م، ص٤١، ٤٣.

٣- الهرفى (سلامة): الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، رسالة ماجستير غير منشورة، مكة، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م، ص٥٥.

٤- أبو خليل: الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، ص٤٨؛ السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص٣٤.

٥- أبو خليل: الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، ص٥٣.

فخذه[1]، وفي الليل بادر الملك ألفونسو السادس مع قلة من صحبه إلى التراجع والانسحاب إلى مدينة قورية[2].

ج_ نتائج معركة الزلاقة:

١- أنقذ الأندلس من أيدي النصارى.

٢- تألق نجم يوسف بن تاشفين وذيوع صيتهِ بالمغرب والأندلس.

٣- تحرير سرقسطة من أيدي القشتاليين، وإنقاذ طرطوشة[3] وبلنسية[4] من حصار النصارى لهم.

٤- أسقط من قيمة ملوك الطوائف في نظر رعاياهم، ومهد السبيل لإسقاط دويلات الطوائف وسيطرة المرابطين على الأندلس[5].

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس وقسمها إلى ست ولايات هي: إشبيلية، غرناطة[6]، قرطبة، بلنسية، مرسية[7]، وسرقسطة، عاد إلى إفريقيا، وتوفي في بيتهِ في مراكش يوم الاثنين (٣ محرم سنة ٥٠٠هـ / ٣ أيلول ١١٠٦م) وقد بلغ من العمر نحو مائة عام، بعد حياة طويلة وحكم حافل بجلائل الأعمال[8].

وهكذا مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

١- مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.

١- العسلي: الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، ص٥٨.

٢- قورية: بالأندلس قريبة من ماردة، لها سور منيع. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٨٥.

٣- طرطوشة: من بلنسة إلى طرطوشة مائة ميل وهي في سفح جبل ولها سور حصين. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٩١.

٤- بلنسية: قاعدة من قواعد الأندلس، وهي متصلة بحوزة كورة تدمير، تقع شرقي قرطبة وهي برية بحرية. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٤٩٠.

٥- سالم: تاريخ المغرب الكبير، ص٧٢٦_٧٢٧.

٦- غرناطة: وهي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس، وأعظمها وأحصنها يشقها النهر المعروف بنهر قلزم قديماً والآن نهر حدادة بينها وبين قرطبة ٣٣ فرسخاً. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص١٩٥.

٧- مرسية: بالأندلس وهي قاعدة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم (١٧٦_٢٣٨هـ / ٧٩٢_٨٥٢م)، ولها حصون حصون وقلاع، ومنها إلى بلنسية خمس مراحل ومنها إلى قرطبة عشر مراحل. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٣٩.

٨- خليفة: يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصلبيين، ص٤٣٨.

٢- مرحلة الحذر من موقف ملوك الطوائف بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

٣- مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب، فوضعوا حداً لمهزلة ملوك الطوائف.

كانت رغبة يوسف بن تاشفين أثناء عبوره الأول (٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) والثاني (٤٨١هـ / ١٠٨٨م) للأندلس هو الجهاد ضد الإسبان حيث التقى مع ألفونسوا السادس وانتصر عليه في موقعة الزلاقة[١]، وما لبث أن جاز يوسف بن تاشفين جوازاين الثالث (٤٨٣هـ / ١٠٩٠م) الرابع (٤٨٤هـ / ١٠٩١م) لأنهُ اكتشف أن ملوك الطوائف غير مخلصين لدينهم وبلادهم فقسم منهم يتعاون مع الأعداء ضد إخوانهِ المجاورين لهُ أو ضد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لذلك اتخذ قراراً بخلع الأمراء الأندلسيين لإنهاء حكم ملوك الطوائف فيه وإعادته إلى الوحدة وضمهِ للمغرب[٢].

وفي سنة (٥٠٠هـ / ١١٠٦م)، توفي سلطان المسلمين بالمغرب والأندلس يوسف بن تاشفين اللمتوني، أعظم ملوك المغرب الإسلامي، وهو أول من دعي بأمير المسلمين[٣].

خامساً: أوضاع دولة المرابطين قبيل السقوط:

١ _ أوضاع المغرب قبيل سقوط الدولة المرابطية:

كان يوسف بن تاشفين قد أوصى ولي عهده، ولده علي قبيل وفاته بثلاثة أمور، أولها: ألا يفعل شيئاً لإثارة أهل جبل درن، ومن ورائهِ من المصامدة وأهل القبلة، ثانياً: أن يهادن أمراء سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى، ثالثاً: أن يعطف على من أحسن من أهل قرطبة، وأن يتجاوز عمن أساء منهم[٤]. دلت هذه النصائح فيما بعد على ذكاء وبعد نظر يوسف بن تاشفين، فإن التزم بها خلفائه لكانوا قد تجنبوا الكثير من المتاعب التي واجهتهم.

١- دوزى (ينهرت): المسلمون في الأندلس، تر: حسن حبشي، ٣ أجزاء، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٩٤م، ج٢، ص١٤٢.

٢- المقري (أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان لسان الدين بن الخطيب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ٣ أجزاء، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٩م، ج١، ص٤١٣.

٣- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٥، ص١٩٢.

٤- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص٣٧٩.

أ_ الثورات التي قامت ضد علي بن يوسف:

واجه علي بن يوسف (٥٠٠_٥٤١هـ / ١١٠٦_١١٤٦م) عند استلامهِ الحكم ثورة محلية كانت أول بادرة في الانتفاض، ذلك أنه حينما كتب إلى القواعد والثغور يأخذ البيعة له، أتتهُ البيعة من سائر البلاد إلا من مدينة فاس، وكان واليها عند وفاة والدهِ يوسف بن تاشفين، حفيده الأمير يحيى بن الأمير أبي بكر أخي علي، فرفض أداء البيعة لعمه علي، وأعلن الخلاف، فبادر علي بالسير في بعض قواته إلى فاس، ففر يحيى من المدينة، ودخلها علي بن يوسف وذلك في الثاني من (ربيع الآخر سنة ٥٠١هـ / أيلول ١١٠٧م) وأخمدت هذه الثورة الصغيرة في مهدها[١].

ففي سنة (٥٠٧هـ / ١١١٣م) ثار الزناتية ببلاد غمارة في الريف، حيث قام رجل يعرف بابن الزنتز ادعى أنه من أبناء آخر ملوك فاس السابقين، لم يستطع علي بن يوسف بن تاشفين أن يقضي على تلك الثورة بالقوة، الأمر الذي دعاه إلى استخدام الذهب لتهديد الغماريين الذين خلصوه من الثائر فقتلوه غدراً وأتوه برأسه[٢].

أما عن ثورة تلمسان سنة (٥٠٨هـ / ١١١٤م) حيث قام بها ماخوخ الزناتي فكان يكفي للقضاء عليه خروج أمير المسلمين علي بن يوسف نحوه لكي يفر أمامه ويخرج من البلاد[٣].

وقد بدأ ضعف أمير المسلمين علي بن يوسف يزداد بعد أكثر من ١٠ سنوات من استلامه الحكم، حتى أنه قنع باسم أمير المسلمين، وتوقف الجهاد، وعكف على العبادة، وأهمل أمور الرعية، فاختلت الأحوال في الأندلس والمغرب، واهتم بأكابر المرابطين فقاموا بالاستيلاء على البلاد، وشكلوا طبقة ارستقراطية كأنهم حلوا مكان رؤساء الطوائف[٤]، وكانت ولايات المغرب أيام المرابطين ثمانية، موزعة على أبناء أمير المسلمين وقومه من اللمتونيين[٥].

١- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٤، ص٥٩.

٢- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص٤٠١.

٣- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج٤، ص٤٧.

٤- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٧٧.

٥- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص٤٠٢.

ب_ تسلط الفقهاء:

وقد أسهم الفقهاء بصورة غير مباشرة في ضعف دولة المرابطين وانحلالها[1]، ففي البداية كان نفوذ الفقهاء أيام يوسف بن تاشفين يتخذ صورة شورى في الأمور الخطيرة، وإحلال الشرعية على قراراته ولكن هذا النفوذ لم يلبث أن أصبح في عهد ولده علي تسلطاً، فعظم أمر الفقهاء فكثرت أموالهم واتسعت مكاسبهم[2].

جـ_ الضرائب:

تظهر لنا المصادر أن المرابطين تحالفوا مع مصمودة ضد قبائل زناتة، وابتعدوا عن إثارة هذه القبائل، وأحسنوا معاملتها، لذلك لم يكن السبب في ثورة المصامدة غير الضرائب الكثيرة التي فرضها المرابطون في أواخر أيامهم، والطريقة المجحفة في جبايتها، وقد استغل ذلك محمد بن تومرت في جذب الناس له، وإثارة الناس ضد المرابطين[3].

ولما تضخمت الدولة المرابطية وتضاعفت جيوشها ومسؤولياتها وخاصة بعد فتح الأندلس، واتساع نطاق الجهاد، لم تعد هذه الموارد الشرعية كافية مما اضطر يوسف بن تاشفين إلى فرض الأتاوات على أهل المغرب والأندلس، كما فرض علي بن يوسف الضرائب على مختلف الصنائع والسلع[4]. في الوقت الذي كانت فيه موارد الناس تقل بسبب انقطاع خطوط التجارة مع الجنوب السوداني مع ظهور جماعة الموحدين توجها نحو الشمال منذ (سنة ٥٢٠هـ / ١١٢٦م)[5].

د_ الهجوم الجنوي النورماني البحري:

وفي سنة (٥٠٩هـ / ١١١٥م)، هاجم الجنويون برقة واستولوا عليها وخربوها، وكان هجومهم عن طريق الأسطول وليس براً، ثم هاجم أسطول نورماني سبتة فتصدت لهُ سفن المرابطين بقيادة

١- أحمد: تاريخ المغرب القديم والإسلامي، ص١٧٩.

٢- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٤، ص٤١٢.

٣- دندشي (عصمت عبد الطيف): الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م، ص٣٧.

٤- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٤، ص٤٢١.

٥- مصطفى (شاكر): الأندلس في التاريخ، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠م، ص١٠٠.

أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون سنة (٥٣٨هـ / ١١٤٤م)، واستطاع المرابطون على الرغم مما يحدث في بلادهم من صد الهجوم[١].

هـ_ اضطراب الإدارة:

كان من الأسباب التي عجلت بسقوط دولة المرابطين هو اضطراب الإدارة بوفاة الأمير علي بن يوسف، ففي هذه الفترة _فترة الانتقال القصيرة_ لم تكن هناك قيادة موحدة تعمل على تنسيق العمل وإصدار الأوامر التي توجه إلى الجند خاصة والرعية عامة، مما تسبب عدم احترام هذه الأوامر والعمل بها[٢]، في الوقت الذي بلغ تنظيم الموحدين وانضباطهم درجة كبيرة "إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء"[٣].

٢_ أوضاع الأندلس قبيل سقوط الدولة المرابطية:

أ_ تسلط الفقهاء:

بدخول المرابطين الأندلس، استعاد الفقهاء نفوذهم فرفعهم المرابطين إلى أعلى المناصب، وأصبح القضاة في بعض النواحي حكام الإقليم، وأصبح الفقيه حاكماً مدنياً إلى جانب القائد المرابطي الذي كان حاكماً عسكرياً[٤]، مع هيمنة المذهب المالكي وفقهائه في المغرب والأندلس[٥].

ومن مظاهر سيطرة الفقهاء على الدولة المرابطية، حادثة حرق كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي[٦]، وتوالى إحراق الكتاب في سائر أنحاء المغرب، وشدد أمير المسلمين في ذلك حتى أنه نذر بعقوبة الإعدام ومصادرة المال لكل من وجد عنده الكتاب، لقد استغل محمد بن

١- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٤، ص٤٤٧.

٢- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٣٤.

٣- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج٤، ص١٩١.

٤- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٢٦.

٥- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص٤١٤.

٦- الإمام الغزالي: هو الفقيه الشافعي أبو حامد محمد بن حمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام، ولدَ في طوس سنة (٤٥٠هـ / ١٠٥٨م) قدم نيسابور ودرس لدى إمام الحرمين أبو المعالي الجويني ثم خرج من نيسابور والتقى بالوزير نظام الملك فأكرمهُ وعظمهُ وفوض اليه التدريس بالمدرسة النظامية في بغداد من سنة (٤٨٤_٤٨٨هـ / ١٠٩١_١٠٩٥م) ثم سلك طريق الزهد والانقطاع وأقام بدمشق ثم انتقل الى بيت المقدس ومصر حتى عاد إلى وطنه طوس حيث توفي سنة (٥٠٥هـ / ١١١١م). ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء إبناء الزمان، ج٤، ص٢١٦.

تومرت إحراق كتاب الإحياء للغزالي أفضل استغلال، وجعلهُ قميص عثمان، فهاجم المرابطين والفقهاء، وجعل من إحراق الكتاب سبباً لزوال دولتهم[1].

أوصى يوسف بن تاشفين ابنهُ علياً، أن يهادن بني هود ملوك سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى، إلا أن أهل سرقسطة اختلفوا مع ملكهم عبد الملك بن المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة (رجب سنة ٥٠٣_ذي القعدة ٥٠٣هـ/ شباط ١١١٠_حزيران ١١١٠م)، لارتمائه في أحضان النصارى، وكتبوا إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بدعوتهِ لأخذ بلادهم وفقاً لرغبات أهل سرقسطة، زحفت الجنود المرابطية من بلنسية نحو الشمال، فهرب عماد الدولة عبد الملك بن المستعين، ودخل المرابطون القصر بقيادة ابن الحاج، وهكذا انتهت مملكة سرقسطة وانتهى ملك بني هود وامتد سلطان المرابطين إلى قلب الثغر الأعلى[2].

ب_ سقوط سرقسطة:

تغيرت الأوضاع في الممالك النصرانية، حيث تزوج ملك أراغون ألفونسوا الأول الملقب المحارب (٤٦٥_٥٢٨هـ / ١٠٧٣_١١٣٤م) من دونا ابنة ألفونسوا السادس الشرعية الكبرى حاكمة قشتالة وليون[3] وغاليسيا سنة (٥٠٣هـ / ١١٠٩م)، وتوحيد قيادتها على يد الملك ألفونسوا الأول المحارب، الذي توجه لمحاربة المرابطين وكسر شوكتهم[4]، حيث اجتمعت جيوش النصرانية النصرانية وحاصرت سرقسطة، ثم قدم الملك ألفونسوا المحارب مع قواته من قشتالة[5]، حيث سقطت سنة (٥١٢هـ / ١١١٨م) صلحاً بعد عدة معارك عنيفة هُزِمَ بها المرابطون[6].

بعد هذا النصر قام نصارى غرناطة بطلب النجدة من الملك ألفونسوا المحارب ضد المرابطين لأنهم هدموا كنيسة في غرناطة، فسار من سرقسطة في (شعبان سنة ٥١٩هـ / أيلول ١١٢٥م) في قوة مختارة من ٢٤ ألف فارس[7]، سار شرقاً ودخل أراضي مملكة بلنسية حيث

١- دندشي: الأندلسي في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٣٨.

٢- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق١، ص٧٤.

٣- ليون: هي قاعدة من قواعد قشتالة، بها معاملات وتجارات. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥١٤.

٤- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٤٥.

٥- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق١، ص٩٢.

٦- بدر: تاريخ المغرب والأندلس، ص٤١٢.

٧- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق١، ص١٠٧.

اجتاح الأندلس من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب لمدة عام وبضعة أشهر، والقوات الأندلسية المرابطة تسير في أثره أو تحتمي منهُ في الحصون[1].

على الرغم من أن هذه الغارة الطويلة لم تحقق أية نتائج، إلا أنها أسقطت هيبة وسلطان المرابطين، وعدم تمكنهم من الدفاع عن الأندلس، ورفعهم راية الجهاد.

ج_ ثورة قرطبة:

الحقيقة أن ثورة قرطبة هذه كانت نوعاً من الهياج الشعبي، ففي احتفالات عيد الأضحى من سنة (٥١٤هـ / ١١٢١م) وأثناء خروج العامة من أهل قرطبة، رجالاً ونساءً إلى المنتزهات، قام أحد رجال الحرس الأميري من العبيد السود، بمد يده على امرأة وهي تمر بالقرب منهُ[2].

استغاثت المرأة، فاستجاب الناس لها ووقع بين العبيد وأهل قرطبة فتنة عظيمة، ونشب قتال بينهم حتى دخل الليل[3]، وصل الخبر إلى الوالي الأمير أبي بكر واجتمع إليه الفقهاء والأعيان واقترحوا تهدئة الحال بأن يقتل واحد من العبيد الذين أثاروا الفتنة، فرفض ذلك الوالي أبي بكر واستعد للقتال في اليوم الثاني وأظهر السلاح، فاجتمع لقتاله أهل قرطبة بزعامة الأعيان والفقهاء، وهزموه، وفر من القصر بعد حصاره ونهب العامة قصر الوالي ثم تمادوا إلى دور المرابطين فأحرقوها وأخرجوا أصحابها من البلد[4].

وصل الخبر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف فبادر بالقدوم إلى الأندلس، وكانت استعداداته العسكرية الضخمة تفسر تخوفه من انتشار مثل هذه القلاقل، وصل إلى ظاهر قرطبة في (شهر ربيع الآخر سنة ٥١٥هـ / تموز ١١٢١م)، فأغلقت قرطبة أبوابها أمامه، واستعد أهلها للدفاع عن أنفسهم، ولم يستطع أمير المسلمين دخولها بالقوة، وانتهت المفاوضات بالاتفاق على أن يقوم أهل قرطبة بالتعويض عما نهب من المرابطين، وأبعد أمير المسلمين القاضي ابن رشد "الجد" لموقفه المؤيد لأهل قرطبة وعين بدلاً منه أبا القاسم بن حمدين[5]، وبذلك تكون أول ثورة علنية ضد الحكم المرابطي.

١- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٤٦.

٢- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص٤٠٤.

٣- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق١، ص٨٣.

٤- عبد الحميد: تاريخ المغرب العربي، ج٤، ص٤٠٥.

٥- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق١، ص٨٤.

د ـ ثورة المريدين:

عبر المرابطون الى الأندلس بهدف الجهاد ضد الإسبان أولاً، وتوحيد الأندلس مع المغرب ثانياً، طالبين الدعاء من الأندلسيين ونصرة من الله، إلا أن هذا الطلب البسيط لم يجد الأذن الخاشعة لهُ، بل وجد مجتمع قد انغمس في حالة التفسخ واللامبالاة.

نتيجة لهذا الانحلال لجأ فريق إلى التزهد والتصوف وقد انتشر التصوف في جل المدن الأندلسية في (القرن السادس الهجري / الحادي عشر الميلادي)[١]، تعرض المريدون وشيوخهم للمراقبة الشديدة من جانب السلطة خاصة سنة (٥٢٩هـ / ١١٣٥م) وأصبحت تحركاتهم محسوبة عليهم، وتعرض البعض منهم للملاحقة والسجن[٢].

ففي سنة (٥٢٩هـ / ١١٣٥م)، كان المسؤول عن الأندلس الأمير تاشفين بن علي، ويبدو أنه استجدت به بعض الأمور حتى طلب أمير المسلمين علي بن يوسف من ابنهِ تاشفين أن ينتقل إلى قرطبة ويتخذها مقراً له، ويسهر على أمور البلاد والعباد، ويأخذ حذره ويستعين بحسن المشورة في مواطن الاشتباه[٣].

وقد حدث اغتيال القاضي أبي عبد الله محمد بن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة في الجامع أثناء صلاة الجمعة وبصحبتهِ الأمير تاشفين بن علي فظهر أن الأمير مستهدف معه وهرب من الجامع معظم المتآمرين وقتل القاتل، أما الحادث الثاني بعد ذلك بأسابيع قليلة، عندما اقتحم عامة قرطبة الحي الذي يقطنه اليهود فاقتحموا منازلهم ونهبت أموالهم، وقتل عدد منهم، وقيل إن سبب هجوم العامة هو العثور على جثة شخص مقتول من قبل اليهود[٤]، ثم حدث حادث له دلالاته وهو الاعتداء على القاضي أبي بكر قاضي الجماعة بإشبيلية، إذ هاجمه البعض واعتدوا عليه، كانت هذه الحوادث من فعل المريدين، ترافق ذلك مع كثرة الحديث عن نجاح دعوة المهدي بن تومرت وانتصاراته[٥].

١- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٥١.

٢- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٥١.

٣- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٤، ص٨٧.

٤- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٦٤.

٥- ابن عذاري: البيان المقرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٤، ص٩٣.

توفي زعماء المريدين، فتسلم أبو القاسم أحمد بن قسي وأصبح شيخ الصوفية في الأندلس بلا منازع، فجمع حوله الأصحاب والأتباع، فكانوا في الظاهر طائفة دينية أو فرقة صوفية، وفي الحقيقة أداة سياسية استخدمها للثورة، حيث ادعى ابن قسي أنه على مذهب الإمام الغزالي[١].

أعلن ابن القسي سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٥م) الثورة ضد المرابطين بعد أن كثر أتباعه واستولى المريدون على حصن مرجيق من أعمال شلب، وقتلوا المرابطين الموجودين فيها، فلما علم المرابطون بباجة ما حل بإخوانهم في حصن مرجيق، طلبوا الأمان من أهل باجة على أن يخرجوا إلى إشبيلية وبذلك سيطر المريدون عليها[٢].

سار المريدون بقيادة ابن منذر، واستولوا على حصن الزاهرة، متجهين إلى إشبيلية وفي طريانة ضاحية إشبيلية الغربية التقى بطائفة من جند المرابطين يقودهم أبي زكريا بن غانية أمير الأندلس، وكان ابن غانية غادر قرطبة في قواته عندما علم بتمرد الغرب، واستطاع هزيمة ابن قسي، وقتل عددٌ كبيرٌ من المريدين وهرب ابن المنذر مع قلة من جنوده إلى شلب، فحاصره ابن غانية لمدة ثلاثة أشهر، غير أنه اضطر إلى رفع الحصار والعودة بعد أن بلغته أنباء قيام ابن حمدين ضده بقرطبة[٣].

هـ_ ثورة القضاة:

استغل أهل قرطبة خروج الأمير أبو زكريا يحيى ابن غانية بقواته باتجاه إشبيلية لحمايتها من عبث المريدين، فثارت العامة بزعامة نائبه الرئيسي أبي عمر المسوغي، وخلعوا دعوة المرابطين، واتفقوا على مبايعة القاضي أبي جعفر بن حمدين، وذلك في (٥ رمضان سنة ٥٣٩هـ / ٢٨ شباط ١١٤٥م)[٤].

ونجح الموالين للمرابطين بقرطبة في مساعدة ابن غانية بدخول المدينة بعد ١١ شهراً من حكم ابن حمدين، فلجأ ابن حمدين إلى حصن أندوجر بالقرب من قرطبة وتحصن به، وقد توجه ملك قشتالة ألفونسو السابع (٤٩٨_٥٥٢هـ / ١١٠٥_١١٥٧م) في صحبة جيش كبير لمساندة

١- مؤنس (حسين): سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأمامهم من الأندلس، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٠م، وثيقة رقم (١)، ص١١٣.

٢- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٧٤.

٣- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٧٥.

٤- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: ابراهيم الأبياري، ٢ جزء، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص٦٤.

ابن حمدين، فخلصهُ من حصار ابن غانية، ودخلا قرطبة في (٢٠ ذو الحجة سنة ٥٤٠هـ / ٢ حزيران ١١٤٦م) فاعتصم ابن غانية بقصبتها[١] يدافع ضد النصارى، بينما عاث القشتاليون في شرقي قرطبة فساداً[٢]، وفي هذا الوقت بلغت ملك قشتالة ألفونسو السابع أخبار عبور الموحدين إلى الأندلس فوجد هو ومستشاريه أن من مصلحتهم تقوية المرابطين والوقوف في وجه الموحدين حيث اضطر قائد المرابطين ابن غانية إلى قبول الصلح مع ملك قشتالة ألفونسو السابع والحصول على مساعدتهِ[٣].

وانتقلت عدوى الثورة من قرطبة إلى وادي آش، وتزعم الثورة أحمد بن ملحان الطائي فاستولى على القصبة من المرابطين وتلقب بالمتأيد بالله، ثم وجد المنطقة متجهة للذهاب نحو سيطرة الموحدين، فلجأ إلى المغرب ودخل في خدمتهم[٤].

أما ثغر قادش فقد استولى عليه علي بن عيسى بن ميمون (٥٢٩_٦٠١هـ / ١١٣٥_١٢٠٤م) قائد الأسطول المرابطي الذي خلع دعوة المرابطين، وفي سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) ذهب إلى عبد المؤمن بن علي ودخل في طاعة الموحدين[٥].

و_ ثورة الشرق:

اندلعت الثورة في شرق الأندلس متأثرة بالثورات التي اشتعلت في الغرب والوسط والجنوب فثارت بلنسية ومرسية وغيرها[٦].

حيث كان على ولاية بلنسية عندما اضطربت الأمور، الأمير أبو محمد عبد الله بن محمد علي بن غانية، وكان قاضيها أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز الطامع بالسلطة لنفسه، حيث أعلن الثورة في (١٨ رمضان سنة ٥٣٩هـ / ١٣ آذار ١١٤٥م) مما اضطر ابن غانية أن ينسحب من بلنسية إلى بولجة بلنسية، في بداية الأمر أظهر ابن عبد العزيز التعفف عن السلطة وأراد الناس

١- القصبة من البلاد: مدينتها، قصبة المدينة: مجموعة سكنية في حي من أحيائها يحيط بها سور والقصبةُ القصر والقصبة جوف الحصن يبنى بها بناء وهو وسطهُ. ضيف (شوقي): المعجم الوسيط، القاهرة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م، ص٧٤٠.

٢- الضبي: بغية الملتمس في تاريخ أهل الأندلس، ج١، ص٦٦، ٩٨.

٣- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٨٢.

٤- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٨٣.

٥- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٤، ص٩٦.

٦- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٨٤.

أن تختاره، ولكنهم اختاروا أحد رجالات لمتونة، هذا الاختيار أزعج القاضي ابن عبد العزيز الذي بدأ بمضايقة الوالي الجديد الذي لم تمض أيام حتى انسحب إلى شاطية[1]، حيث بويع ابن عبد العزيز في (٣ شوال سنة ٥٣٩هـ / ٢٨ آذار ١٤٤٥م)، وضم إليه ما كان بأيدي أصهاره بني مردني، غير أن ابن عبد العزيز لم يكن في مستوى المسؤولية، حيث اصطدم بتمرد الجند لعدم تمكنه من دفع مرتباتهم، بعد عجزه عن جباية الأموال فحاصره الجند وتمكن من الفرار خارج بلنسية، وسارع الجند بتقديم عبد الله بن محمد بن سعيد بن مردنيش، في حين كانت مرسية قد نشبت بها ثورة أيضاً ترأسها أحد المريدين[2].

وهكذا نجد من خلال هذه الأحداث المتشابهة، تلك الظاهرة العجيبة وهي أن قادة الثورة ضد المرابطين، لم يكونوا من قادة الجند أو العامة، بل كان أغلبهم من القضاة والفقهاء.

سادساً_ فترة الضعف والانهيار "علي بن يوسف وخلفائهِ":

١_ علي بن يوسف (٥٠٠_٥٤١هـ / ١١٠٦_١١٤٦م):

تولى علي بن يوسف بن تاشفين الحكم بعد أبيه سنة (٥٠١هـ / ١١٠٧م)، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر تميم بن يوسف "أبي الطاهر" المتوفى سنة (٥٢٠هـ / ١١٢٦م) الذي عين والياً لإشبيلية، فسار بجيش ضخم إلى حدود النصارى وحاصر قلعة أقليش المنيعة[3]، فأرسل الملك ألفونسو السادس ابنهُ "سانشو" لفك الحصار عنها، لكن المرابطين انتصروا على القشتاليين وقتل سانشو بن ألفونسو السادس.

ويمكن أن يعد انتصار المرابطين في أقليش (١٦ شوال ٥٠١هـ / ٢٨ أيار ١١٠٨م) ذروة سلطانهم في الأندلس[4]، وفي ذلك التاريخ بدأت قوتهم تنحدر عاماً بعد عام، وفي سنة (٥١٢هـ / ١١١٩م) سقطت سرقسطة بيد النصارى بعد دفاع مشرف من سكانها، ورد أبو الطاهر تميم بن يوسف عن لوردة الإسبان النصارى بعد أن كبدهم خسائر جسيمة، وفي سنة (٥١٣هـ / ١١٢٠م)، استولى النصارى على قلعة أيوب فعبر أمير المسلمين علي بن يوسف مرة أخرى إلى

١- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٨٧_٨٨.

٢- دندشي: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، ص٨٩.

٣- أقليش: مدينة لها حصن في ثغر الأندلس، وهي قاعدة كورة شنتيريه، وهي محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون وفيها كانت ثورته وظهوره سنة (١٦٠هـ / ٧٧٧م). الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥١.

٤- الهرفي: الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص٢٠٥؛ السيد: السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص٤٠.

الأندلس وفتح شنتمريه ولم تمض سنتان بعد هذا التاريخ حتى ظهر بمدينة السوس في المغرب الإفريقي المهدي بن تومرت[١].

توفي تميم بن يوسف سنة (٥٢٠هـ / ١١٢٦م) فخلفه على الأندلس ابن أخيه تاشفين بن علي، ومحمد بن غانية على الجزائر الشرقية "جزر البليار"، وتوفي علي بن يوسف سنة (٥٣٧هـ / ١١٤٣م) ولم يعكر صفو ملكه شيء أكثر من ظهور المهدي بن تومرت، حكم تاشفين بن علي بعد أبيه فنجح في غزواته ضد الإسبان، ولكنه فشل في وجه الموحدين الذين هزموه في معركة جرت قرب تلمسان تعرف باسم "يوم منداس" ومات سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٥م)[٢].

بعد أن ضيق عليه الأمير الموحدي عبد المؤمن بن علي (٤٨٧_٥٥٨هـ / ١٠٩٤_١١٦٣م) في حصنه على شاطئ وهران، فخلفه ابنه إبراهيم بن تاشفين سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٦م) الذي كان عاجزاً عن تدبير الأمور ومواجهة خطر الموحدين فخلعه المرابطون، وعينوا مكانه إسحق بن علي بن يوسف (٥٤٠_٥٤١هـ / ١١٤٦_١١٤٧م)، وكان دون سن البلوغ، وفي سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٦م) استولى عبد المؤمن بن علي على فاس ثم فتح مراكش سنة (٥٤١هـ / ١١٤٧م) بعد حصار تسعة أشهر وقتل شيوخ المرابطين وأميرهم إسحق لتنتهي بذلك دولة المرابطين[٣].

٢_ أسباب سقوط دولة المرابطين:

تربع المرابطون على كرسي الحكم قرابة قرن (٤٣٠_٥٤١هـ / ١٠٣٨_١١٤٧م) وكان من الممكن أن تستمر دولتهم أطول لولا العوامل التالية التي أدت إلى سقوط دولتهم:

أ- التزام المرابطون بتعاليم المذهب المالكي الذي نشره بينهم عبد الله بن ياسين وهذا **التحجر في التفكير** ضيق على حرية المذاهب حيث أحرقوا كتاب (إحياء علوم الدين) للغزالي وكفروا كل من قرأ هذا الكتاب، فاتساع نفوذ الفقهاء المالكيين وتعصبهم لمذهبهم كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين[٤].

١- حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص١٥٣؛ السويدان (طارق): الأندلس التاريخ المصور، الكويت، شركة الإبداع الفكري، ط١، ٢٠٠٥م، ص٣١٧.

٢- السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص٤٢؛ حركات: المغرب عبر التاريخ، ج١، ص١٦٨.

٣- أبو خليل: الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، ص٧٩؛ السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص٤٢.

٤- حركات: المغرب عبر التاريخ، ج١، ص١٦٩.

ب- **ضعف القيادة** إذ تم تسليم الحكم أحياناً لمن لا يستحق حيث قُلِّدَ إبراهيم بن تاشفين الحكم وهو ابن السادسة عشرة من عمره وأوضاع المرابطين في مهب الريح مع أن الحالة تستدعي أن يتولى رجل قوي الإدارة خبير بمكائد الأعداء لحفظ الدولة ورد خطط المتربصين[١].

ت- ومن العوامل التي أنهكت دولة المرابطين أنها مرت **بأزمة اقتصادية** حادة بالأندلس والمغرب في الفترة الواقعة بين عامي (٥٢٤_٥٣٠هـ / ١١٣٠_١١٣٦م)[٢].

ث- **انحراف نظام الحكم عن نظام الشورى إلى الوراثي** الذي سبب نزاعاً عنيفاً على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف ففقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى وتفجرت ثورات عنيفة في قرطبة وفاس ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية[٣].

ج- اختلال الأوضاع في المغرب والأندلس:

بدأ استبداد الأمراء المرابطين منذ عهد علي وتدخلت النساء في الشؤون السياسية ولم تكن هناك حركة تكتل ولو في دائرة صنهاجة المغرب للحلول دون زحف الموحدين ولم يستنجد المرابطون بجيشهم في الأندلس في الوقت المناسب بالإضافة إلى توغل النصارى في أرض المسلمين، وانتهز سكان الأندلس فرصة اضطراب الأحوال بالمغرب، فطردوا ولاة المرابطين، وتوزعوا مدن البلاد فيما بينهم، وإذ كانت الحالة السيئة بالأندلس لا تشكل عاملاً مباشراً في سقوط المرابطين، فقد كان من الممكن أن ينجد الأندلسيون أولياء نعمتهم ولكنهم في الواقع كانوا أحوج إلى لم شتاتهم من المرابطين وهم في أرض العدو[٤].

ح- الصراع السياسي الداخلي وظهور الموحدين:

الصراع الحاد بين الفئة التي ظهرت في مجتمع المسلمين وقام بها محمد ابن تومرت باسم الإسلام وبين المرابطين في عقر دولتهم في المغرب فقد استهلك هذا الصراع قوة المرابطين وأزال هيبتهم[٥].

١- السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص٣٣٣.

٢- الغناي (مراجع): قيام دولة الموحدين، ليبيا_ بنغازي، منشورات جامعة قاريونس، ط٢، ٢٠٠٨م، ص٣١.

٣- الصلابي (علي محمد): الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، القاهرة، الدار الإسلامية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م، ص٢٢٧_٢٢٨.

٤- حركات: المغرب عبر التاريخ، ج١، ص١٧٠؛ الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص٣١.

٥- الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ص٢٢٩؛ السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص٣٣٣.

وكان الموحدون حركة معارضة لفقهاء المالكية والمذهب المالكي نفسه في شخص المهدي بن تومرت وقد فشل المهدي في الاستيلاء على مراكش، ولكن خلفه عبد المؤمن بن علي تمكن من قهر المرابطين واقتحام عاصمتهم بعد أن استولى على قسم كبير من المغرب[١].

فظهور الموحدين والصدام المسلح الذي دار بين جيوش المرابطين وجيوش الموحدين كان من أهم الأسباب الرئيسية في زوال دولة المرابطين.

دولة الموحدين

أولاً_ فترة التأسيس:

١_ المؤسس محمد بن تومرت (٤٧٣_٥٢٤هـ / ١٠٨٠_١١٣٠م):

شهدَ مطلع (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) بداية حركة دينية إصلاحية تهدف إلى جمع كلمة المسلمين وحضهم على الجهاد بعد أن حل الضعف بالدولة المرابطية لعدة عوامل، ولعل ضعف الأمراء الذين تولوا الحكم بعد الأمير علي بن يوسف بن تاشفين كانت من أهم الأسباب بالإضافة إلى ظهور نشاط الموحدين في عدوة المغرب[٢].

إذ قام سنة (٥١٢هـ / ١١١٨م) رجل من قبائل مصمودة الأمازيغية "البربرية" يدعى محمد بن تومرت بثورة ضد المرابطين[٣]، كان محمد بن تومرت مهدي الموحدين، هو مرجع هذه الحركة الإصلاحية التي قامت في بلاد السوس قد قُدر لدعوتهِ أن تسيطر على المغرب العربي الإسلامي وإفريقيا وأكثر مناطق جزيرة الأندلس[٤].

أسس دولة الموحدين الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت بن عبد الله المعروف بـ محمد بن تومرت بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن

١- حركات: المغرب عبر التاريخ، ج١، ص١٦٩؛ الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ص٢٢٩؛ الغناي: سقوط دولة الموحدين، ص٣١.

٢- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٧٧.

٣- السرجاني (راغب): قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ٢ جزء، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ط١، ٢٠١١م، ج٢، ص٥٣٣.

٤- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٧٨؛ السرجاني: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج٢، ص٥٣٣.

يحيى بن عطاء بن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب "رضي الله عنه" الهرغي المصمودي من بلاد السوس بجبال أطلس[١].

بدأ حياته في طلب العلم وقام بعبور العدوة الأندلسية واتجه إلى قرطبة حيث لقي عدداً من العلماء الأندلسيين وأخذ عنهم العلم، ثم توجه في بداية (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) إلى بلاد المشرق العربي الإسلامي ودرس عن علماء مصر والشام ورحل إلى العراق واشتغل بالعلم ثم قصد الحجاز وحج وعاد إلى بلاده[٢].

اتخذ محمد بن تومرت راية التوحيد أساساً لدعوتهِ[٣]، وأظهر دعوته في تينملل[٤]، وخرج إلى المسجد وصعد المنبر وخطب الناس وأعلمهم أنهُ الإمام المهدي وبعدها دعا الناس إلى بيعتهِ وسمي كل من بايعه ودخل في طاعته بالموحدين[٥]، فالموحدون: هم الذين يعتقدون بوحدانية الله فيما يتعلق بالتركيب فيرون أنه ليس مكوناً في أجزاء اعتقادهم بوحدانيته في الوجود أي "أنه لا إله سواه" وهم أيضاً المؤمنين لأنه ليس على الأرض من يؤمن إيمانهم[٦].

بدأ محمد بن تومرت بتقوية سلطانه في بلاد المغرب والأندلس، وقام بنشر دعوته وسيطر على عدد من المدن المغربية ودانت له بعض القبائل منها قبيلة المصامدة وكدميوه وغيرها، وقامت معركة البحيرة سنة (٥٢٤هـ / ١١٣٠م) ضد المرابطين وانهزم فيها الموحدين وهذه الهزيمة

١- الزركشي (محمد بن إبراهيم، ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضوي، تونس، المكتبة العتيقة، ط٢، ١٩٦٦م، ص٣؛ العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص١٠٥.

٢- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، ص٢٢٥.

٣- النجار (عبد المجيد): تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، فرجينية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٥م، ص٦٣.

٤- تينملل: وتكتب تينمال وتينملل وتين ملل، وهي قرية بجنوب المغرب الأقصى وتقع على جبل عالٍ ويقع بها قبر المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي وابنه يوسف. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٦٥.

٥- ابن تومرت (محمد بن عبد الله، ت ٥٢٤هـ / ١١٣٠م): أعز ما تطلب، تح: عمار طالبي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥م، ص٢٢٥.

٦- خضر (سيفر): التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي، ٢ جزء، الجزائر، الأمل للدراسات، د. ت، ج١، ص٢٢٠.

أورثت محمد بن تومرت المرض فمات بعدها بأيام قليلة في يوم الخميس (٢٥ رمضان سنة ٥٢٤هـ / ٣١ آب ١١٣٠م)[١].

٢_ عبد المؤمن بن علي (٥٢٤_٥٥٨هـ / ١١٣٠_١١٦٤م):

أ_ توطيد دولة الموحدين:

بعد وفاة ابن تومرت كتم أصحابه وفاته ثلاث سنوات ولم يعلنوها إلا في سنة (٥٢٧هـ / ١١٣٣م) بعد أن اتفقت كلمتهم على عبد المؤمن بن علي الكومي (٤٨٧_٥٥٨هـ / ١٠٩٤_١١٦٣م)، الذي كان الساعد الأيمن لابن تومرت[٢]، وهو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا بن مروان بن نصر بن عامر بن أمير بن عون بن يحيى بن ورزايم بن صطفور بن قيس بن عيلان بن نزار بن معد بن عدنان[٣].

حيث بويع البيعة الأولى سنة (٥٢٤هـ / ١١٣٠م) وتمت البيعة الثانية سنة (٥٢٧هـ / ١١٣٢م) [٤] وكانت توليته بداية عهد جديد لتوطيد أركان هذه الدولة الفتية، وكانت مهمته صعبة إذ تعين عليه القضاء النهائي على دولة المرابطين، ثم ضم المغربين الأوسط والأدنى وبانضمام القبائل حوله واصل كفاحه ضد أعدائه[٥]، فمن أهم ما قام به من فتوحات في سنة (٥٢٦هـ / ١١٣٢م) سيطر على درعه وحصن تازا جورت[٦]، في سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٤م) استيلائه على تلمسان، من أيدي المرابطين ثم تلا ذلك دخول الموحدين إلى وهران[٧]، وفي سنة (٥٤٠هـ /

١- البيدق (أبي بكر بن علي الصنهاجي، ت ٥٥٩هـ / ١١٦٤م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، دار المنصور، ١٩٧١م، ص٨٠؛ مكي (محمود علي): وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٤م، ص٣٢؛ إسماعيل (مقدم محمد): المهدي، الإسكندرية، الدار العالية، د. ت، ص٤٠٢.

٢- الكومي: نسبة إلى كومية وهي إحدى القبائل النازلة بساحل البحر في أعمال تلمسان. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، ج٣، ص٢٤٠.

٣- ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص١٨٣؛ الزركلي: الأعلام قاموس وتراجم أشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج٤، ص١٧٠.

٤- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٣١.

٥- حسن (ابراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤ أجزاء، بيروت، دار الجيل، ط١٤، ١٩٩٦م، ج٤، ص٢٠٨.

٦- ابن القطان (علي بن محمد بن عبد الملك، ت ٦٢٨هـ / ١٢٣١م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: تح: محمود علي مكي، الرباط، المركز الجامعي للبحث العلمي، د. ت، ص٢٢٥.

٧- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد٨، ص٦٦٢.

وهران: مدينة على البر الأعظم في المغرب، وأكثر أهلها تجار، وتميزت بالحصانة ووفرة مياهها بينها وبين تلمسان مسير ليلة. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣٨٥.

١١٤٥م) استولى عبد المؤمن بن علي على فاس، بعد حصار طويل وهدم أسوارها[١]، فغدا الطريق ممهداً لدخوله مراكش عاصمة المرابطين فتم لهُ ذلك في سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م)، ثم تطلع إلى المغربين الأدنى والأوسط فاستولى على بجاية[٢] دون مقاومة سنة (٥٤٧هـ / ١١٥٢م) من حاكمها يحيى بن العزيز بالله الصنهاجي[٣].

وقصد مدينة المهدية[٤] فحررها من احتلال النورمانديين[٥] لها، كما سيطر على مدينة تونس[٦]، تونس[٦]، وبذلك وحد بلدان المغرب العربي الإسلامي تحت راية واحدة، ثم التفت بعدها إلى شؤون شؤون الأندلس فأمن لها الحماية الكافية والرعاية والاهتمام[٧].

ب_ الدور السياسي والعسكري لعبد المؤمن في الأندلس:

خلال فترة ضعف الحكم المرابطي، قامت جيوش الممالك المسيحية بامتلاك العديد من المدن الأندلسية التي كانت منها شنترين[٨] وباجة[٩] وماردة[١٠] وأشبونة[١١] والمرية[١٢] وبياسة[١٣] وجميع أراضي ولاية جيان[١] وطرطوشة وسائر المعاقل المجاورة لها.

١- البيدق: أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، ص٦٣.

٢- بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كانت قديماً ميناء فقط، ثم بنيت المدينة وهي في كف جبل شاهق وفي قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بني حماد. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٣٩.

٣- علام (عبد الله): الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، الجزائر، المكتبة الوطنية، ٢٠٠٧م، ص١١٢_١١٣.

يحيى بن العزيز بالله الصنهاجي: وهو آخر ملوك بني حماد أصحاب القلعة حكم من سنة (٥١٥_٥٤٧هـ / ١١٢١_١١٥٢م). مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص١٥٢.

٤- المهدية: مدينة محدثة بساحل إفريقية، بينها وبين القيروان ستون ميلاً. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٦١.

٥- النورمان: هم أهل الشمال وعرفوا في التواريخ الأوربية باسم الفايكنج، ومواطنهم الأولى شبه جزيرة اسكنديناده "السويد والنرويج وشبه جزيرة جوتلند وما يجاورها من الجزائر". عاشور (سعيد): تاريخ أوربا، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م، ص١٧٤.

٦- تونس: مدينة كبيرة بإفريقيا على ساحل بحر الروم "البحر المتوسط". الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص٦٠، ٦٢.

٧- زكار (سهيل)، الكلاس (فايزة): تاريخ الأندلس، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٥م، ص٢٩٣.

٨- شنترين: هي مدينة على جبل عالي في كور باجة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٤٦.

٩- باجة: تسمى باجة القمح وهي قريبة من قرطبة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٧٥.

١٠- ماردة: من أحواز قرطبة. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥١٨.

١١- أشبونة: هي حصن كور باجه، على طريق العساكر. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٦١.

١٢- المرية: من أشهر المراسي الأندلسية. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٣٧.

١٣- بياسة: هي مدينة مطلة على النهر الكبير. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٢١.

ونتيجة هذه الاضطرابات في الأندلس قام بعض المتمردين بإعلان استقلالهم عن المغرب العربي الاسلامي وتكوين إمارات تابعة لهم وهذا ما جعل المؤرخين يطلقون على هذه الفترة _أي الانتقال من حكم المرابطين إلى حكم الموحدين _بعصر الطوائف الثاني_ (٥٣٨_٥٥٢هـ / ١١٤٤_١١٥٧م)[٢]، ونظراً للأوضاع السائدة من ضعف وتكالب الإسبان على المدن الأندلسية، عبر العديد من أهل الأندلس إلى المغرب العربي الإسلامي يرافقهم العلماء والفقهاء والقضاة وبعض الشخصيات الأندلسية طالبين العون من الأمير الموحدي عبد المؤمن بن علي[٣].

وكان في مقدمة المتصلين بالموحدين في المغرب من أهل الأندلس علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي في مدينة قادس[٤] وكان له دور في تسهيل مهمة عبور الموحدين من المغرب العربي الإسلامي عبر البحر إلى الأندلس. كما وفدَ سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م) وفد على عبد المؤمن بن علي مؤلف من زعماء الأندلس بقيادة أبو العمر بن عزون حاكم مدينة شريش[٥] الذي قدم الطاعة والولاء للموحدين، ومن الوفود أيضاً جماعة من أهل الأندلس منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن حمدين[٦]، وقدموا البيعة من أهل الأندلس لعبد المؤمن فقبل عبد المؤمن طاعتهم[٧].

كما قام بالثورة أيضاً أحمد بن قسي[٨] في مير تله[٩] ولم يلبث أن خلع منها ودخل في طاعة الموحدين سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٦م) حيث عهدوا إليه بالولاية على شلب، حاول التعاون مع

١- جيان: وهي مدينة كثيرة الخصب على سفح جبل عالٍ. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٣٨.

٢- أبو رميلة (هشام): علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، الأردن، دار الفرقان، ط١، ١٩٨٤م، ص١٠٢؛ مؤنس (حسين): موسوعة تاريخ الأندلس "فكر تاريخ حضارة وتراث"، ٢ جزء، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص١٠٢.

٣- دندشي: الأندلس من نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص١٠٤.

٤- قادس: في غربي الأندلس تقارب أعمال شذونة. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٢٩٠.

٥- شريش: من المدن الحصينة التابعة لكورة شذونة بالأندلس. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٤٠.

٦- أحمد بن محمد بن حمدين: وهو أحد قضاة قرطبة، استقل بها بعد ثورته على المرابطين سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٥م) وتوفي سنة (٥٤٦هـ / ١١٥١م). الضبي: بغية الملتمس من تاريخ رجال أهل الأندلس، ج١، ص٣٤٣.

٧- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد٩، ص٣٤٢.

٨- أحمد بن قسي: هو أحمد بن الحسين بن قسي (أبو القاسم) أول الثائرين بالأندلس، وهو نصراني عمل مشرفاً بشلب واستولى على مير تله سنة (٥٣٩هـ / ١١٤٤م) وقام بتشجيع مناطق غرب الأندلس على الثورة وعندما استولى أبو محمد سداري بن وزير صاحب باجه على مير تله جاز ابن قسي إلى عبد المؤمن بن علي تائباً سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) مما شجع الخليفة الموحدي بالتدخل لحماية الأندلس وتوحيدها. عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٥، ص٣٠٧، ٣١١.

٩- مير تله: حصن من أعمال باجه. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٢.

نصارى البرتغال مما أدى إلى فتك السكان به ونصبوا بدلاً منه ابن المنذر الأعمى[1] معلنين الطاعة للموحدين سنة (٥٤٦هـ / ١١٥١م).[2]

وقامت الجيوش الموحدية والتي عبرت الأندلس سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م) بمهاجمة شريش ورنده[3] ثم دخلوا البله[4]، وفيها يوسف بن أحمد البطروجي الذي انتظم في طاعة الموحدين[5]، وساروا إلى باجة وبطليوس وانضم إليهم أبو محمد سدراي ابن وزير[6] وتلاه سقوط إشبيلية في أيديهم أيديهم ومالقه[7] أيضاً.

ولكن مع الأسف عاد بعض الثوار السابقين إلى الخروج على طاعة الموحدين مرة أخرى بينما ظل ابن عزون وشريش في طاعتهم، فأرسل عبد المؤمن بن علي جيشاً قوياً تمكن من بسط نفوذ الموحدين على بطليوس وشنتمرية[8] وقادس وشلب ولبلة ودخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحدين سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م)، بينما استولى النصارى على المرية سنة (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) واسترجعها الموحدون سنة (٥٥٢هـ / ١١٥٧م)، وكذلك تمكن الموحدون من الاستيلاء على غرناطة[9].

على أن أهم ما واجه الأندلس في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي الثورة في شرق الأندلس، إذ أن الموحدين استطاعوا السيطرة على غرب الأندلس ووسطه وجنوبه ما عدا شرقهِ،

١- ابن منذر الأعمى: هو أبو الوليد محمد بن المنذر الثائر في شلب وهي مدينة في غربي الأندلس. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٢.

٢- الغناي: قيام دولة الموحدين، ص٧٨.

٣- رنده: معقل حصين في أعمال تاكرنا وقيل حصن بين إشبيلية ومالقه. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٧٣.

٤- لبله: شرق أكشونبه وغربي قرطبة. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٠.

٥- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، ص٢٣٤.

٦- ابن وزير: هو أبو محمد سيدراي، وكان أميراً بغرب الأندلس في باجة وبطليوس، وتغلب على ابن قسي سنة (٥٤٠هـ / ١١٤٥م) ثم دخل في طاعة الموحدين. ابن الأبار (محمد بن عبده القضاعي، ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م): الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، ٢ جزء، القاهرة، الشركة القومية للطباعة، ١٩٦٣م، ج٢، ص٢٧١.

٧- مالقه: من أعمال ريه. الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٤٣.

٨- شنتمرية: مدينة من مدن اكشونبه، وهي أتقن حصون مبتناه على نهر أرغون. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٤٧.

٩- الصلابي (علي محمد): صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين"، عمان، دار البيارق للنشر، ١٩٩٨م، ص١١٤. ص١١٤.

وكان مركز هذه الثورة مدينة بلنسية، وقد قاد هذه الثورة محمد بن سعد بن مردنيش[1] (٥١٨_٥٦٧هـ (٥١٨_٥٦٧هـ / ١١٢٤_١١٧٢م) وساعده صهره إبراهيم بن همشك[2] المتوفى (٥٧٢هـ / ١١٧٦م) واستعان ابن مردنيش بالنصارى، فدارت بينه وبين الموحدين معركة قوية كان النصر فيها للموحدين على ابن مردنيش وابن همشك وحلفائهم النصارى عرفت بموقعة السبيكة[3] في (٢٨ رجب سنة ٥٥٧هـ / ١٢ تموز ١١٦٢م).

وبعد انتصار الموحدين على ابن مردنيش وحلفائه بدأ الخليفة عبد المؤمن بن علي، يتأهب للقيام بحملة كبيرة إلى الأندلس بحيث يقوم بالقضاء على ابن مردنيش من جهة ويقوم بالجهاد ضد النصارى من جهة أخرى وظل يستعد لهذه الغزوة الكبرى[4]، إلى نهاية سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م) وخرج من مراكش قاصداً الأندلس ثم نزل برباط الفتح بمدينة سلا غير أنه مرض وتوفي في تلك السنة[5] ولقد طال جهاد الموحدين في الأندلس بدايةً من سنة (٥٤١هـ / ١١٤٧م) ١١٤٧م) وامتد إلى عهد خلفاء عبد المؤمن بن علي الذين سيكملون تحقيق حلم أبيهم ويطيلون في عمر دولة الأندلس مؤخرين سقوطها في يدي النصارى[6].

١- محمد بن سعد بن مردنيش: هو أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي بن مردنيش ولدَ سنة (٥١٨هـ / ١١٢٤م) في إحدى قلاع طرطوشة، كان كثير التشبه بالنصارى في الزي والملابس، ظهر في فترة انتقالية حرجة انهار فيها حكم المرابطين للأندلس، إذ بدأت تزداد الغارات الإسبانية والاعتداءات على الأراضي الخاضعة لسلطان المرابطين. عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق٢، ص٣٦٥_٣٦٦.

٢- إبراهيم بن همشك: ساعدَ محمد بن مردنيش في ثورتِهِ ضد الموحدين، لكنهُ دخل في خدمة الموحدين في أواخر أيام حكمهِ، أصلهُ نصراني نزح جده إلى سرقسطة واعتنق الإسلام كان مقطوع أحد الأذنين فقالت النصارى همشك أي مقطوع الأذن، أصهر إلى ابن مردنيش وأصبح من أخلص جنوده ورجاله. عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق٢، ص٣٦٥_٣٦٦.

٣- السبيكة: أرض خصبة في الجنوب الشرقي لقصر الحمراء، عن تفاصيل ذلك انظر إلى. ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، ت ٥٩٤هـ / ١١٩٧م): المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، تح: عبد الهادي التازي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٩م، ص١٨١، ١٩٤.

٤- قصاري (سكورة)، سوداني (نعيمة): عبد المؤمن بن علي ودوره في الدولة الموحدية، رسالة ماجستير، الجزائر، جامعة جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة، غير منشورة، ٢٠١٥م، ص٤٥_٤٦.

٥- أبو الفدا: التبر المسبوك في تواريخ الملوك، ص٦٤.

٦- قصاري ، سوداني: عبد المؤمن بن علي ودوره في الدولة الموحدية، ص٤٥_٤٦.

ثانياً_ فترة الازدهار:

١_ أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٥٨_٥٨٠هـ / ١١٦٢_١١٨٤م):

هو السلطان الكبير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي صاحب المغرب، قيل بأنه تملك بعد أخيه المخلوع محمد لطيشهِ وشربه الخمر[١]، تولى أمور الدولة خلفاً لعبد المؤمن بن علي سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م)، واجه عدداً من الثورات في المغرب والأندلس تمكن من القضاء عليها في المغرب.

وفي ميدان الأندلس حيث نجد ثورة ابن مردنيش ما زالت مستمرة حيث عاد لمهاجمة غرناطة سنة (٥٦٠هـ / ١١٦٤م) ثم تركها وقد حزم الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الأمر للقضاء عليه فوقعت معركة فحص الجلاب[٢] في العام نفسه فكانت الهزيمة على ابن مردنيش ضربة قاسية، بدأ أنصار ابن مردنيش بالتخلي عنه وواصل الموحدين سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م) تطهير شرق الأندلس وتوفي قائد هذه الثورة في مرسيه (٥٦٧هـ / ١١٧١م)[٣].

وبعد استقرار أمور الموحدين السياسية أصبح الوقت ملائماً لجهادهم ضد النصارى وحماية الأندلس ضد غاراتهم، ففي سنة (٥٦٣هـ / ١١٦٧م) تحالف مع صاحب ترجاله[٤] فرنانده رايس النصراني[٥].

وفي سنة (٥٦٧هـ / ١١٧١م) قاد أبو يعقوب جيشه إلى الأندلس مجاهداً ضد مملكة قشتالة فكانت موقعة وبذه[١] وكانت دون نتيجة حاسمة، ثم واصل الخليفة طريقه إلى إشبيلية فوصلها سنة

١- موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٨١.

٢- فحص الجلاب: يقع على بعد عشرة أميال جنوبي مرسية. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٢٧٩.

٣- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق٢، ص٤٦، ٥٧.

٤- ترجاله: في الأندلس وتقع غرب طليطلة في الشمال الشرقي من بطليوس وفي الجنوب الشرقي من قاصرش. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٣٨١.

٥- عقب وفاة القيصر ألفونس ريمونديس سنة (٥٥٢هـ / ١١٥٧م) قسمت اسبانيا النصرانية بين ولديه حيث اختص سانشو بعرش قشتالة واختص ابنه الأصغر فرناندو بمملكة ليون وجيليقية، ولكن توفي سانشو سنة (٥٥٣هـ / ١١٥٨م) تاركاً طفلاً صغيراً لوراثة العرش فقامت بقشتالة حروب شديدة بين أسرتي كاسترو ولارا لعدة أعوام حول مسألة الوصاية على الأمير الطفل ثم تولى الملك عند بلوغهِ الحادية عشر من العمر تحت رعاية أسرة لارا القوية وخلال العصر الموحدي كانت اسبانيا النصرانية منقسمة الى أربعة ممالك هي(قشتالة، ليون، أراغون، نافار "نبرة"). عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق٢، ص٥٨٣، ٥٨٦، ٥٩٣، ٦٠١_٦٠٢، ٦٠٩_٦١٠.

سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) وفي العام نفسهِ ألحق الموحدون الهزيمة بحاكم أبلة الكونت خمينو كركوي[٢] وأعقب هذا صلحاً بين الموحدين وقشتالة في العام نفسهِ.

وفي سنة (٥٧٣هـ / ١١٧٧م) سقطت كونكه[٣] في يد القشتاليين ويعد سقوطها ثغرة في خط الدفاع الشمالي الشرقي للأندلس ودليلاً على ضعف الدفاع الموحدي، وفي سنة (٥٥٧هـ / ١١٨١م) ازدادت غارات القشتاليين على المناطق الإسلامية.

أ_ غزوة شنترين (٥٨٠هـ / ١١٨٤م):

قام ملك قشتالة ألفونسو الثامن (٥٥٠_٦١١هـ / ١١٥٥_١٢١٤م) سنة (٥٧٨هـ / ١١٨٢م) بمهاجمة المدن الأندلسية وعاث فيها فقام الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتجهيز حملة وحاصر مدينة شنترين وكاد أن يحقق نصراً مؤزراً، لكن بعض قادة الجيش الموحدي أساؤوا فهم الأوامر التي أصدرها أميرهم يوسف وكانت النتيجة أن داهمت القوات القشتالية الجيش الموحدي وكان فيها أمير الموحدين أبو يعقوب يوسف فأصيب بجراح توفي على أثرها في (ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ / آب ١١٨٤م)[٤].

ب_ الجهاد ضد البرتغاليين:

وأما عن جهاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ضد البرتغاليين الذين استولوا على أشبونه سنة (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) وعلى شنتره[٥]، بمساعدة الصليبيين المتجهين إلى المشرق وعلى قصر

١- وبذه: هو حصن قديم سماه الرومان عندما استولوا على إسبانية (JULIA_OPTA) وحذف العرب صدر الكلمة ويوجد في مقاطعة كونكه. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٥٢٤.

٢- أبلة: مدينة قديمة تبعد عن مجريط ١١٣ كم. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٣٠٨.

وأما الكونت خمينو فيعرف بالقومس سان منوس أو شان منوس أو الأحدب عظيم النصارى، ولقي مصرعه في كركوي وقد يكون إطلاق الأحدب عليه من قبيل السخرية. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٣٠٨.

٣- كونكه: مدينة أندلسية على نهر شقر، تبعد ١٦٥ كم عن مجريط (مدريد) من الناحية الشرقية. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٥٤٢.

٤- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٢١٥؛ ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الخطيب، ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م): شرح رقم الحلل في نظم الدول، تح: غسان درويش، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠م، ص٢٠٠؛ البستاني (بطرس): معارك العرب في الأندلس، لبنان، دار مارون عبود، ١٩٧٨م، ص٨٦.

٥- شنترة: هي مدينة من أعمال لشبونة بالأندلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٣٦٧.

الفتح[1] وباجة وعدد من المناطق الأخرى، لم يكن قاصراً على الناحية البرية بل كانت هناك معارك بحرية وهزم الموحدون من قبل النصارى عند محاولتهم غزو بورتودي موسى سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م) ثم عاد الموحدون وهزموهم سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م)[2].

أما مملكة ليون والتي كانت من نصيب الأمير فرديناالد الثاني (٥٣١_٥٨٤هـ / ١١٣٧_١١٨٨م) عقب وفاة أبيه ألفونسو السابع سنة (٥٥٢هـ / ١١٥٧م)[3]، فمن أهم ما يميز علاقته بالموحدين عقده لمعاهدة صداقة معهم سنة (٥٦٣هـ / ١١٦٧م) طالباً مساعدته على قتال القمط نونه لارا المسيطر على ابن أخيه ألفونسو الثامن في قشتالة، مقابل تعهد الملك فرديناالد الثاني بمساعدة الموحدين ضد أعدائهم من النصارى ولكن ما لبث أن قام الأمير فرديناالد الثاني سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) بنقض صلحه مع الموحدين وهاجم القواعد الأندلسية وعاث فيها خراباً ونهباً وقتلاً[4].

فرد الموحدين عليه بغزو السبطاط[5] سنة (٥٧٠هـ / ١١٧٤م)، غير أن الحملة فشلت لعدة أسباب منها مناعة المدينة ودخول فصل الشتاء واستماتة الملك فرديناالد في الدفاع عنها[6]، لكنها تعد من جهة أخرى موقعة مهمة لأنها أول لقاء مباشر بين مملكة مسيحية وجيوش الموحدين وتعكس قدرات الموحدين حيث استطاعوا الاستيلاء على بعض الحصون الحدودية كحصن القنطرة وحصن ناطوس[7].

١- قصر أبي الفتح: أو قصر أبي دان يقع جنوبي مدينة لشبونة على بعد ٦٤ كم. الفاسي (محمد): "الأعلام الجغرافية الأندلسية"، مجلة البينة، العدد٣، الرباط، ١٩٦٢م، ص٣٣.

٢- ابن عذارى: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص١٤٣_١٤٥.

٣- فرديناالد الثاني: عرف بصاحب السيطاط، البيبوج وتعني كثير اللعاب وذلك تحقيراً له وهو مرادف لكلمة الأحمق. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٢١٦.

٤- ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٢٣٥.

٥- السبطاط: هي مدينة بجنوب طليطلة. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، ص٢٢٠.

٦- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص١٠٤.

٧- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق٢، ص٩٢؛ شيخة (جمة): الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، تقديم: محمد الطالبي، ٢ جزء، تونس، المطبعة المغاربية، ط١، ١٩٩٤م، ج٢، ص١٥١.

أما مملكة نبرة[1] التي انفصلت عن أرغونة سنة (٥٢٨هـ / ١١٣٣م) حيث حكمها غرسيه راميريس وخلفه على عرشها سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م) الملك سانشو السادس (٥٢٦_٥٩٠هـ / ١١٣٢_١١٩٤م) الملقب بالعالم الذي قام بمساعدة ابن مردنيش في حروبه ضد الموحدين سنة (٥٥٦هـ / ١١٦٠م)، وظل حاكماً لها حتى نهاية حكم الخليفة أبي يعقوب يوسف وجزءً كبيراً من عهد ابنه الخليفة يعقوب المنصور أبو يوسف ثم خلفه على عرشها (٥٩١هـ / ١١٩٤م) الملك سانشو السابع الملقب بالقوي (٥٤٩_٦٣١هـ / ١١٥٤_١٢٣٤م)[2].

أما مملكة أرغونة[3] فتولى حكمها عقب انفصالها عن نبرة سنة (٥٢٨هـ / ١١٣٣م) الراهب راميرو الثاني (٤٥٦_٥٢٨هـ / ١٠٧٣_١١٣٤م) شقيق ألفونسو المحارب ولكنه لم يلبث أن عهد إلى كونت برشلونة لعجزه عن تصريف شؤونها، كما قام الملك راميرو الثاني بتزويج ابنته سنة (٥٣١هـ / ١١٣٦م) لكونت برشلونة مما ترتب عليه اتحاد الدولتين وكان من أهم أحداث (القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي).

عقب وفاة الكونت خلفه على العرش ألفونسو الثاني سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٢م)، قام الملك ألفونسو الثاني بمحاولة الاستيلاء على بلنسية سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) وفشل في ذلك وحاول مرة أخرى سنة (٥٧٥هـ / ١١٧٩م) مما أثار قلق قشتالة لذلك قررت عقد معاهدة مع أرغونة لتحديد مناطق غزوهما للأندلس.

وأما عن علاقة مملكة أرغونة مع دول النصارى فقد ساهمت في عهد ملك قشتالة رامون برنجير الرابع (٥٢٥_٥٥٧هـ / ١١٣١_١١٦٢م) في الاستيلاء على المرية سنة (٥٤٢هـ / ١١٤٧م) وطرطوشة وبقية قواعد الثغر الأعلى مسيطرة بذلك على مدن وأراضي وادي ايبرو من منابعه إلى مصبه.

وفي عهد الملك ألفونسو الثاني سعت أرغونة لتسوية المشاكل بينها وبين قشتالة وللتحالف ضد الممالك النصرانية في اجتماع ساها جون سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م)، وأسهمت مع قشتالة

١- نبرة: تقع في المنطقة الجنوبية في جبال ألبرت في بلاد البشكنس بسكاية الجبلية، خضعت هذه المملكة قبل قيامها إلى سلطة النبلاء التابعين للفرنج وأمراء كنتبريه واشتريس قاعدتها مدينة ينبلونة. القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج٥، ص٢٧١.

٢- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق٢، ص٦٠٨.

٣- أرغونة: تقع هذه المملكة في الجهة الشرقية من شبه الجزيرة الإيبرية، وشملت على كل من برشلونة وقطلونية وأرغون تشكلت سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٧م). القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥، ص٢٧٠.

في الاستيلاء على كونكه سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م) كما حاول الفريقان الاتفاق بشأن مدينة شنتمرية حيث كانت المدينة من نصيب أرغونة وحصونها من نصيب قشتالة وقد اعترف حاكم المدينة وهو الفارس بيدرو دي أساجر بطاعة قشتالة[١].

٢_ أبو يوسف يعقوب المنصور بن يوسف (٥٨٠_٥٩٥هـ / ١١٨٤_١١٩٨م):

هو أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القسي الكومي صاحب بلاد المغرب، لما مات والده اجتمع رأي أشياخ الموحدين على تقديمه فبايعوه ودعوه أمير المؤمنين ولقبوه المنصور، استقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات فقد استطاع أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف المنصور أن يؤمن خط ظهره ويوحد الجبهة الداخلية وأعاد تنظيم البيت المغربي الموحدي في الداخل وأمن خطر القبائل العربية ووظف طاقاتها في حربه في الأندلس، ولذلك أرجأ جهاد النصارى في الأندلس إلى حين الانتهاء من مشاكل بني غانية وحلفائهم وهذا يدل على عمق تفكيره الاستراتيجي وبعد نظره العسكري[٢].

أ_ جهاده في الأندلس ضد الممالك النصرانية:

تعد مملكة قشتالة أكبر الممالك النصرانية رقعةً وأوفرها قوةً ومواردًا، تميزت هذه المملكة بنشاط غاراتها ضد المدن الإسلامية وتحريض محمد بن مردنيش ضد الموحدين، وبعد تولي أمير المؤمنين يعقوب المنصور مقاليد الحكم انشغل بأمور الدولة الداخلية والقضاء على حركات بني غانية فاستغلت الممالك النصرانية انشغاله في إفريقيا وفي سنة (٥٨٥هـ / ١١٨٩م) قام النصارى بغزوتين على طليطلة وقلعة رباح[٣] ثم قام ملك قشتالة بغارة على إشبيلية وأم غزالة[٤] وقلعة جابر[٥]

١- عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج٣، ق٢، ص٣٧٠، ٦٠١_٦٠٢.

٢- الصلابي: صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين"، ص١٥٨، ١٧٠.

٣- قلعة رباح: مدينة بالأندلس وهي غربي طليطلة وبين المشرق والجوف في قرطبة، وقد شيدها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٣٨هـ / ٨٥٢م). الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٣.

٤- أم غزالة: حصن من أعمال ماردة بالأندلس. الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٢٥٤.

٥- قلعة جابر: على مقربة من إشبيلية وتعرف بحسنها في المروج والمياه وكثرة الطير. ابن سعيد (علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد اليحصبي، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م): المُغرب في حُلى المغرب، تح: شوقي ضيف، ٢ جزء، القاهرة، دار المعارف، ط ٣، ١٩٥٥م، ج١، ص٢٩١.

وحصن شلير[1]، وقد أزعج أمير المؤمنين يعقوب المنصور ما وصله من أنباء غارات النصارى على الأندلس[2].

فأعد الخليفة المنصور جيوشه وعبر إلى الأندلس سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م) مجاهداً، لكن ما لبث ملك قشتالة ألفونسوا الثامن (٥٥٣_٦١١هـ / ١١٥٨_١٢١٤م) أن سارع بإرسال رسلةُ طالباً الصلح والهدنة، فعقد الموحدون الهدنة معه لمدة خمس سنوات، وفي سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م) أوفد ملك قشتالة ألفونسو الثامن رسول إلى المنصور مؤكداً التزامه بالمعاهدة المعقودة بينهما وفي سنة (٥٨٨هـ / ١١٩٢م) أوفد رسول مرة أخرى إلى مراكش للتأكيد على الالتزام بالمعاهدة مع استمرار غاراتهِ ضد مسلمي الأندلس، وفي سنة (٥٩٠هـ / ١١٩٤م) عزم الخليفة القضاء على ثورة بني غانية في هذا الوقت قام ملك قشتالة بإنذار ولاة المدن الإسلامية واشتدت وطأة النصارى على الأندلس، فانتهى ذلك إلى الخليفة يعقوب المنصور فجمع العساكر وعبر المجاز إلى الأندلس[3]، فكانت موقعة الأرك الخالدة.

ب_ معركة الأرك (٥٩١هـ / ١١٩٥م):

وقعت هذه المعركة إلى الشمال من مدينة قرطبة في مكان قريب من حصن الأرك الواقع على أحد فروع نهر وادي آنه شمالي قلعة راح، وهذا المكان مدينة ثيودادربالة الحالية[4].

وقد مهدت لهذه المعركة ظروف مختلفة بعضها يتعلق بالجانب الإسباني وبعضها بالجانب الموحدي.

ظروف المعركة:

تعرضت الممالك المسيحية في (القرن السادس الهجري / نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلادي) لأحداث كثيرة شغلتها عن التصدي للموحدين في الأندلس وكانت قشتالة هي المملكة المسيحية الوحيدة المستقرة بقيادة ملكها ألفونسو الثامن، استغل ملك قشتالة ألفونسو

١- حصن شلير: هو عبارة عن جبل من أعمال البيرة وسمي بهذا الاسم نسبة إلى المنطقة. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٦٠.

٢- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٢٠٣.

٣- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، مجلد٩، ص٢٢٣.

٤- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص١٦٣.

الثامن انشغال الخليفة الموحدي يعقوب المنصور بقمع ثورة بني غانية في المغرب وهاجم المدن الأندلسية وسيطر على بعض الحصون[١].

وبدأت ظروف المعركة المتعلقة بالجانب الموحدي بتولي الأمير يعقوب المنصور وبدأ بإعادة تنظيم البيت الموحدي من الداخل وأمن خطر القبائل العربية ووضع حداً لثورة بني غانية في المغرب، وتفرغ الخليفة يعقوب المنصور لمجابهة ملك البرتغال سانشو الأول الذي هاجم المدن الأندلسية سنة (٥٨٥هـ / ١١٨٩م) وسيطر على شلب، فعندما سمع الخليفة يعقوب المنصور ذلك عبر إلى الأندلس سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م) وتمكن من استعادة شلب ومدينة قصر أبي دانس وهذا ما دفع ملك قشتالة ألفونسو الثامن إلى طلب عقد هدنة مع الموحدين وتم عقد هدنة مدتها خمس سنوات[٢].

استغل ملك قشتالة ألفونسو الثامن هذه الهدنة في حشد الجند وما أن انتهت الهدنة حتى قام ملك قشتالة بإنذار المدن الإسلامية ومهاجمة الأراضي الأندلسية، مما اضطر هؤلاء إلى الاستعانة بالخليفة يعقوب المنصور فأمر بحشد الجيوش، عبر إلى الأندلس سنة (٥٩١هـ / ١١٩٥م) ونزل الجزيرة الخضراء[٣] وطريف[٤] ثم غادرها إلى إشبيلية[٥].

الاستعداد للمعركة:

اهتم الخليفة يعقوب المنصور اهتماماً كبيراً بتنظيم جيشه ليحرز النصر وفيما يلي تفاصيل ذلك:

١- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٨٢؛ ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص١٧٥؛ ابن أبي دينار (محمد بن أبي قاسم القيرواني، ت ١١١٠هـ / ١٦٩٨م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، بيروت، دار المسيرة، ط٣، ١٩٩٣م، ص١٤٢.

٢- ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص١٧٧؛ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: محمد جابر عبد العال وآخرون، ٣٣ جزء، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م، ج٢٤، ص٣٣١.

٣- الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣٦.

٤- طريف: جزيرة على البحر الشامي في أول المجاز المسمى بالزقاق ومنها إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٩٢.

٥- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٨٢؛ الناصرى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص١٦٧.

التنظيم التعبوي:

ضم جيش الموحدين في معركة الأرك فرقاً عديدة وقد تم تشكيلها من القبائل البربرية والعربية والإفريقية ومن أهل الأندلس، وبلغ تعداد هذا الجيش مائتي ألف مقاتل وانضم إليهم ألف مقاتل من المطوعة، أسند الخليفة يعقوب المنصور قيادة الجيش لأبي يحيى بن محمد بن حفص الذي بقي مع بقية الجند في المؤخرة، أما الفرق المشكلة من القبائل العربية والبربرية فقد أسند قيادتها لشيوخ تلك القبائل، ثم قسم المنصور جيش الموحدين إلى خمسة أقسام هي: القلب والميسرة والميمنة والمقدمة والمؤخرة[١].

أما الجيوش المسيحية فقد ضمت عناصر من مملكة قشتالة والممالك المسيحية الأخرى وخاصة مملكة ليون، وبلغ تعداد هذه الجيوش مائتين وأربعين ألف مقاتل[٢].

سير المعركة:

نظم جيش الموحدين صفوفه استعداداً لخوض معركة الأرك وبدأت المعركة يوم الأربعاء (٩ شعبان سنة ٥٩١هـ / ١٨ تموز ١١٩٥م)[٣]، بهجوم الفرسان المسيحيين في ثلاث هجمات متتالية محاولين اختراق صفوف المسلمين لكن حملة الرماح ردوهم، ثم عاد أولئك الفرسان وشنوا هجوماً على قلب الجيش الإسلامي وقتلوا في هذا الهجوم قائد الجيش الموحدي أبا يحيى بن أبي حفص، وعندئذ أطبقت عليهم ميمنة الجيش الموحدي وميسرته فقتلوا الكثير منهم[٤]، ثم تتابعت هجمات الموحدين على جيش الأعداء وألجأوا أعداداً كبيرة منه إلى حصن الأرك حيث حصرهم المسلمون، ثم اقتحموا الحصن عليهم وأعملوا فيهم السيف وأجبروا الباقين منهم على الفرار،

١- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، ص٢٤٥؛ الناصرى، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص١٦٩؛ الغنيمي (عبدالفتاح مقلد): مأساة الفردوس المفقود، بيروت، دار الكتب القومية، ١٩٩٣م، ص٣١١.

٢- ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٧ أجزاء، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٩٧٩م، ج٤، ص٣٠٦؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٣٣.

٣- أبو رميلة: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ص٢٦٢.

٤- الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص١٦٩؛ أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٣٦.

وبذلك انتهت معركة الأرك بهزيمة ملك قشتالة ألفونسو الثامن وجيوشه وحقق فيها المسلمون نصراً كبيراً[1].

وتقهقر الجند القشتالي بمجموعه نحو الربوة التي عليها القلعة "الأرك"، وولوا الأدبار وولى ملك قشتالة ألفونسو الثامن في نحو عشرين فارساً من أصحابه تحت جنح الليل لا يلوي شيء _لا ينتظر ولايقف_ فلم يتوقف إلا في طليطلة وعاد الخليفة يعقوب المنصور إلى إشبيلية وأتم بناء مسجدها ومئذنته الشهيرة "الخيرالدا"، كما بعث عدداً من السرايا نحو جيوب العدو، وقد وصلت قوة منهم إلى طليطلة، واقتحمت بعض حصونها وهدمت أسوارها سنة (٥٩٢هـ / ١١٩٥م)[2]، وتم أثناء مكوثه هناك هدنة بين الموحدين ومملكة قشتالة مدتها عشر سنوات وكان ذلك سنة (٥٩٤هـ / ١١٩٧م) وعاد الخليفة يعقوب المنصور إلى المغرب سنة (٥٩٥هـ / ١١٩٨م)[3].

ولما استقر في العاصمة جدد البيعة لابنه محمد الملقب بالناصر ومرض الخليفة يعقوب المنصور فجمع أكابر الدولة وشيوخها وأكد البيعة لابنه وقال: "أوصيكم بتقوى الله تعالى وبالأيتام واليتيمة، فسأل من الأيتام ومن اليتيمة؟ قال: "اليتيمة جزيرة الأندلس والأيتام سكانها المسلمون" وتوفي ليلة الجمعة (٥٩٥هـ / ١١٩٨م)[4].

١- ابن الزيات التادلي (يوسف بن يحيى، ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، الرباط، منشورات كلية الآداب، ط١، ١٩٨٤م، ص٣٨٧_٣٨٨؛ الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص١٦٩.

٢- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٣٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص٣٠٧.

٣- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٨٤؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٣٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ج٤، ص٣٠٧؛ السرجاني: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج٢، ص٥٩٧.

٤- حاكمي (الحبيب): الإسهام العلمي للبربر في الأندلس على عهد الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، جامعة وهران، ٢٠١٠م، ص٦٢.

ثالثاً_ فترة الضعف والانهيار:

١_ أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥_٦١٠هـ / ١١٩٨_١٢١٣م):

خلف أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر أباه أبو يوسف يعقوب المنصور، وكان شاباً سريع الاندفاع، وفي عهده انتهت ثورة ابن غانية وعلى أثر ذلك دخل الموحدين تونس والمهدية وعهد الناصر إلى عبد الواحد بن أبي حفص بحكم تونس لكفاءته.

ضعف أمر المسلمين في الأندلس بسبب انشغال الخليفة الناصر عبد الله بقمع الفتن وكف الموحدون عن إرسال الجيوش إلى الأندلس لتعزيز مركز المسلمين هناك، وقد شجع ذلك ملك قشتالة ألفونسو الثامن على شن الغارات على بلاد المسلمين في الأندلس، لذلك أعد الخليفة الناصر عبد الله حملة قوية لمحاربة ملك قشتالة الملك ألفونسو الثامن والممالك الإسبانية وأحسن إعداد تلك الحملة وأمدها بالأسلحة والعتاد وعبرت الحملة إلى الأندلس سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٠م).

وأعد ملك قشتالة ألفونسو الثامن حملة صليبية للانتقام من هزيمة الأرك وطرد المسلمين من الأندلس فكانت موقعة العقاب[١].

أ_ معركة العقاب (٦٠٩هـ / ١٢١٢م):

وقعت هذه المعركة في منطقة سهلية كثيرة التلال قرب مدينة بلنسية بين مدينة جيان وقلعة رباح إلى جانب حصن يدعى حصن سالم أو حصن العقاب الذي عرفت باسمه[٢].

ظروف المعركة:

بدأ الأمير أبو عبد الله محمد الناصر عهده بمحاولة القضاء على الفتن والثورات التي نشبت في المغرب وإفريقية وخاصة ثورة بني غانية[٣]، أما الممالك المسيحية فقد استغلت انشغال الأمير الناصر عبد الله وأخذت تغير على المدن الأندلسية[١].

١- الفقي (عصام الدين): تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٤م، ص٢٧٤، ٢٧٧.

٢- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤١٦.

٣- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٣٩؛ ابن أبي الدينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص١٤٤.

بنو غانية: عرفوا بذلك نسبة إلى أمهم غانية زوجة علي المتوفى الذي حظي بمكانة كبيرة لدى يوسف بن تاشفين وأنجبت غانية محمد ويحيى الذين عرفا هما وأحفادهما ببني غانية. أبو رميلة: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، ص١٤٤.

وكان أول من سعى حاكم قشتالة الملك ألفونسو الثامن لكسبهِ حليفاً هو ملك ليون ألفونسو التاسع (٥٨٤_٦٢٧هـ / ١١٨٨_١٢١٢م)، فزوجهُ من ابنتهِ فتحالفا لقتال المسلمين، ثم عقد حلف مع ملك أرغون بطرة الثاني (٥٩٢_٦١٠هـ / ١١٩٦_١٢١٣م)، الذي استجاب لطلبهِ[٢] وتحالف مع مملكة البرتغال وكل ذلك لخوض حرب ضد مسلمي الأندلس من أجل الثأر مما أصابهم في معركة الأرك[٣]، وبعد عقد التحالف بين الممالك الإسبانية قاموا بالغارات على المدن الأندلسية الحدودية مثل جيان وبياسة، فاستغاث أهل الأندلس بخليفة الموحدين أبي محمد عبد الله الناصر فأعلن الجهاد ضد الممالك المسيحية[٤]، وعبر إلى الأندلس يوم الاثنين (٢٥ ذي العقدة ٦٠٧هـ / ٩ أيار ١٢١٠م) قاصداً غزو مملكة قشتالة[٥]، وفي سنة (٦٠٨هـ / ١٢١١م) حاصر الخليفة الموحدي قلعة شالبطرة، فقامت الممالك المسيحية بقيادة ألفونسو الثامن بمحاصرة قلعة رباح[٦]، وكان سقوط قلعة رباح حافزاً جهادياً للموحدين وتمكنوا من اقتحام حصني شلبطرة واللج[٧].

التنظيم التعبوي:

تكون جيش الموحدين من القبائل العربية والبربرية والمطوعة وأهل الأندلس وأعداد من العبيد، وقسم الأمير الناصر الجيش إلى خمس فرق هي: المقدمة والقلب والميمنة والمسيرة والمؤخرة[٨].

١- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٣١٨؛ ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص١٤٤.

٢- المطوي (محمد العمروسي): الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م، ص٢٢٩. ص٢٢٩.

٣- أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٥٦؛ المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ص٢٢٩.

٤- ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ص١٤٥؛ الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص٢٢٠.

٥- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٤٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٢٣٧؛ الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص٢٢١.

٦- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٤٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٢٣٦.

٧- الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤١٦.

شلبطرة، اللج: بالأندلس من بلاد الأذفونش، وهما من حصون قلعة رباح. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٣٤٤.

٨- الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص٢٢٠؛ الغنيمي: مأساة الفردوس المفقود، ص٣٢١.

أما الجيش المسيحي فتألف من جيوش الممالك المسيحية والمطوعة القادمين من الدول الأوروبية وفرسان الداوية والإسبتارية ومجموعات من القساوسة والرهبان[1]، قسم ملك قشتالة ألفونسو الثامن جيشهُ إلى ثلاثة أقسام هي: القلب والميمنة والميسرة[2].

سير المعركة:

نشبت المعركة بين الطرفين يوم الاثنين (١٥ صفر سنة ٦٠٩هـ / ١٦ تموز ١٢١٢م)، وبدأت بهجوم الفرق الأمامية من متطوعة الموحدين باتجاه قلب الجيش المسيحي، لكن فرسان المسيحية انقضت عليهم وقتلتهم، ثم هاجم فرسان ملك قشتالة ألفونسو الثامن تحصينات الخليفة وحاولوا اختراقها[3].

وتمكنت القوات المسيحية من تحطيم كل من الميمنة والميسرة في الجيش الموحدي وانسحبوا من أرض المعركة، ولم يبق في ساحة المعركة سوى الخليفة الناصر عبد الله وحرسه الخاص وقد ثبت هؤلاء بشجاعة وحاولوا صد الهجوم، إلا أنهم كانوا قلة قليلة بعد أن لاذ بقية الجيش بالفرار سخطاً على الموحدين أو تحسباً من المواجهة، وكانت نتيجة ذلك هي الهزيمة الكبرى ثم اضطر الخليفة الناصر عبد الله أن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوباً نحو بياسة ثم جيان، واعتكف الناصر عبد الله في قصرهِ بمراكش مخلفاً ورائهُ الكثير من المآسي التي ترتبت على هزيمة جيشهِ في معركة العقاب[4].

فكانت هذه المعركة من أكبر الهزائم التي مني بها المسلمون وكانت خسائرهم كثيرة جداً وفادحة، وكانت موقعة العقاب مقدمة لنهاية الدولة الموحدية، وكانت المعركة الفاصلة التي كسرت المسلمين وأدت إلى تراكم الأحداث والكم الهائل من التساقطات في منطقة الأندلس.

١- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٤٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٢٢٢.

٢- أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٦١؛ حومد (أسعد): محنة العرب في الأندلس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨٨م، ص١١٩.

٣- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٢٣٩.

٤- النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٣٤٤؛ الناصرى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص٢٢٣.

وواصلت القوات المسيحية هجومها على المدن الأندلسية فسيطرت على مدينتي أبذة وبياسة وعدد من الحصون وعاثت فيها قتلاً وسلباً وتخريباً[١].

وفي (ذي الحجة سنة ٦٠٩هـ / نيسان ١٢١٢م) غادر الخليفة الناصر عبد الله الأندلس عائداً إلى مراكش، ثم اعتكف في قصره واستخلف ابنهُ يوسف ولياً للعهد من بعده، توفي الخليفة الناصر عبد الله بعد هذا الاستخلاف بعام واحد سنة (٦١٠هـ / ١٢١٣ م).

ومن جديد وكما حدث في عهد ملوك الطوائف تضيع الأمانة ويسند الأمر لغير أهله وتتوالى الهزائم على المسلمين بعد سنوات طويلة من العلو والسيادة والتمكين لدولة الموحدين[٢].

٢_ خلفاء الخليفة الناصر عبد الله وتساقط ممالك الأندلس:

بوفاة الناصر خلفهُ ابنه الأمير يوسف المستنصر سنة (٦١١_٦٢٠هـ / ١٢١٤_١٢٢٤م) وهو ابن ستة عشر عاماً، حيث بدأت في عهده الفتن والحروب[٣]، وظهرت في عهده حركة جديدة من قبيلة زناتة في بلاد المغرب واستقلت عن حكم دولة الموحدين هناك، ومما زاد الأمور سوءاً ظهور المرينين في عهده، وفي سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) سقطت جزيرة ميورقة ثم بياسة وفي السنة التالية (٦٢٧هـ / ١٢٣٠م) استقل بنو حفص بتونس وانفصلوا بها عن دولة الموحدين[٤].

وقد دار صراع شديد على السلطة بعد وفاة المستنصر بالله خلفهُ ابنُه الأمير عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠_٦٢١هـ / ١٢٢٤م)، إلا أنه خُلعَ وقتلَ، وتولى بعده الأمير عبد الله بن المنصور الملقب العادل سنة (٦٢١_٦٢٤هـ / ١٢٢٤_١٢٢٧م)، وبمقتل الأمير العادل بايع الموحدون الأمير المأمون بن المنصور(٦٢٧_٦٣٠هـ / ١٢٣١_١٢٣٢م)، ولما خشي الأشياخ[٥] قوة شخصيته بايعوا الأمير يحيى بن الناصر (٦٢٤_٦٢٦هـ / ١٢٢٧_١٢٣٠م) وظل لكل منهما مدعياً للأمر، ثم خلف الرشيد أبيه المأمون سنة (٦٣٠_٦٤٠هـ / ١٢٣٢_١٢٤٢م)

١– المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٣٢٢؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص٢٤٠؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤١٦.

٢– السرجاني: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج٢، ص٦١٩_٦٢٠.

٣– بلميلود (ناصر)، دحدوح (كريم): الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، جامعة ألكي محند أولحاج – البويرة، ٢٠١٥م، ص٩.

٤– الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج٢، ص٢٤٠.

٥– الأشياخ: إن مؤسس الدولة الموحدية ابن تومرت كون هيئة من كبار أصحابه لتعاونه في تصريف شؤون الحكم سماها أهل الجماعة أو العشرة وأسس هيئة ثانية أكثر عدداً بلغت الخمسين وكان لها دور استشاري وفي عهد الناصر حاولوا السيطرة والتنفذ. موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٨٦.

ودام النزاع بين يحيى والرشيد، وقتل يحيى على يد عرب المعقل في (رمضان سنة ٦٣٣هـ / أيار ١٢٣٦م)[١].

وفي سنة (٦٢٥هـ / ١٢٢٨م) استقل رجل يسمى ابن هود بشرق وجنوب الأندلس، وفي سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٦م) حدث حادث خطير ومروع إنه حادث سقوط قرطبة حاضرة الإسلام[٢].

بعد سقوط قرطبة وفي سنة (٦٣٥هـ / ١٢٣٧م) استقل بنو الأحمر بغرناطة بعد موت ابن هود في السنة نفسها، وفي سنة (٦٣٦هـ / ١٢٣٨م) سقطت بلنسية، ولما توفي الأمير الرشيد سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م) وبويع أبو الحسن علي السعيد بن ادريس المأمون (٦٤٠_٦٤٦هـ / ١٢٤٢_١٢٤٨م)، فتخلع سبتة بيعتها وتحولها إلى الحفصيين، وفي سنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) سقطت دانية بالقرب من بلنسية، وفي سنة (٦٤٣هـ / ١٢٤٥م) سقطت جيان[٣].

وخلف الأمير أبو الحفص عمر المرتضى (٦٤٦_٦٥٦هـ / ١٢٤٨_١٢٦٦م) السعيد الذي كان ميالاً للدعة والمسالمة، وفي عهده ملك بنو مرين فاس وهزموا المرتضى عند أم الرجلين، وفي سنة (٦٦٥هـ / ١٢٦٦م) كانت نهاية المرتضى على يد أحد أقربائِهِ (أبو الدبوس الواثق بالله) متحالفاً مع بني مرين[٤].

وفي (محرم سنة ٦٦٥هـ / تشرين الأول ١٢٦٦م) دخل أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس (٦٦٥_٦٦٨هـ / ١٢٦٦_١٢٦٩م) مراكش وقتل المرتضى، لكن بني مرين شنوا عليه الغارات وقتل سنة (٦٦٧هـ / ١٢٦٩م)[٥].

وهكذا لم يبق في بلاد الأندلس إلا ولايتان فقط ولاية غرناطة وولاية إشبيلية وتمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس.

وهذا مع الأخذ في الاعتبار أن كل ولايات إفريقيا قد استقلت عن دولة الموحدين فسقطت بذلك الدولة العظيمة المهيبة المتسعة البلاد المترامية الأطراف[١].

١– ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٢٩١_٣٠٦.
٢– ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٧، ص١٦٩؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٥٩.
٣– السرجاني: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج٢، ص٦٢٨.
٤– ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٤٤٠.
٥– موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص١١٢.

وبعد مقتل أبو دبوس بايع الموحدون ابنه عبد الواحد (٦٨٦هـ / ١٢٦٩م) لخمسة أيام، ثم فروا عن مراكش، ودخلها المرينيون وكتبوا نهاية دولة الموحدين بعد أن كانت قد تمكنت من توحيد بلاد المغرب العربي الإسلامي كامل مع الأندلس لأول مرة في التاريخ[٢].

رابعاً _ أسباب سقوط دولة الموحدين:

استمرت دولة الموحدين في عزةٍ وقوة وازدهار حتى (نهاية القرن السادس _ ومع مطلع القرن السابع الهجري / القرن الثاني عشر _ القرن الثالث عشر الميلاديين) بدأ الهرم يدب في أوصال الدولة ومالت شمسها إلى المغيب، وقد حددت المصادر تاريخ فترة الانحلال بوفاة الأمير يوسف المستنصر سنة (٦٢٠هـ / ١١٢٣م) ومن بعده اضطرب الأمر واتجه الناس للخلاف[٣].

ويبدو أن خير ما يمثل بداية المرحلة ضعفاً وانهزاماً واضمحلالاً للفترة الأخيرة من خلافة الناصر بن المنصور (٦٠٣_٦١٠هـ / ١٢٠٦_١٢١٣م)، ففي سنة (٦٠٩هـ / ١٢١٢م) هُزم الأمير الناصر عبد الله في معركة العقاب أمام النصارى تلك الهزيمة التي كانت السبب في هلاك الأندلس[٤].

غير أن دولة الموحدين كانت تحمل في طياتها بذور الضعف، وعوامل الانهيار وكانت كثيرة نذكر منها ما يلي:

١_ الضعف السياسي:

وتجلى ذلك في النزاع على الخلافة بين أبناء عبد المؤمن بن علي، ولم يستطيعوا أن يصنعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة عندهم، وكان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة الأمير يوسف المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، وظهرت آثار هذا النزاع في ثلاثة مظاهر:

١- السرجاني: قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج٢، ص٦٢٨.

٢- موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص١١٣.

٣- المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٣٢٩.

٤- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٤٢١؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص١٥٩.

أ_ تعدد الخلفاء في وقت واحد:

فلما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خرج عليه بعد شهرين العادل بن المنصور بمرسيه، ثم خرج على العادل واليه على قرطبة في سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٦م) السيد أبو محمد عبد الله البياسي، وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون بن المنصور ولما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر، في سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م) ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث هو السيد أبو موسى بن المنصور فلما أحضرهُ المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس[١]. مما أفقد الخلافة هيبتها.

ب_ الاستعانة بالنصارى:

في حمى المنافسة أراد كل فريق النصر فاستعانوا بمن كانوا لهم بالأمس مقاتلين. فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته استنصر بملك قشتالة[٢].

ج_ تولية حكام ضعاف:

إن النزاع جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام، فعمدوا منذ وفاة الأمير يوسف المستنصر على تولية حكام ضعفاء صغار السن مثل: يوسف المستنصر بويع في سنة (٦١٠هـ / ١٢١٣م) وعمرهُ ستة عشر عاماً[٣]، أو مقعدي شيخوخة مثل: عبد الواحد بن يوسف سنة (٦٢٠هـ / ١٢٢٢م)[٤]، أو باحثين عن ملذاتهم تاركين أمور دولتهم مثال على ذلك: عندما نكث أشياخ الموحدين بيعة المأمون مالوا إلى يحيى بن الناصر وهو (غر لم يجرب الأمور).

وقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وإشرافهم على الأمور: فالخليفة الناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافته المنية، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته

١- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، ص٥٣١؛ موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٨٣.

٢- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٢٤٩؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص١٦٧.

٣- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، ص٥٢٣؛ موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٨٥.

٤- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٢٤٧؛ ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص١٦٢.

طوال أيام خلافته وكان مولعاً بتربية البقر وتوفي من طعنة بقرة شرود، والمرتضى كان ميالاً للدعة والمسالمة[1].

فضعف الخلفاء الذين سبقوا مرحلة الانحلال هيأ ظرفاً مواتياً لتفكك الجهاز الإداري وانهياره.

٢_ التفكك الإداري:

إن هذا النزاع بين السادة بني عبد المؤمن، ساعد ولاة الأقاليم على الاستبداد بولاياتهم ولا سيما السادة منهم ومنذ أيام الأمير يوسف المستنصر كان الولاة أحد ثلاثة:

أ_ إما من السادة فحاول أن يستقل بولايته ليتخذها نواة للمطالبة بالخلافة مثل السيد أبو موسى في سبتة سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م).

ب_ أو من أسرة موحدية عريقة لها فضل في الدعوة مثل الحفصيون.

ج_ أو شخص تابع في الاستبداد ولا يقوى عليه فيبايع القوي من الحكام مثل أبو علي ابن خلاص البلنسي في سبتة سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م).

وتجسد الضعف الإداري في **تسلط الوزراء والموظفين:** فمنذ عهد الناصر استعلى الوزراء على الخلفاء وأصبحوا الموجهين للإدارة، فتغلب على دولة الناصر وزيره أبو سعيد بن جامع واستعلى على الموحدين والأجناد الأندلسيين حتى أفسد نيتهم وأبرم السلم مع النصارى[2].

وفي دولة الرشيد كان لوزيره أبي زكريا ابن أبي العمر تعيين أصحاب الأشغال. ومع المرتضى أصبح الوزراء يشرفون على الناحية العسكرية مثل ابن يونس[3].

٣_ الانهيار العسكري:

كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والمادية، وحققوا انتصارات هائلة على خصومهم، لكن في زمن الخليفة الناصر ظهر العجز القيادي في جيش

١– موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٨٥_٨٦.

٢– ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج٦، ص٥٢٤؛ موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٩١.

٣– ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٤٠٤؛ الصلابي: صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين"، ص٢٢٨.

الموحدين والقدرة القتالية في معركة العقاب، وتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى.

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

واتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم وقضى إدخال العربان في الجيش الموحدي على كافة أهدافه ونظامه[١].

وثمة عامل له خطره في انهيار الجيش الموحدي خاصة في الجبهة الأندلسية فقد طرد الأمير الناصر زعماء الأندلسيين عن جيشه بإيعاز من وزيره ابن جامع، ففقد قوة بشرية هائلة كانت تتسم بالصمود في وجه الزحف النصراني في تلك الجبهة من الدولة المترامية الأطراف[٢].

٤_ اتساع نطاق الثورات والفتن الداخلية:

أ_ ثورة بنو غانية:

وهم من بقايا المرابطين حاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت سبباً في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

ففي الأندلس كان ابنا غانية يحيى ومحمد ولاة لعلي بن يوسف على بعض ولايات الأندلس ففر محمد إلى ميورقة ومنورقة ويابسة[٣] واستبد بها، ولما توفي خلفه ابنه أبو إسحاق وظل على علاقة طيبة بالموحدين دون أن يبايعهم.

١- الصلابي: صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين"، ص٢٢٨.

٢- موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص٩٦؛ الصلابي: صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين"، ص٢٢٨.

٣- ميورقة ومنورقة ويابسة: وهي الجزر الشرقية في البحر الزقاقي بينهما ثلاث حجار أحد جزيرتيها فرقة وبينهما مجرى في البحر طوله ٤٠_ميلاً، وشرقي ميورقة هذه جزيرة سردينية بينهما في البحر مجريان، وغربيهما يابسة وغربيها مدينة دانة وميورقة، أم هاتين الجزيرتين وطول ميورقة من الغرب إلى الشرق سبعون ميلاً وعرضها من القبلة إلى الجوف ٥٠-ميلاً. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٥٦٧.

ولما توفي خلفه ابنه علي ودخل بجاية في سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م)، وملك قلعة بني حماد[١] والجزائر[٢] ومليانه[٣] واستطاع الجيش الموحدي بقيادة السيد أبي حفص[٤] استعادة هذه المدن منه، وفر الميورقي إلى بلاد الجريد[٥] وهنا تعاون بني غانية مع الأغزاز المصريين[٦].

ب_ العرب:

أما الأغزاز فقد دخلوا بقيادة قراقوش[٧] مملوك أخي صلاح الدين الأيوبي في سنة (٥٦٨هـ / ١١٧٢م)، فسيطر قراتكين[٨] على قفصة[٩].

وملك قراقوش أرجاء طرابلس ثم رجع إلى مصر، وفي (رمضان سنة ٥٧٦هـ / شباط ١١٨٣م) عاد قراقوش وسيطر على نواحي طرابلس مجدداً وفي سنة (٥٨١هـ / ١١٨٥م) تحالف مع بني غانية وسيطروا على بلاد الجريد، ولم تهدأ البلاد إلا بخروج الخليفة المنصور إليها بنفسه في جيش عرمرم سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، ففر علي الميورقي إلى الصحراء واستسلم العرب

١- قلعة بني حماد: مدينة متوسطة بين ا كم وأقران، ولها قلعة عظيمة وهي قرب أشير من أرض المغرب الأدنى. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٠.

٢- الجزائر: مدينة على ضفة البحر بين إفريقيا والمغرب. الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١٣٢.

٣- مليانة: تقع بالقرب من أشير وهي من أخصب بلاد إفريقية وأرخصها أسعاراً وهي مدينة رومية قديمة. الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٩٦.

٤- السيد أبي حفص: وهو أبي زيد بن أبي حفص وهو قائد الجيش المتوجه إلى ابن غانية ولاه المنصور على مدينة تونس، دخل قراقوش في طاعة الموحدين على يديهِ. التيجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، ت ٧٠٦هـ / ١٣٠٦ م): الرحلة التيجانية، قدم لها: حسن حسني عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨م، ص١٠٤.

٥- بلاد الجريد: سميت بذلك لكثرة النخيل بها. مجهول (المؤلف _ من كتاب القرن السادس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي): الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق: سعد زغلول عبد الحميد، مصر، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م، ص١٥٠.

٦- الأغزاز: جنس من الترك بلادهم في أقصى المشرق على تخوم الصين دخلوا بلاد المسلمين كأسرى ومماليك ثم ما لبث أن برزوا كوزراء وقواد وكانوا يسموا حيناً بالغز وبالترك والمماليك حيناً آخر. المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٢٨٨.

٧- قراقوش: مملوك تقي الدين ابن أخي صلاح الدين الأيوبي دخل المغرب رغباً في تشييد ملك خاص به وتاريخ دخوله مختلف فيه سيرهِ مولاه تقي الدين لتشيد ملك خاص به في المغرب ثم تخلى عن الفكرة فمضى قراقوش في تحقيقها بنفسه. موسى: دراسات في تاريخ المغرب، ص٢٤_٢٥.

٨- إبراهيم قراتكين: الملقب سلاح دار المعظمي وهو منسوب إلى الملك المعظم شمس الدولة أخو صلاح الدين وأحد رجالهِ. التيجاني: رحلة التجاني، ص١١٢.

٩- قفصة: هي بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب من عمل الزاب الكبير بالجريد. الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٨٢.

واستسلم قراقوش وأصحابه الأغزاز وصاروا في عداد الجند الموحدي، وتوفي علي وخلفه أخوه يحيى.

ولما اشتغل المنصور بأمر الأندلس (٥٩٠_٥٩٣هـ / ١١٩٤_١١٩٧م) وتوفي قبل أن يتحرك إلى إفريقيا فخلفه ابنه الناصر وفي هذا الوقت سيطر يحيى بن غانية على أغلب البلاد، في سنة (٦٠٣هـ / ١٢٠٧م) فأوكل الناصر أمر إفريقيا للشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي[1] وقضي على ثورة بني غانية بمقتل يحيى بن غانية سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٣م)[2].

١٢٣٣م)[2].

ج_ ثورات الأندلس ضد دولة الموحدين:

ومن أشهر هذه الثورات ثورة محمد بن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليه إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة، وثورة ابن هود، وعامل بلنسية الذي التجأ إلى ملك ليون، وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم، خلال معركة العقاب[3].

٥_ تقلص أراضي الدولة في إفريقيا والمغرب والأندلس:

فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها، اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها إفريقيا، وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم مراكش في يد المرينيين. ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب[4].

١- أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي: ولي تونس وكان شهماً صارماً نكب بعد محاصرة قفصة وسقوطها في يد المنصور سنة (٥٨٣هـ / ١١٨٧م)، وتوفي بنواحي بجاية في طريقه إلى المغرب مسخوطاً عليه، التيجاني: رحلة التجاني، ص٣٥١.

٢- موسى: دراسات في تاريخ المغرب، ص١٠١-١٠٢.

٣- الصلابي: صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين"، ص٢٢٤.

٤- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٢٥٠.

وظهر في شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في (رجب سنة ٦٢٥هـ / تموز ١٢٢٨م) في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين[١]، وسيطر ابن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين[٢].

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث ففي سنة (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) قام زيان بن مردنيش وثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرغونة، ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاءت سنة (٦٣٦هـ / ١٢٣٩م) إلا وقد سيطر على غرب الأندلس[٣].

زالت هيبة الموحدين في نفوس الأندلسيين وتحولوا لشطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين، واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة، فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحد تلو الأخرى، فسقطت قرطبة سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٦م) وبلسنة في سنة (٦٣٦هـ / ١٢٣٩م)، ومرسية سنة (٦٤٤هـ / ١٢٤٦م)، وإشبيلية سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، وكان هذا السقوط المريع في مدة قصيرة جداً[٤].

وانفصلت إفريقيا سنة (٦٢٧هـ / ١٢٣٠م)، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين[٥].

وفي الوقت الذي انفصلت فيه الأندلس عن إفريقيا وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل، سيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بنو عبد الواحد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس وهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية[٦].

٦_ الانهيار الاقتصادي:

إن اضطراب حبل الأمن وسيادة الفوضى وتقلص الأراضي كانت من أسباب الانهيار الاقتصادي. لقد منعت الفتن والثورات جباية الضرائب كما أوقفت سيطرة العرب على البوادي

١- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص١٨٢.

٢- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٢٦٤.

٣- موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص١٠٨.

٤- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٣٨٥.

٥- موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص١٠٩.

٦- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٣٦٥.

والحراثة فيها، فمنذ وفاة يوسف المستنصر كثرت المجاعات وغلت الأسعار وتوقفت حركة العمران، ورافق ذلك انحطاط في الحياة الفكرية فالضعف السياسي والفتن والثورات جعلت مقام العلماء بالمغرب صعباً فاتجهوا نحو تونس أو إفريقيا[١].

١- ابن عذاري: البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ق٣، ص٣٥٣؛ موسى: دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص١١٤.

الفصل الرابع
أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية عند المرابطية والموحدية في الأندلس

أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية عند المرابطية في الأندلس.

قصر الجعفرية:

أولاً_ لمحة تاريخية.

ثانياً أهم العناصر الدفاعية ضمن القصر:

١- الموقع.

٢- الأبراج.

٣- الأسوار

٤- الخندق.

٥- مرامي السهام.

٦- السقاطات والرواشن.

٧- الشرافات.

٨- مواد البناء.

أسوار اشبيلية، قرطبة، غرناطة.

قلعة منتقوط:

أولاً_ لمحة تاريخية.

ثانياً أهم العناصر الدفاعية ضمن القصر:

١- الموقع.

٢- الأبراج.

٣- الأسوار

٤- الخندق.

٥- مرامي السهام.

٦- السقاطات والرواشن.

٧- الشرافات.

٨- مواد البناء.

أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية الموحدية في الأندلس.

قلعة جابر:

أولاً_ لمحة تاريخية.

ثانياً أهم العناصر الدفاعية ضمن القصر:

١- الموقع.

٢- الأبراج.

٣- الأسوار

٤- الخندق.

٥- مرامي السهام.

٦- السقاطات والرواشن.

٧- الشرافات.

٨- مواد البناء.

أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية عند المرابطية في الأندلس.

عرفت شبه الجزيرة الأيبرية أي إسبانيا والبرتغال منذ الأزمان القديمة باسم (إيباريا) أو أصبانيا[١]، أما مصطلح الأندلس الذي يشمل كل المناطق التي حكمها المسلمون من شبه الجزيرة، فقد اشتقهُ الجغرافيون العرب المسلمون، والمؤرخون العرب المسلمون من الكلمات الأتية: الأندلش أو الأندلوشن، أي الأندلس، وهي الأسماء التي سمي بها الوندال، الذين سيطروا على أجزاء من شبه الجزيرة الإيبرية في الفترة ما بين (٤٠٨_٤٢٩م)، ويؤكد معظم المؤرخين أن أصل هذه التسمية يعود إلى عجم روما الذين ملكوها، وكان ملكهم (إشبان بن طيطش)، وباسمهِ سمي قسم من الجزيرة الإيبرية اشبانيا[٢].

فتحت الأندلس سنة (٩٢هـ / ٧١١م)، فتحها طارق بن زياد وموسى بن نصير، وصارت ولاية إسلامية تابعة لمركز الخلافة الأموية في دمشق، وعندما قُضي على الخلافة الأموية بدمشق سنة (١٣٢هـ / ٧٥٠م)، تمكن أحد أفراد الأسرة الأموية، وهو عبد الرحمن بن معاوية (١١٣_١٧٢هـ / ٧٣١_٧٨٨م) من الوصول الى الأندلس سنة (١٣٨هـ / ٧٥٥م)، وأقام دولة أموية في قرطبة دانت لها بلاد الأندلس جميعها، وفي سنة (٣٠٠هـ / ٩١٣م)، أعلن عبد الرحمن الثالث (٢٧٨_٣٥٠هـ / ٨٩١_٩٦١م) (حفيد عبد الرحمن بن معاوية الداخل) نفسهُ خليفةً، ولقب بالناصر، واستمرت الخلافة الأموية في الأندلس الى بداية (القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي)[٣].

شهدت الأندلس في عهد الخلافة الأموية تقدماً كبيراً في الإعمار، فتم إنشاء المنشآت المعمارية والقصور الفخمة، وبناء المزيد من المدن والضواحي الزاهرة والتي ما زال بعضها قائماً إلى وقتنا الحاضر[٤].

1- Benito Del Rey, L., "Informe preliminar y provisional de las excavaciones realizadas en el yacimiento musteriense de la cueva de las Grajas en Archidona (Málaga)", en Noticiero Arqueológico Hispánico, Prehistoria, nº 5, 1976, p. 40.

2- Abu Irmeis, I., "Una puerta de madīna Garnata: Bab al-'Unaydar (Monaita)", Arqueología y Territorio Medieval, nº 8, 2001, pp. 187-204.

٣- عثمان (نجوى): العمارة الإسلامية في الأندلس، حلب، مكتبة المنار، ١٩٩٨م، ص٤١.

4- Martínez Enamorado, V., "Antequera". (Eds.) AA.VV: Itinerario Cultural de Almorávides y Almohades, Magreb y Península Ibérica. Fundación El legado Andalusí, 1999, p. 376.

تطور الفن المعماري في بلاد الأندلس، واتخذ لهُ طابعاً أصيلاً مميزاً، وكان للاتصال مع الشرق أثره في هذا التطور[1]، وهناك بعض الآثار التي تدل على هذه الأصالة التي لا نجدها في أي بلد إسلامي آخر، واتسمت أغلب هذه الفترة بالاستقرار السياسي في أغلب المدن الأندلسية[2]، فساعد هذا كثيراً في تطور حركة العمران التي أظهرت مدى التقدم الحضاري في الأندلس، وما حققهُ المسلمون في الأندلس من تطور بفضل فكرهم المبدع[3]، فكان للفن المعماري الإسلامي الأندلسي طابعهُ المميز الذي يستطيع الإنسان معرفته وتمييزه بسهولة من خلال مظاهر الترف التي كانت تظهر عليهِ[4].

كان (القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي) قرن الأزمات الشديدة في العالم الإسلامي والمسيحي[5]. في النصف الأول من هذا القرن اشتدت الأزمات السياسية التي أثرت على القوى الإسلامية: فالخلافة العباسية في بغداد والخلافة الأموية في قرطبة والخلافة الفاطمية في القاهرة[6]، والأجزاء المطلة على البحر المتوسط والعالم الإسلامي، من بلاد الشام إلى الأندلس، وكانت الصراعات تشمل جميع الأراضي[7]. في الشرق تراجعت الخلافة العباسية تحت وصاية السلطات السياسية الجديدة، مما جعل بلاد الشام أضعف الأقاليم في الخلافة العباسية[8]، حيث استمر القتال بين قوة الخلافة الفاطمية في القاهرة وعزبات (القوى) المحلية، التي استمرت

1-Tabales Rodríguez, M.A., “Arqueología y rehabilitación en Sevilla. Desarrollo metodológico y práctico”, Arqueología de la Arquitectura, nº 1, 2002, p. 206.

2- Sabio González, R., “Algunas apreciaciones en torno a los accesos de la muralla medieval de Algeciras”, Almoraima, nº 39, 2009, p. 325.

3- Retuerce Velasco, M. y Hervás Herrera, M. A., “Calatrava la vieja. Fortificación de una ciudad islámica de la meseta”, Castillos de España, nº 113, 1999, pp. 23-24.

4- Martínez Enamorado, V., Al-Andalus desde la periferia. La formación de una sociedad musulmana en tierras malagueñas. Málaga, 2003. p. 65.

5- Aguilar Gracia, M.D., Guía artística de Archidona. Málaga, 1991: p. 22.

6- AL-IDRĪSĪ, Nuzhat al-muštāq fi ijtirāq al-āfāq. (ed. y trad.). DOZY, R; DE GOEJE, M.G, M.G, bajo el título Description de l’Afrique et de l’Espagne, Leiden: E.J. Brill, (reimpresión, Amsterdam, 1969). p. 75.

7- Eslava Galán, J. ¨Los almorávides¨, Cuadernos de prehistoria, 1984, Nº. 198, pp. 26-33.

8- Corzo Sánchez, J.R., “Génesis y función del arco de herradura”, Al-Andalus, revista de las Escuelas de Estudios Árabes de Madrid y Granada, Vol. 43, nº 1, 1978, pp. 125.

حتى غزو الصليبيين للمشرق العربي الإسلامي سنة (٤٩٠هـ / ١٠٩٧م)[١]. أما في الأندلس بعد وفاة الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٢٧_٣٩٢هـ / ٩٣٨_١٠٠٢م) وابنه عبد الملك المظفر بالله (٣٩٢_٣٩٩هـ / ١٠٠٢_١٠٠٨م)، دخلت الأندلس حرب أهلية (الفتنة) التي أغرقت البلاد في أزمة سياسية عميقة، مما أدى إلى شل السلطة المركزية القوية ونهايتها مع إلغاء الخلافة الأموية سنة (٤٢٢هـ / ١٠٣١م)، وبلغت ذروتها في ظهور إقطاعيات. وينطبق الشيء نفسه على أجزاء واسعة من أوربة. ونتيجة لذلك، أصبح ملوك الطوائف مقتنعين أنه من الضروري وضع الضغائن وحفظ الأندلس، وصيانتهِ من هجمات نصارى الإسبان القادمة من الشمال. هكذا كانت بداية الفترة المرابطية في الاندلس[٢].

كان المرابطون (٤٥٤_٥٤٥هـ / ١٠٦٢_١١٥٠م)، قوة إسلامية برزت حديثاً في شمال أفريقيا، عرقياً هم من أصول بربرية أكثر من العربية، وسيطرت على المغرب العربي الإسلامي وأسست مدينة مراكش عاصمة لهم سنة (٤٥٤هـ / ١٠٦٢م) بقيادة يوسف بن تاشفين[٣]. دخل المرابطون الأندلس (إسبانيا الإسلامية) بعد سقوط طليطلة سنة (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) في استجابة لنداءات زعماء الطوائف للمساعدة في صد الجيوش المسيحية القادمة من شمال إسبانيا، ويبدو أنهم افترضوا التحكم في الأندلس سنة (٤٨٣هـ / ١٠٩٠م)[٤]، ففي الجواز الأول للمرابطين عندما عندما وصل أمير المسلمين الى الجزيرة الخضراء في (١٥ ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ / ٢٩ حزيران ١٠٨٦م)، أمر بترميم قلعة الجبل وتحصين أسوار المدينة[٥].

كانت الأندلس أيام المرابطين ولاية يديرها في أغلب الأحيان واحد من أبناء أمير المسلمين المرابطي وهو ولي العهد المرابطي وتحت يده ولاة موزعون في مختلف المدن[٦]، أما أمير

1- Henri T. Consequences d'une invasion berbere: le role des Almoravides dans l' histoire de l' Occident, apud Melanges d' Histoire du Ivioyen Age dedies a la memoire de Louis Alphe. 1950, Paris, p. 680.

2- De Mora y Figueroa, L., Glosario de arquitectura defensiva medieval. Madrid, 2006, Ministerio de Defensa. p. 23.

3- Acién Almansa, M., “Prospección arqueológica superficial en la hoya de Archidona”. Anuario Arqueológico de Andalucía, nº 11, 1989, pp. 143-152.

4- Alcobendas Tirado, M., Guía de la provincia de Málaga. Málaga, 1981, p. 32.

٥- باشا (ضيا): الأندلس الذاهبة، تر: عبد الرحمن أرشيدت، ٢ جزء، المملكة الأردنية الهاشمية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، ط١، ١٩٨٩م، ج٢، ص٧٦.

٦- السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص١٠٥.

المسلمين فيجتاز إليها بين الحين والحين رغبة في الجهاد أولاً وفي تفقد شؤونها العامة ثانياً، وقد كان ولاة المرابطين كثيرين، من حيث عددهم وتنقلاتهم وتواليهم على الولاية الواحدة حتى ليصعب أن نستقصي كل ذلك من أحوالهم. ومن أشهرهم الوالي سير ابن أبي بكر المتوفى سنة (٥٠٧هـ / ١١١٤م) الذي بقي والياً على أشبيلية مدة سبعة وعشرين عاماً. ومنهم محمد بن الحاج والي غرناطة وقد عزلهُ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة (٤٩٩هـ / ١١٠٦م)[١].

لا يمكن أن يعد سيادة المرابطين عصراً جديداً في تاريخ الأندلس[٢]، لأنهُ على الرغم مما أحدثهُ الفتح من تغيرات في النفسية الأندلسية وفي بعض الأوضاع السياسية والاجتماعية فإن الأندلس من الوجهة الثقافية قهرت فاتحيها كما قُهرت القبائل اليونانية القديمة التي حاولت غزو (إسبانيا) الأندلس وتغير الواقع الثقافي فيها. وما كان الفتح المرابطي إلا تحقيقاً لفعل القوة الضاغطة الآتية من الجنوب وقد يكون مركز الثقل الثقافي قد انتقل أحياناً إلى مراكش ولكن أكثر القائمين بذلك النشاط كانوا يومئذ هم من الأندلسيين[٣].

ظهرت الأنظمة الدفاعية المرابطية في الأندلس سنة (٥١٩_٥٢٠هـ / ١١٢٥_١١٢٦م) بعد دخول قوات ألفونسو الأول وفرضهِ الكثير من الغرامات والأتاوات على ملوك الطوائف[٤].

كان المرابطون في أول أمرهم لا يحصنون المدن بالأسوار ويرون في ذلك ضعفاً في الدفاع، ثم لم يلبثوا أن أخذوا ببنائها بعد اتصالهم بالأندلس وإدراكهم لفائدة الأنظمة الدفاعية المعمارية في حماية المدن[٥].

كان تميم بن يوسف والياً عاماً على الأندلس ثم خلفهُ عليها تاشفين بن علي. وقد صدق المرابطون في الدفاع عن الأندلس، وأقاموا بتعزيز الناحية الدفاعية مثلما تابعوا سياسة الهجوم.

1- Almagro, A., Orihuela, A. y Vílchez, C., “La Puerta de Elvira en Granada y su reciente restauración”, Al-Qantara, nº XIII, 1992, p. 505.

2- Gómez-Moreno Calera, J.M., “Torres y puertas de la Alhambra: ensayo morfológico-didáctico”, Cuadernos de arte de la Universidad de Granada, nº 35, 2004, p. 28.

3- Acién Almansa, M., “Los ṯugūr del reino nazarí. Ensayo de identificación”, en Archéologie des espaces agraires méditrerranéens au Moyen Àge, Castrum nº 5, Madrid, 2009, pp. 435-436.

4- Garcia Gomez، E.: Crono-Arqueologia de la espana muslmana, Sapana-Cordoba, 1952. p. 27.

٥- السائح (حسن): الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٩٨٦م، ص١٩١.

ولعل حادثة الرنيسول سنة (٥١٩هـ / ١١٢٥م) هي التي أطلعت الحكام على ضعف وسائل الدفاع، فقد أخذ أهل الذمة بجبال الدروع يكاتبون الملك ألفونسو المحارب ويحثونه للهجوم على غرناطة[١]، والذي اخترق الأراضي الأندلسية حتى وصل الى ساحل البحر المتوسط دون أن يلقى مقاومة أو يستولي على مدينة ودامت حملتهُ عدة أشهر[٢]، فاستنجد الوالي تميم بن يوسف بالمغرب العربي الاسلامي، وعلى أثر تلك الحادثة انتقل أبو الوليد بن رشد قاضي قرطبة إلى مراكش ليبحث مع أمير المسلمين خطر الذين وجدوا بمنطقة غرناطة، وكيفية عقابهم ويحثه على تجديد الحصون المحيطة بالمدن الأندلسية الكبرى، فكتب أمير المسلمين إلى عمالهِ يأمرهم بأن يعجلوا في إصلاح مراكز الدفاع عن المدن الكبرى[٣]، وعزل تميماً لقلة خبرته وولى عينعلو على غرناطة وعمر بن سير على قرطبة، فقام عينعلو بإصلاح الأسوار سنة (٥٢٠هـ / ١١٢٦م)[٤]، وقام أهل قرطبة بإصلاح سور مدينتهم، كل حي يصلح ما يليه وكذلك فعل أهل إشبيلية وأهل المرية[٥]، كما فرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة، وكان يخصص دخلها لإقامة أسوار أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة[٦].

يتميز الفن المرابطي بالزهد الديني والتقشف العسكري في الأنظمة الدفاعية المعمارية الموجودة في الأندلس، وذلك لتوظيف كافة الإمكانات المادية للتصدي لخطر النصارى القادم من الشمال[٧]. تم التخلي عن عمود لصالح العامود الأكثر حاجةً، أضف إلى ذلك التقشف الكبير

١- الهرفي (سلامة): دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، مكة، دار الندوة الجديدة، ١٩٨٥م، ص٣٨٤.
Gurriarán Daza, P. y Romero Pérez, M., “La Muralla de Antequera (Málaga)”, en Malpica Cuello, A. y Porras García, A. (eds.), Las ciudades nazaríes. Nuevas aportaciones desde la arqueología, Granada, 2011, p. 313.

٢- بالباس (ليوبولدو توريس): الفن المرابطي والموحدي، تر: سيد غازي، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٧٦م، ص٣٦.

3- Gurriarán Daza, P. y Romero Pérez, M., “La Muralla de Antequera (Málaga)”, en Malpica Cuello, A. y Porras García, A. (eds.), Las ciudades nazaríes. Nuevas aportaciones desde la arqueología, Granada, 2011, p. 313.

4- Vázquez Otero, D., Castillos y paisajes malagueños: Historia de la provincia, Málaga, 1960, p. 36.

٥- الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص٣٨٥.

٦- الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص٣٨٥؛ الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ص٢٠١.

7- Borrás Gualis, G. "La ciudad islámica". Guillermo Fatás (Dir.) Guía histórico-artística de Zaragoza, Zaragoza City Council, 3rd, 1991, p. 71.

بعناصر الزينة ضمن المباني وخارجها في الهندسة المعمارية[١]، والملامح العامة للفن المرابطي هي استخدام أعمدة من الطوب (الطين القاسي)، استبدال الأعمدة التي يمكن العثور عليها إلا في أنبل مجالات المباني (أهم المعالم المعمارية)، وهناك مجموعة متنوعة من أنواع الأقواس المستخدمة. في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (٤٩٩_٤٥٣هـ / ١١٠٦_١٠٦١م)[٢]، كرس بشكل كبير سياسة التقشف التي فرضتها الاحداث الدينية خلال فترة حكمه، ومع ذلك وقعت هذه الصرامة (الخلافات) مع ابنهِ الأمير علي بن يوسف (٥٠٠_٥٣٦هـ / ١١٠٧_١١٤٢م) خلال فترة حكمهِ في بلاد الاندلس[٣].

كما اهتم المرابطون بالأسطول وسفن النقل البحري ثم تحول بعد ذلك إلى الاهتمام ببناء السفن الحربية التي استطاعت فتح مدن بلنسية والجزائر الشرقية (البليار)، بل إن الاسطول المرابطي وصل نشاطهُ إلى سواحل إيطاليا وفرنسا[٤]، كما أن المرابطين وجهوا عنايتهم المعمارية لبناء المساجد والعمارة الدينية[٥]، يُطلق المستشرقون على العمارة والفن الذي ازدهر في العصرين المرابطي والموحدي في الاندلس عبارة (إسبانو_موريسك) بمعنى الفن الأندلسي المغربي[٦].

لا بد من الإشارة إلى أن فترة وجود المرابطين وسيطرتهم على الأندلس _إسبانيا الإسلامية_ لم تتجاوز بالكاد نصف قرن[٧]. أضف إلى ذلك الطابع العسكري لهذه المرحلة والنضال المستمر من قبل الأفارقة الذين كانوا يعملون تحت قيادة المسيحين في شمال اسبانيا يجعل من عملية بناء المعالم الدفاعية في هذه المرحلة شبه معدوم إن لم يكن معدوماً[٨]. وهذا ما يؤكدهُ المؤرخ الألماني

1- Terrasse, H. L' art bispano-mauresque des origines att XII/e siecle, Paris, 1932, pp. 223-244.

2- Cabañero Subiza, B. La Aljafería. I. Zaragoza: Cortes de Aragón, 1998, p. 50.

3- Sebastián, E. La Aljafería de Zaragoza. Zaragoza: Cortes de Aragón, 2006, 6ª ed., p. 15.

٤- السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص١٠١، ١٠٩.

٥- الريحاوي: العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٣٦٤.

٦- الريحاوي: العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٣٦٣.

7- Bosch Vilá, J.; Molina López, E. Los almorávides, 1990, Granada, p. 13.

8- Henri. Consequences d'une invasion berbere: le role des Almoravides dans l' histoire de de l' Occident, apud Melanges d' Histoire du Ivioyen Age dedies a la memoire de Louis Alphe, p. 681.

الألماني أشباخ "على إن هذه المنشآت كانت دائماً قليلة نادرة"[1] وهذا من أهم الصعوبات التي واجهت إعداد هذا البحث لندرة العمارة العسكرية المرابطية (الدفاعية).

الأمثلة المرتبطة بالعمارة العسكرية المرابطية قليلة جداً إن لم تكن نادرة في بلاد الأندلس، يعود ذلك على الأغلب نتيجة سياسة التقشف، أضف إلى ذلك أن فترة حكمهم في الأندلس التي كانت قصيرة. ولكن خلال المراحل اللاحقة تميز الفن المرابطي بالإبداعات الحقيقية ومن أهم الأمثلة التي تجلت بقصر الجعفرية في سرقسطة، وقلعة منتقوط في مرسية، أهم العناصر الدفاعية المتوفرة في هذه المعالم التاريخي الدفاعية هي:

١- أشباخ (يوسف): تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عنان، ٢ جزء، الرباط، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، ١٩٤٠م، ج١، ص٢٥١.

قصر الجعفرية

أولاً_ لمحة تاريخية.

أُطلق عليهِ بالعربية: قصر الجعفرية، وبالإسبانية: بالاسيو دي لا الجعفرية، وهو قصر محصن بني خلال (القرن السادس الهجري / النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي) في سرقسطة، كان مكان الإقامة لسلالة بنو هودِ في عهد آل المقتدر أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر، يعكس الروعة التي حققتها المملكة في عهد ملوك الطوائف ثم أثناء الحكم المرابطي في سرقسطة في أوج عظمتهما، مساحتهُ٨٠م x ٧٠م. يحتوي القصر حالياً على كورتيس (البرلمان الإقليمي) من منطقة الحكم الذاتي أراغون[1]. وتجدر الإشارة هنا الى أنهُ من خلال الإطلاع والاعتماد على المصادر والمراجع الأجنبية وبخاصة الإسبانية منها، تبين لنا أن المرابطين اهتموا بتحصين القصر للدفاع عن سرقسطة "أي أن الأنظمة الدفاعية الموجودة في القصر في أغلبها يعود لفترة المرابطين، ولذلك سنستعرض أهم الأنظمة الدفاعية المرابطية في قصر الجعفرية[2].

الشكل (٢٧) صورة جوية لقصر الحعفرية حالياً[3].

1- Biel Ibáñez, M. "Nuevas noticias sobre el palacio de la Aljafería", Guillermo Fatás (dir.) Guía histórico-artística de Zaragoza. Zaragoza City Council, 4th ed, 2008, pp. 711-712.

2- Cabañero Subiza. La Aljafería. I. Zaragoza: Cortes de Aragón, p. 49.

3- Biel Ibáñez. "Nuevas noticias sobre el palacio de la Aljafería". Guillermo Fatás (dir.) Guía histórico-artística de Zaragoza, Zaragoza City Council, p. 2, fig. 2.

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القصر:

١_ الموقع:

تقع سرقسطة عند تخوم الأندلس الشمالية، دخلها المرابطون سنة (٥٠٣هـ / ١١١٠م) لكنهم لم يحكموها سوى ثمانية سنوات، ففي سنة (٥١٢هـ / ١١١٨م) استولى عليها ملك أراغون ألفونسو الأول[١]، كان قصر الجعفرية جزءاً من قصبة سرقسطة، أي حصنها المنيع الذي يقيم فيه الحكام والجند، يقع القصر شرقي سرقسطة وخارج أسوار المدينة، على مقربة من الضفة اليمنى لنهر إيبرو، وإن الذي يهمنا من هذا القصر الحالي هو جناحهُ الأيسر "أي القصر الأندلسي"[٢].

٢_ الأبراج:

ترجع السويات المعمارية الأولى من بناء البرج المسمى ببرج تروبادور (برج الشاعر المتجول). الموجود في الجزءِ الشمالي تاريخها إلى (منتصف القرن الرابع وبداية القرن الخامس الهجري / نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلادي)، في الفترةِ التي يحكمها محمد بنو تجيب الأول، ذات أساس رباعي الشكل، والسويتان الثانية والثالثة تعودان لفترة بني هود، حيث شكل البرج عنصر دفاعي معزول ومتقدم عن القصر، أما السويات الرابعة والخامسة والسادسة لفترة المرابطين، وفصل لستة أقسام، والتي يتم فصلها بواسطة أعمدة على شكل صليب ومقسوماً بالأقواس. وعلى الرغم من بساطتهِ، إلا أنهُ يتصف بالمتانة، وهي تشكل مساحة متوازنة ويمكن استخدامها كحمامات للطبقة الحاكمة في القصر[٣].

البرج يحتوي على بقايا من بداية الجدران الثقيلة من حجر المرمر (الرخام الأبيض اللامع) حيث استخدمت كأساسات للمبنى، ويستمر استخدامها صعوداً مع طبقة من الجص وحجر الجير الخرساني، وهو مادة أرق للوصول إلى مستويات أعلى والتي استخدمت بكثرة في الفترة المرابطية. من الخارج لا تكشف تقسيم الطوابق الداخلية إلى خمسة طبقات دليل على التقشف المرابطي، ويظهر على شكل موشور. وللوصول إلى الأقسام الداخلية من البرج، كان يتم عبر باب صغير في الارتفاع بحيث كان من الممكن الدخول عن طريق استخدام سلالم محمولة.

١- بائين (خيرو نيمو): المرابطون والموحدون المسالك الثقافية، تر: عاصم باشا، الرباط، مؤسسة التراث الأندلسي،٢٠٠٠م، ص٧٨_٧٩.

٢- عنان (محمد عبد الله): الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٩٧م، ص١٠٥.

3- Manuel Gómez, M.; Monumentos arquitectónicos de España, Granada, Madrid, 1907, pp. 38-39.

وكانت وظيفة هذه السوية أي البرج هي دفاعية بشكل أساسي، أي للقيام بعملية المراقبة ولإيصال الرسائل إلى بقية أجزاء البناء، في حال تعرض القصر لأي خطر أو حصار، وقد دعمت واجهة القصر بستة أبراج دفاعية شبه دائرية[١]، إلا أن الأبراج التي تظهر في (الشكل، ٢٨) بصورتها الحالية تعود لترميمات ملوك أراغون التي رممت على الطراز الإسلامي.

٣_ الأسوار:

الشكل (٢٨)[٢].

محصنة ذات التصميم المستطيل، وجزء من محيطها مبني من اللبن (الأكثر استخداماً في الفترة المرابطية) ودعمت هذه الأبدان في واجهة القصر بالأبراج. من خلال (الشكل، ٢٨) نلاحظ أن الأسوار الحالية للقصر هي نتيجة لأعمال الترميم الحديثة التي تعرض لها المبنى.

1- Torres Balbas, L. Arte almohade, arte nazarí, arte mudéjar, «artes Hispania», vol. IV 1949, pp. 13-14.

2- https://twitter.com/aboulfeda/status/525747797778518017.

٤_ الخندق:

نلاحظ وجود الخندق من خلال (الشكلين، ٢٧_٢٨) ولكن هذا الخندق لا يعود للمرحلة التاريخية التي هي قيد الدراسة، حيث تبين من خلال البحث بأن هذا الخندق يعود للحقبة المعاصرة لسيطرة ملوك أراغون على القصر.

٥_ مرامي السهام:

توجد مرامي للسهام في واجهات كافة الأبراج بمعدل بين ٤ إلى ٦ مرامي في كل برج، فهي تبدو بأنها ضيقة وتسمح للمدافعين عن القصر في المراوغة ومراقبة تحركات العدو من كافة الاتجاهات.

٦_ السقاطات والرواشن:

لم يتم ملاحظ وجود هذا العنصر الدفاعي الهام السقاطات من خلال الاطلاع على المصادر والمراجع أو من خلال الصور المتوفرة عن القصر.

٧_ الشرافات:

لوحظ وجودها فوق الأسوار والأبراج بشكل زخرفي ودفاعي، من خلال (الشكلين، ٢٧_٢٨)، ولكن هي تعود للفترة الأراغونية.

٨_ مواد البناء:

وقد استمر استخدام الآجر والحجارة المشذبة كمادة أساسية في بناء القواعد، ولكن العنصر البارز في هذه المرحلة كانت تيجان الأعمدة. وتميزت العمارة في هذه المرحلة بوفرة الزينة، واستخدام القناطر وعلى الطراز الباروكي وهو فن زخرفي إسباني انتشر في فترة العصور الوسطى بأشكال هندسية، كالمقرنصات والسقوف الخشبية[١].

بعد السيطرة على سرقسطة سنة (٥١٢هـ / ١١١٨م) من قبل ألفونسو الأول ملك أراغون[٢]، أصبح قصر الجعفرية مقر إقامة الملوك المسيحيين في مملكة أراغون، وأصبح مثال معماري

١- الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص٣٨١.

2- Aranda Ramos, M., “Aproximación al estudio de la estructura de la población de Archidona”, en Jábega, nº 50, 1985, p. 199.

يحتذى به لانتشار العمارة في أراغون[1]. وكانت مسقط رأس سانت إليزابيث من البرتغال في سنة (٦٦٩هـ / ١٢٧١م)، كما أن القصر كان المقر الملكي للملك بيتر الرابع من أراغون وفي وقت لاحق، وكما أشرنا سابقاً في الشكلين (٢٧_٢٨) أن التجديد والتحويل على موقع المبنى الرئيسي، إلى هذا القصر جرى من قبل الملوك الكاثوليك سنة (٨٩٧هـ / ١٤٩٢). وفي سنة (١٠٠١هـ / ١٥٩٣م)، شهدت البنية المعمارية تحديث آخر بحيث تم تحويلها إلى قاعدة عسكرية، في أول عصر النهضة وفقا للتصميم الحالي (أي اليوم والتي يمكن ملاحظتها في الخنادق والحدائق المحيطة بالقصر) وفيما بعد الأقسام العسكرية، المبنى تعرض لتعديلات مستمرة. يعد قصر الجعفرية فريد من نوعه وذلك لكونه أحد اهم الأمثلة من العمارة الإسلامية الأندلسية العصر المرابطي.

في نفس الوقت استخدمت السقوف المقببة ممثلة في قبة المحراب من المسجد الكبير بتلمسان في شمال افريقيا، والتي تتبع نموذج القرطبي المتقاطعة الأقواس أضافة إلى المقرنصات المزينة بالجص والزخارف النباتية[2].

1- Torres Balbás, "Arte Almohade. Arte Nazarí. Arte Mudéjar", en Arts Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispánico IV, p. 161.

2- Torres Balbas, L. Los zócalos pintados en la arquitectura hispanomusulmana (Al-Ándalus), VII, 1942, p. 395.

لابد من الإشارة أنهُ يمكن إضافة بعض الأمثلة حول العناصر الدفاعية التي تعود لهذه المرحلة:

ابتكر المرابطون نظاماً جديداً في تخطيط أسوار المدن في الأندلس وخاصةً في عهد الأمير علي بن يوسف، فعمدوا إلى الإكثار من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة، وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعدائهم يتقدمون داخل إحدى الزوايا ثم يندفعون عليهم من أعلى الأسوار فيفتكون بهم[١]، ويتألف السور في الأندلس في أعلاه من درب يسير عليهِ المحاربون ويسميه المؤرخون أحياناً بممشى السور، وفيه فتحات لرمي السهام يقذفون منها سهامهم، وشرافات يحتمون خلفها، ويتخلل السور سقاطات تساعد المحارب على النظر إلى الأسفل دون أن تصيبهُ أسهم الأعداء[٢].

أسوار قرطبة، اشبيلية، غرناطة:

ضمن أسوار **قرطبة** يوجد أجزاء منها تعود لفترة المرابطين، وهي أجزاء من السور الشمالي الشرقي وهي عبارة عن سور مستقيم[٣]، مستطيل الشكل مصنوع من الحجارة الملساء "نلاحظ أنه من الصعب تميز هذا السور الذي وصفه المؤرخون في (القرن السابع الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي)"، ويعود سبب ذلك إلى وجود خمس مدن صغيرة الحجم بتلك الفترة في قرطبة محاطة بأسوار دفاعية لكل واحدة منها من دون السور الخارجي لكل المدن[٤].

أما بمدينة **إشبيلية** فالمرابطون هم الذين قاموا بتحديد أساسات الأسوار التي تحدد اليوم رقعة المدينة التاريخية[٥]، هناك أجزاء صغيرة من السور التي تعود إلى فترة المرابطين، حيث يوجد بقايا لسبعة أبراج، وكانت مهمتها المراقبة، وهي متعددة الأشكال منها المستطيل[٦]، ومنها المربع

١- حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٧٤؛ الجمل (محمد عبد المنعم): قصور الحمراء، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص٣٣.

٢- حمدي: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٧٤.

٣- حمدي: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٧٥.

4- Garcia Gomez: Crono-Arqueologia de la espana muslmana, Sapana-Cordoba, p. 18.

٥- بائين: المرابطون والموحدون المسالك الثقافية، ص٤٣.

٦- الصلابي: الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ص٢٠١.

Garcia Gomez: Crono-Arqueologia de la espana muslmana, p. 21.

الشكل، فهي غير منتظمة الأشكال، مصنعة في الجزء الأسفل منها من الحجارة الصغيرة ذات الارتفاع ٨٢ سم وهي ملساء الشكل[١].

أما بمدينة **غرناطة** فنجد ضمن أبوابها المعروفة حالياً جزء صغير مبني من الحجارة المشذبة (المتقنة الصنع) تشبه بشكل كبير تلك الموجودة على مدخل قرطبة، وهي تعود إلى الفترة المرابطية، وفوق الحجارة المشذبة[٢] كان هناك الجص المخلوط مع الطين والكلس والذي يعود للفترة المرابطية[٣].

من خلال عدة بقايا فخارية اكتشفت في أسفل سور اشبيلية جميعها أورخت للفترة المرابطية، ولكن البقايا المعمارية في أعلى السور أورخت للفترة الموحدية بشكل قاطع وهي تعود الى سنة (٥٦٧هـ / ١١٧٢م)[٤].

وقد قام الباحث الأثري فلورينتينو بوثو بتنقيبات آثرية في الأسوار التي تسمى (مارثينا) في مدينة قرطبة، ومن خلال اللقى الآثرية التي وجدها الباحث، فيؤرخ هذا الجزء من السور بين (القرنيين الخامس والسادس الهجريين / القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين)، ولكن المعطيات المعمارية تدل على أن السور قد أكمل بشكل كامل في الفترة الموحدية وعلى الأرجح أن الإنشاء الأول لأسوار مدينة إشبيلية يعود بين (القرنين الخامس والسابع الهجريين / القرنين العاشر والثاني عشر الميلاديين) بموجب التنقيبات الآثرية الحديثة وبالتالي فالغالبية العظمى بين الباحثين ينسبوها الى فترة ملوك الطوائف والمرابطين[٥].

1- Garcia Gomez: Crono-Arqueologia de la espana muslmana، p. 20.

2- Jimenez Maqueda; Perez Quesada: "La muralla Huerfana a vueltas con el ultimo reciento amurallado de madinat Isbilia"، p. 270.

٣- عبد الحميد (سعد زغلول): العمارة والفنون في دولة الإسلام، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٨٦م، ص٥٠٣؛ بهنسي: الفن الإسلامي، ص٣٠٤.

4- Jimenez Maqueda; Perez Quesada: "La muralla Huerfana a vueltas con el ultimo reciento amurallado de madinat Isbilia"، pp. 273-274.

5- Jimenez Maqueda; Perez Quesada: "La muralla Huerfana a vueltas con el ultimo reciento amurallado de madinat Isbilia"، p. 247.

أولاً_ لمحة تاريخية:

من أشهر قلاع المرابطين في الأندلس قلعة منتقوط [مننتياغودو] التي تشرف على بساتين مرسية[١]، وتسمى اليوم بالقصير[٢]، فقد بنيت القلعة في عهد علي بن يوسف[٣]، مخطط هذا القصر (الشكل ٣٠) يبدو السلف المباشر لقصر علي بن يوسف في مراكش، وليس لدينا دليل التي تحدد المحور الرئيسي للمصنع والعلاقة الواضحة مع المباني في مدينة الزهراء "والجعفرية سرقسطة. هذا مخطط له تشابه في زيري قصر عشير في الجزائر، (القرن الخامس الهجري / القرن العاشر الميلادي) وفي قلعة بني حماد في الجزائر، (٣٩٧_٣٩٨هـ / ١٠٠٧_١٠٠٨م) وزيزا وكوبا باليرمو (صقلية)[٤]، واسم مننتياغودو يعود اسمها إلى المنحدرات الشديدة حيث استقرت القبائل العربية، ويلاحظ المؤرخ روبرت بوكلينجتون أن بعض المصادر العربية ذكرت في (القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي) ووصفت (Muntaqüd Munt.qüd). في أواخر العصور الوسطى، والنصوص القشتالية تشير إلى مونتياغودو، من اللاتينية (جبل آغودو)[٥].

ووفقاً للباحث توريس فونتيس، الدلائل الأولى من التحصينات تعود للأعوام (٤٧٠_٤٧١هـ /١٠٧٨_١٠٧٩م)، عندما سجن الملك المخلوع من مورسيا، عبد الرحمن بن أبي طاهر في قلعة هذه المنطقة. وقد بناها محمد بن سعيد المعروف ابن مردنيش المتوفى (٥٦٨هـ / ١١٧٢م) في(القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي)، على رأس كتلة صخرية من الحجر الجيري (الصخري) الحاد، للاستفادة من الطابع العسكري والاستراتيجي لهذه الكتلة الصخرية.

١- الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص٣٨٣؛ حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٧٦؛ مورينو (مانويل جوميث): الفن الإسلامي في اسبانيا، تر: لطفي عبد البديع _ السيد عبد العزيز سالم، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م، ص٣٣٣؛ الجمل: قصور الحمراء، ص٣٣.

٢- الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص٣٨٣؛ حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٧٦؛ مورينو: الفن الإسلامي في اسبانيا، ص٣٣٣.

٣- الهرفي: دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، ص٣٨٣؛ حسين: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص٣٧٦.

4- Torres Balbas, L.: « Monteagudo y el Castillejo en la vega de Murcia », in Al-Andalus, t, II, 1934, p. 364.

5- Heinrich G.; Ernst Díez. Arte del Islam, Madrid-Barcelona-Buenos Aires, 1932, p. 79.

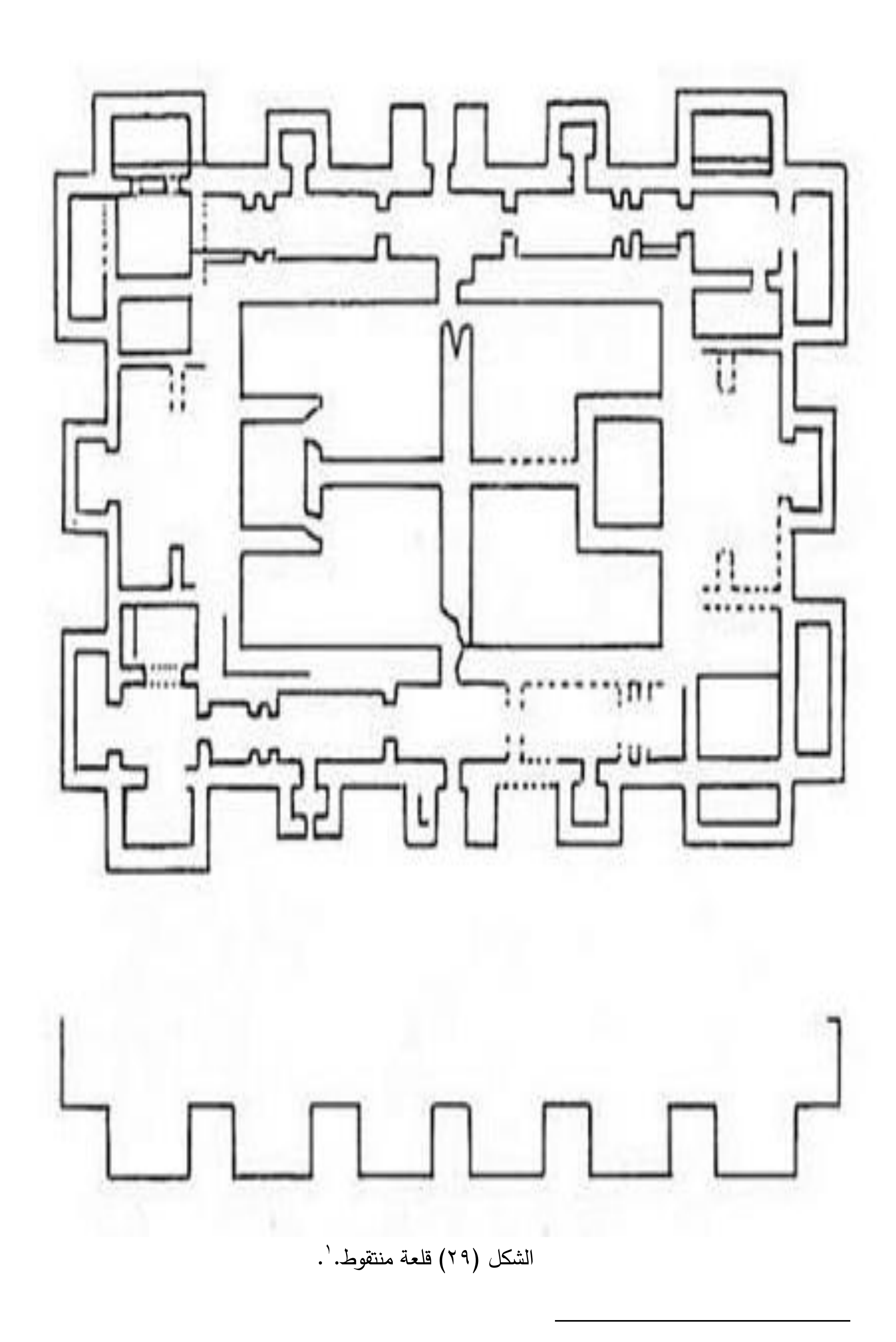

الشكل (٢٩) قلعة منتقوط.[١]

1- Jiménez Castillo, P.; Navarro Palazón, J. «Génesis y evolución urbana de Murcia en la Edad Media», Murcia ayer y hoy, Murcia, 2000, p. 49, fig. 6.

من تلك اللحظة أصبحت قلعة حقيقية وبرج مراقبة دفاعي من أمراء مورسيا الذين كانوا يقيمون في المدينة، وهي جزء من المونيا الملكية، التي بنيت أيضاً من قبل الملقب "الملك الذئب"[١] وقد أطلقت المصادر الاسبانية على ابن مردنيش هذا اللقب[٢].

في (القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي)، قبل وقت قصير من الغزو المسيحي، تغنى الشاعر القرطاجني بالسهل الكبير من فيغا ديل سيغورا اي تلك المنطقة المحيطة بالقلعة. في سنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) عندما تأسست ملوك الطوائف الثانية في مدينة مورسية كمحمية لتاج قشتالة، مع تدخل مملكة أراغون لقمع الانتفاضة المغربية سنة (٦٦٢هـ / ١٢٦٤م)، سيكون من الحكمة جعل إقامة الملك ألفونسو العاشر (٦١٨_٦٨٣هـ / ١٢٢١_١٢٨٤م) في مدينة مورسية[٣]، كما وردت في وثائق أواخر العصور الوسطى، وقد أدى العمل الفكري الهائل بعض الكتاب إلى تسليط الضوء على الأهمية الثقافية للمونتياغودو على مر السنين[٤].

تعد القلعة من الأمثلة القليلة للعمارة العسكرية الأندلسية الفخمة. ووفقاً للعديد من المصادر[٥]، كان المبنى يقع في وسط السهول الواسعة التي تضم قسم كبير من الأراضي الجافة والمروية (الشكل، ٣٠). كل الأدلة تشير على أنه هو قصر متعة للأمير ابن مردنيش، العدو اللدود للموحدين[٦].

1- Torres Balbás, L., Ciudades hispanomusulmanas, Instituto Hispano-árabe de Cultura, Madrid, 1985, p. 481.

٢- بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص٢٩.

3- Monteira Arias, I., “Reseñas”, Hispania. Revista Española de Historia, vol. LXVII, nº 227, septiembre-diciembre, 2007, p. 1071.

4- Chueca Goitia, F. Historia de la arquitectura occidental. VI El siglo XX, las fases finales y España, Madrid, 1980: pp. 93-95.

5- Torres Balbas: « Monteagudo y el Castillejo en la vega de Murcia », in Al-Andalus, t. II, p. 63.

6- Pavón Maldonado, B., Tratado de arquitectura hispano-musulmana II, Madrid, 1999, p. 403.

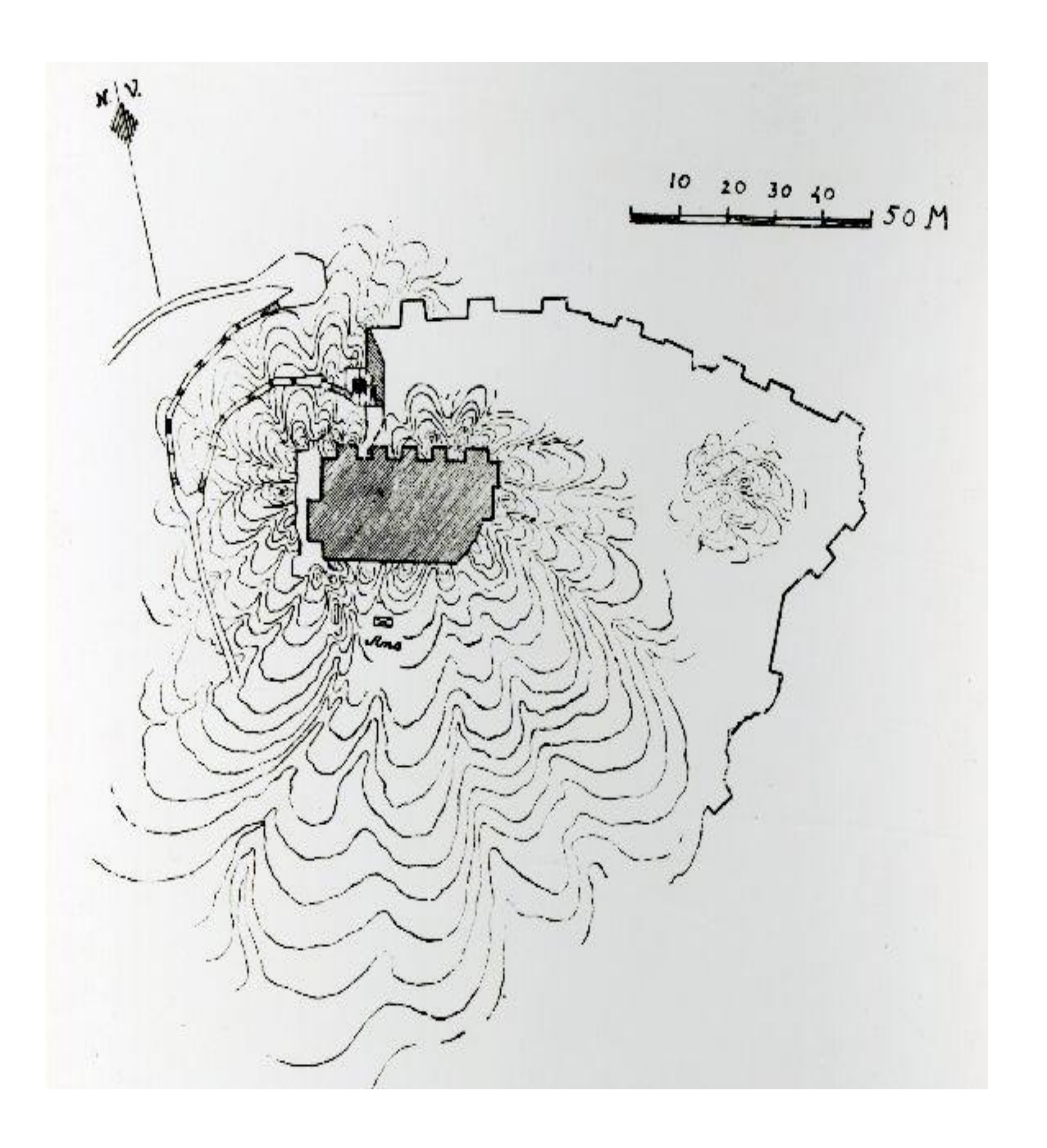

الشكل (٣٠) قطاع القلعة والمنطقة المحيطة[١].

1- Jiménez Castillo; Navarro Palazón, J. «Génesis y evolución urbana de Murcia en la Edad Media», Murcia ayer y hoy, p. 10, fig.1.

نالت القلعة اهتمام العديد من الباحثين منذ العصور القديمة[١]. ما بين عامي (١٣٤٣_١٣٤٤هـ / ١٩٢٤_١٩٢٥م) تم تنقيب المبنى من قبل الباحث أندريس سوبخانو، ولكن المذكرات الحقيقية للحفريات الأثرية كان لابد من أن تنتظر حتى سنة (١٣٥٢هـ / ١٩٣٣م)، عندما قام الأثري المعروف جداً توريس بالباس بدراسة هذا الصرح المعماري، وقام بدراسة مواد البناء، حيث كانت من المرمر والجبس، في سنة (١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م)، قام هنري تيراس في بحثه المعروف، بدراسة للقلعة مع كافة عناصرها المعمارية[٢]. وفي سنة (١٣٧١هـ / ١٩٥١م)، قام غوميز مورينو بنشر المجلدات حول القلعة، باختلاف مباشر عن دراسات توريس بالباس، وقدم من خلال دراساته تأريخ دقيق للقلعة على أنها(مرابطية_موحدية). من خلال الدراسات السابقة المذكورة أصبحت القلعة معروفة كصرح معماري شاهد على الحضارة المرابطية والموحدية في الاندلس[٣].

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

١_ الموقع:

حصن يقع على بعد ٥ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة مورسيا (إسبانيا)، وحوالي ١٠ كم جنوب غرب أوريهويلا، وعلى ارتفاع ١٤٩ متر، وإن شكلها تقريباً دائرياً والمساحة الكلية للقلعة

1- Pajares Ladrero, L.F, La comarca nororiental de Málaga: geografía, historia y cultura, Málaga, 2001, P. 89.

2- Azuar, R.: «Las técnicas constructivas y la fortificación almohade en al-Ándalus», Los almohades, Su patrimonio arquitectónico y arqueológico en el Sur de al-Andalus, Sevilla, 2004, p 58.

3- Recio Ruiz, Á. "Aportación a la carta arqueológica del T. M. de Archidona (Málaga) estudio de un nuevo yacimiento Ibérico", en Mainake, 1984-1985, nº 6-7, pp. 91-92؛ Torres Balbas: « Monteagudo y el Castillejo en la vega de Murcia », in Al-Andalus, t. II p. 364.

١٠٠٠ متر مربع (الشكل، ٣١). أصل الاسم من مونتياغودو، جوار الطريق الوطنية التي تربط مورسيا مع اليكانتي[1]، فهي تعد من المراكز الدفاعية الأمامية لمرسية[2].

إن موقع القلعة جعلها تلعب دور كبير في عملية الوصل بين الأندلس والساحل المتوسطي لشبه الجزيرة الابيرية، كما أنها كانت مزدهرة في (القرنيين السادس والسابع الهجريين / القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين)، فهي تقع على تل يرتفع ٤٠٠ متر يشرف من خلالهِ على المنطقة[3].

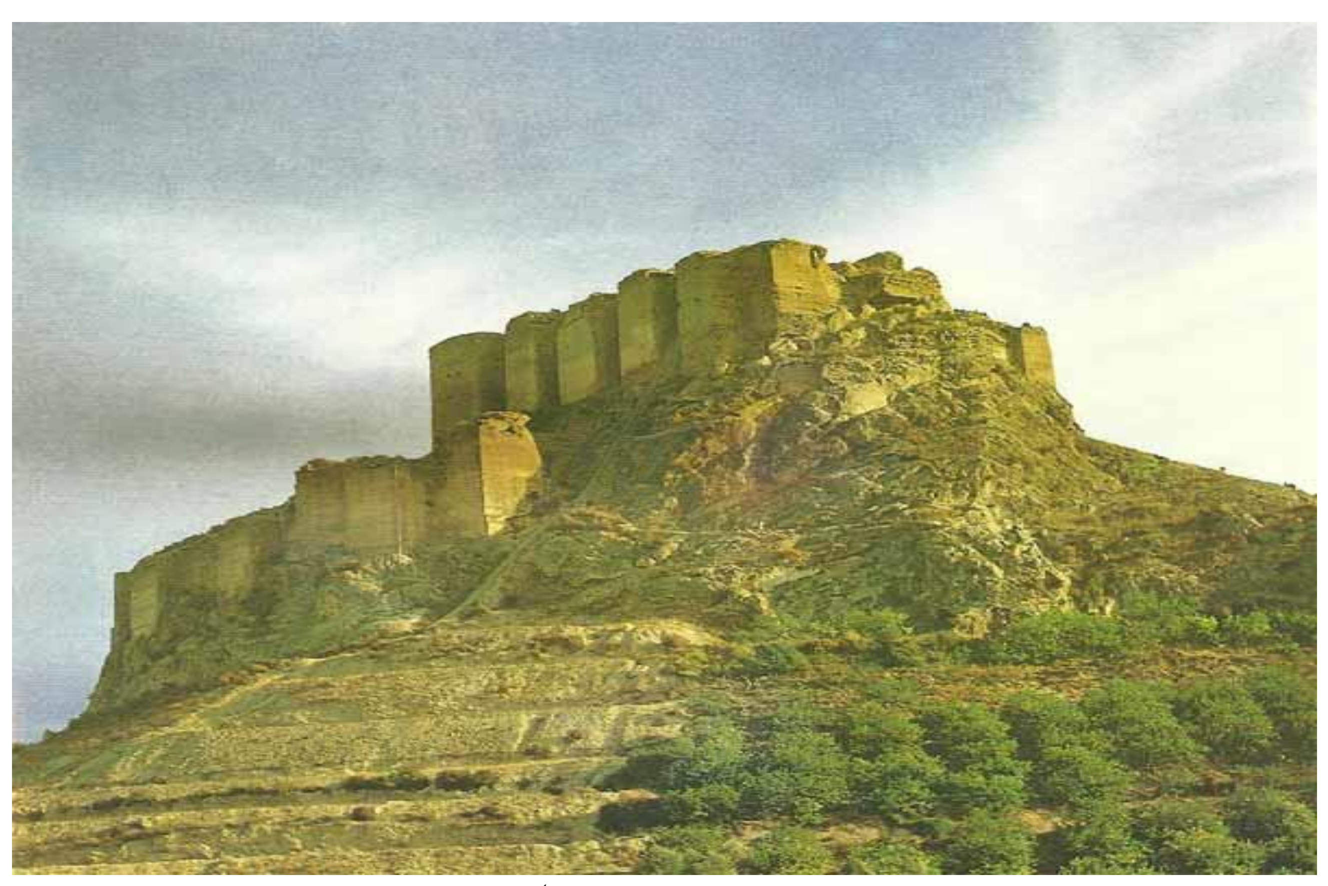

الشكل (٣١) قلعة منتقوط[4].

كانت القلعة والقصر في مونتياغودو جزء من برنامج معماري (الشكل ٣٢) تهدف إلى ضمان الدفاع عن أراضي مورسيا، حيث تحتوي من الداخل على الماء وصهريج في القسم

1- Jiménez Castillo; Navarro Palazón, «Génesis y evolución urbana de Murcia en la Edad Media», Murcia ayer y hoy, Murcia, pp. 88-90.

٢- عنان: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص١٠٠.

٣- مورينو: الفن الإسلامي في اسبانيا، ص٣٣٤.

4- Biel Ibáñez, "Nuevas noticias sobre el palacio de la Aljafería". Guillermo Fatás (dir.) Guía histórico-artística de Zaragoza. pp. 712.fig, 4.

الغربي، وكان يستخدم لمياه الشرب إلى جانب الري، يمكن أن تستخدم القلعة خلال الاحتفالات في جزء من الحياة اليومية للقصر[١].

٢_ الأبراج:

تأخذ القلعة الجزء العلوي من كتلة صخرية مرتفعة في موقع استراتيجي تطل على سهل سيغورا، وهي في الأساس قلعة نظمت على ثلاث منصات متداخلة. (الشكل،٣٢) المنصتان

الشكل (٣٢) صورة جوية للقلعة[٢].

الأوائل، حفرتا في نتوء صخري، بينهما برزت معالم باب واضحة، المنصتان لهما شكل حرف "L" حيث يحيطان بالتل على الجانبين الشمالي والشرقي[٣]، في المنصة الثانية يوجد عدداً من

1- Navarro Palazon, J., Jiménez, P. «El Castillejo de Monteagudo: Qasr Ibn Sa‘d», in Casas y palacios en al-Andalus. Siglos XII Y XIII., Grenade, Fundación El Legado Andalusí, 1995, 1995, p. 75.

2- Navarro Palazon, J.; Jiménez, P., «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, Editora regional de Murcia, 1993, p. 434, fig. 3.

3- Azuar: «Las técnicas constructivas y la fortificación almohade en al-Ándalus», Los almohades, Su patrimonio arquitectónico y arqueológico en el Sur de al-Andalus, pp. 57-58.

الوكالات والخزانات، ومنه يؤدي إلى الكتلة الثالثة، الجبهة الشمالية يحميها جدار مع خمسة أبراج مستطيلة ومنها مربع الشكل ذات ارتفاع يوازي ارتفاع النتوء الصخري على مقربة من بعضها البعض، أما الجبهة الجنوبية التي يتعذر الوصول إليها بسبب التضاريس الطبيعية (الشكل، ٣٣)، فيها جدار مشغول بطريقة فنية متقدمة.

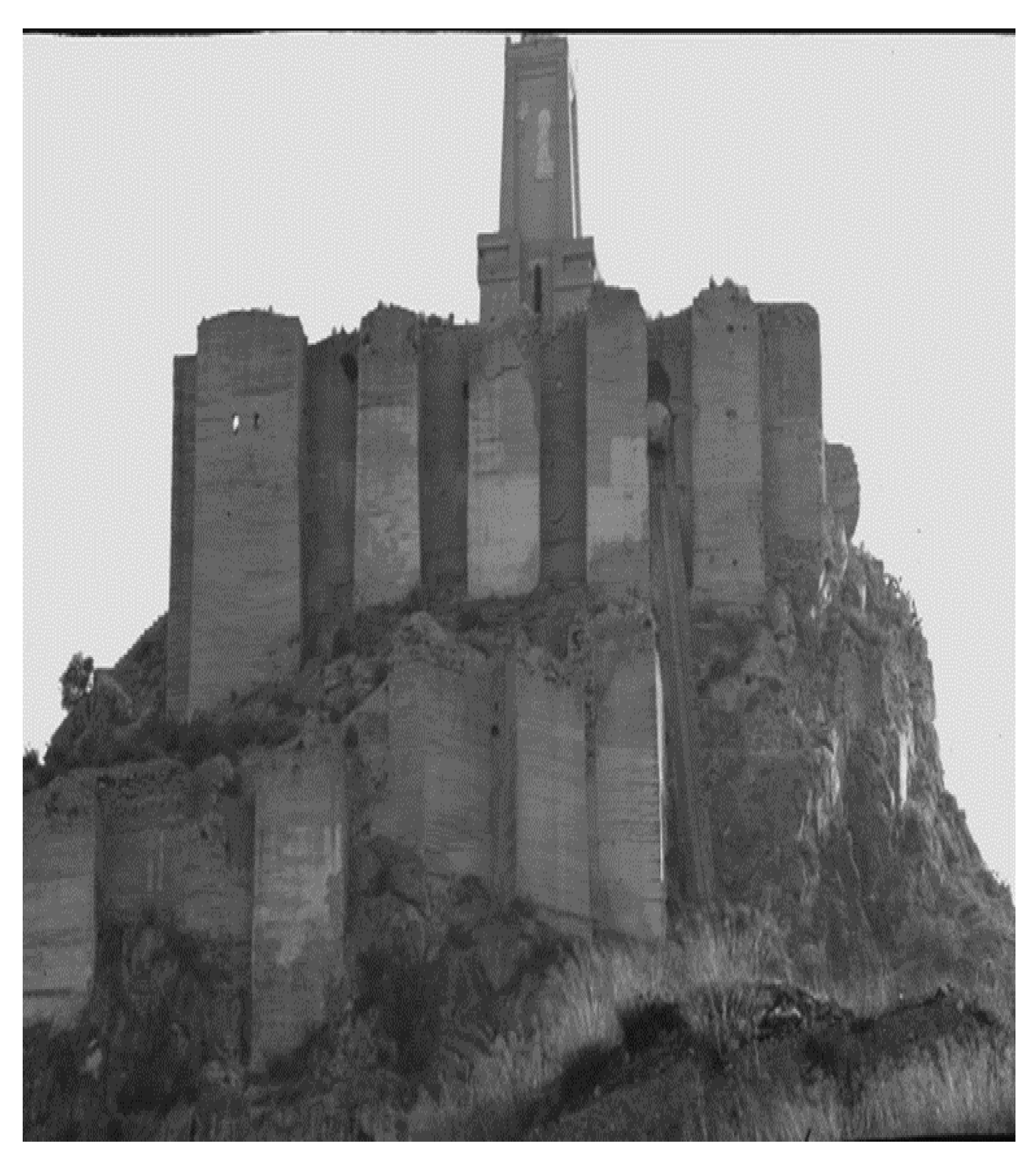

(الشكل ٣٣) قلعة منتقوط من الجهة الشمالية[1].

1- Manzano Martínez, José A. Fortificaciones islámicas en la huerta de Murcia: sector septentrional, memoria de las actuaciones realizada, Memoria de Arqueología, 1998, p. 393.

ويتكون البناء من مجموعة أساسية مستطيلة الشكل والتخطيط ومرفق على الجانب الغربي منها حرمين. كلاً منهم على الجانبين المنحيين الشمالي الغربي والجنوبي الشرقي. المساحة

الشكل (٣٤) برج دفاعي قلعة منتقوط[١].

1- Manzano Martínez, Fortificaciones islámicas en la huerta de Murcia: sector septentrional, memoria de las actuaciones realizadas, p. 393.

المركزية المستطيلة تم تقسيمها من قبل منصة صليبية الشكل إلى أربعة أجزاء، وكذلك لا بد من الإشارة إلى البركتين على جانبي المساحة المركزية المشار إليها سابقاً، على الجانبين أيضاً يوجد أربعة أقسام التي تستوعب جميع غرف البناء، بالنسبة للأبراج كان لها علاقة مباشرة مع الأجنحة التي تضم الغرف على الجوانب، حيث تتكامل تماماً مع أرضية البناء، بصفتها تحتضن عدد من الغرف[١].

ومن المرجح أن هذه الأبراج لها وظيفة دفاعية أكثر من أن تكون سكنية، أو سور لغرفة، أما بالنسبة لأبراج الزوايا فهي شبه دائرية الشكل (الشكل، ٣٣_٣٤)، وفصلها عن القطاع العام لبقية الأبراج، وهي تتألف من غرف صغيرة[٢].

من خلال دراسة هذا المبنى تجد بفعالية العديد من المباني التي صممت لتكون أبراج محصنة حيث تنتشر على الزوايا مشكلة أبراج دفاعية محصنة ذات غايات دفاعية في الدرجة الأولى (الأشكال، ٣٢_٣٣_٣٤).

١- مورينو: الفن الإسلامي في اسبانيا، ص٣٣٥_٣٣٦.

Navarro Palazon, J.; Jiménez, P., «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, Editora regional de Murcia, 1993, pp. 440-442.

2- Navarro Palazon; Jiménez, «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno», in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, pp. 440-442.

الشكل (٣٥) قلعة منتقوط من الجهة الشمالية الشرقية[١].

٣_ الأسوار:

الأسوار موجودة في هذه القلعة هي عبارة عن سورين لكل مقطع من الهضبة المسافة بينهما ٣ أمتار، ويمتد ١٤ متر على طول الواجهة الغربية[٢]، والسور رصين الصنع مبني من الطابية، وارتفاع القالب منها ٨٢ سم [٣]، يربط بينها ٥ أبراج لكل سوية من الهضبة، كما يوجد في أعلى السورين ممشى للمحارب لكي ينتقل من خلاله ضمن السور إضافة الى ارتفاع بسيط ليحميه من الظهور ومن ضربات الأعداء، وهذا يظهر بشكل واضح في (الأشكال، ٣٤_٣٥_٣٦).

1- Manzano Martínez. Fortificaciones islámicas en la huerta de Murcia: sector septentrional, memoria de las actuaciones realizadas, p.393.

٢- مورينو: الفن الإسلامي في اسبانيا، ص٣٣٤.

٣- بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص٣٠.

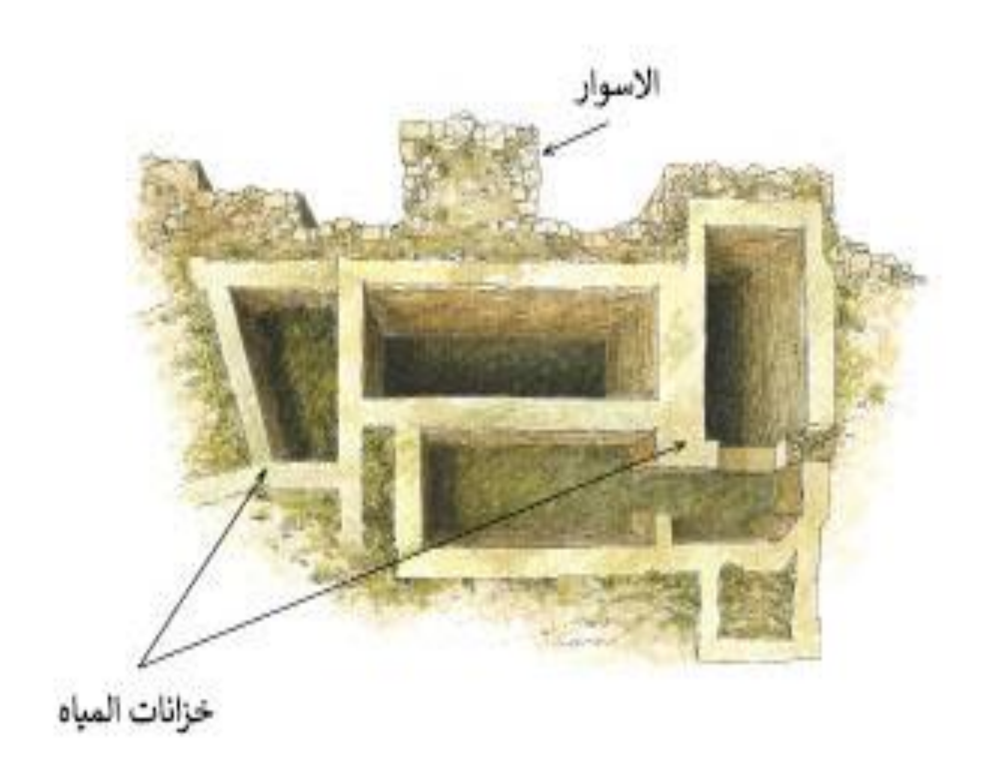

الشكل (٣٦) أسوار القلعة من الداخل مع مستودعات المياه[1].

٤ _ الخندق:

نتيجة التموضع على كتلة صخرية مرتفعة نسبياً، لا نلاحظ هذا العنصر الدفاعي، نتيجة الحماية الطبيعية للموقع الجغرافي التي كانت تتمتع بها القلعة، لذلك تم الاستغناء عن هذا العنصر الدفاعي الهام.

٥ _ مرامي السهام:

نلاحظ وجود مرامي السهام في بعض الأبراج، ولكنها صغيرة الحجم وقليلة ضمن البرج الواحد، لأسباب يتعذر تفسيرها لأنها غير مذكورة في المصادر والمراجع.

٦ _ السقاطات والرواشن:

لا نلاحظ وجود هذا العنصر الدفاعي المعماري الهام.

1- Torres Balbas: « Monteagudo y el Castillejo en la vega de Murcia », in Al-Andalus, t. II, p. 370. Fig. 1.

٧_ الشرافات:

نلاحظ وجودها من خلال الصور المعروضة، في السور المرتفع وضمن الأبراج ويتخللها مرامي للسهام، وهي ذات أشكال منتظمة مربعة الشكل فوق الأبراج ومستطيلة فوق السور. (الشكلين، ٣٤_٣٥).

٨_ مواد البناء:

الجدران مصنوعة من الحجارة الصغيرة ومتوسطة الحجم المخلوطة مع الطين المتميزة بالصلابة[١]، من المحتمل أنه أُعيد ترميمها في (القرن السابع الهجري / القرن الثالث عشر الميلادي)[٢].

من خلال دراسة تحليلية للأنظمة الدفاعية للبناء تم الكشف عن ملامح مثيرة للاهتمام:

المسافة الفاصلة بين برج وآخر تختلف باختلاف تضاريس الطبيعة للقلعة، السور الخارجي الأول يرتفع ٢ متر ذات سطح أملس وبشكل عامودي، والسور الخارجي الثاني يرتفع بين ٥ إلى ٦ أمتار، ومصنع من الحجارة الصغيرة المشذبة الجوانب أي الأملس ذات اللون الأحمر، وسماكة السور ٢ متر، أغلب الأبراج مستطيلة الشكل، سماكة الجدران تتراوح بين ١,٧٥ متر و٣ أمتار.

لا مفصلية بين القصر والفناء المركزي الكبير.

الجناحين الرئيسين للقصر في الجبهتين الشمالية والجنوبية قد تم تصغيرهما، وقد اختفت التجاويف في نهايات الجناحين المذكورين سابقاً[٣].

الأبراج على الزوايا صنعت لأسباب دفاعية، أضف إلى ذلك الحاجة إلى استخدامها كغرف سكنية.

١- مورينو: الفن الإسلامي في اسبانيا، ص٣٣٥.

2- Torres Balbas: « Monteagudo y el Castillejo en la vega de Murcia », in Al-Andalus, t. II, p. 370.

3- Navarro Palazon; Jiménez, «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, pp. 433-434.

الغاية الأولى لحصن منتقوط هي دفاعية لحماية السكان في سهول مدينة مرسية والمنطقة المحيطة بها من أي هجوم من شمال إسبانيا، وهذه الحماية تشمل عدد كبير من القرى الإسلامية التي كانت تسكن في سهول مرسية وهي تعتمد على النشاط الزراعي في اقتصادها.

من خلال المصادر التاريخية تبدو وظيفة هذا البناء عسكرية، تظهر أبعادها وتعقيداتها البنائية على أكثر من سوية تضاريسية، التي كانت واحدة منها بنيت من قبل القادة البارزين في ذلك الوقت، هذه العظمة للرد والدفاع على كل التهديدات القادمة من الوادي والمدينة، وخاصة بأنها ضمن السوية الثانية، والثالثة تحتوي على خزانات للمياه وأماكن لتخزين الأسلحة ومواد المؤن اللازمة[١].

وهذه الأمثلة آنفة الذكر تعد ضمن المنظومة الدفاعية المرابطية في الأندلس والمتمثلة في الأسوار والأبراج الدائرية أو المستطيلة أو المربعة، والتي كانت تلائم التضاريس المحيطة بكل مدينة تحدثنا عنها سابقاً[٢].

1- Azuar: «Las técnicas constructivas y la fortificación almohade en al-Ándalus», Los almohades, Su patrimonio arquitectónico y arqueológico en el Sur de al-Andalus, p. 74.

2- Garcia Gomez: Crono-Arqueologia de la espana muslmana, Sapana-Cordoba, p. 25.

أنظمة الدفاع وتقنيات البناء للعمارة العسكرية الموحدية في الأندلس.

في (القرن السابع الهجري / منتصف القرن الثاني عشر الميلادي)، كانت نهاية المرابطين من قبل الموحدين، وبداية حكم سلالة بربرية جديدة من شمال إفريقيا[١]، قبل سنة (٥٤٥هـ / ١١٥٠م)، وقد اتخذ الموحدون من مراكش مركزاً لهم في المغرب العربي الإسلامي بعد هزيمتهم للمرابطين فيها، كما اتخذوا من إشبيلية مركزاً لهم في الأندلس، لكن بعد تجمع قوات أراغون وقشتالة وهزيمتهم للموحدين في معركة العقاب، فشكلت تلك الفترة نقطة تحول في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية وبداية عصر جديد في بلاد الأندلس.

نتيجة هجمات الإسبانية وحلفائهم بني مردنيش وابن همشك في خلافة عبد المؤمن وبداية عهد يوسف تعرضت مصالح المسلمين والمسلمين حول قرطبة وغرناطة للخطر، وما خربه الموحدون أيضاً في شرق الأندلس حتى أصبح خراباً[٢]، وبعد ضم بلاد بني مردنيش حاول الموحدون نقل الصراع إلى مناطق نصارى إسبانيا وتخريب زروعهم وبنوا الحصون حماية لأراضيهم، اهتم الموحدون بإنشاء عدد كبير من القلاع والحصون في بلاد المغرب العربي الإسلامي والأندلس، ومن الخلفاء الموحدين الذين اهتموا بالبناء الحربي الخليفة عبد المؤمن بن علي، والخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، والخليفة المنصور يعقوب بن يوسف، والخليفة الناصر محمد بن عبدالله، ينسب إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي بناء سور تاكررت سنة(٥٤٠هـ / ١١٤٥م)[٣].

أسس حركة الموحدين المهدي محمد بن عبد الله بن تومرت، وكان مقرهُ في بلدة تنمل في جبال الأطلس سنة (٥١٥هـ / ١١٢١م)، وحين توفى سنة (٥٢٤هـ / ١١٣٠م)، خلفهُ تلميذهُ وساعدهُ الأيمن عبد المؤمن بن علي الذي يرجع إليه الفضل في تأسيس دولة الموحدين وسيطرتهِ على كامل المغرب العربي الإسلامي وبلاد الأندلس سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م) بعد القضاء على دولة المرابطين، وبعد أن أعدَّ جيشاً لينطلق بهِ إلى الأندلس لمحاربة قشتالة وبرشلونة التي تؤلف خطراً

1- Torres Balbás, L., Ciudades hispanomusulmanas, Instituto Hispano-árabe de Cultura, Madrid, 1985, pp 478-481.

2- Otero Cabrera, I., “El cerro de la ermita de la virgen y su entorno arqueológico e histórico”, en Rayya, (eds.) Revista Cultural de la Comarca Norte de Málaga, Archidona, Málaga, nº 1 (1), 2004, p. 11.

٣- زغروت (فتحي): الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين "المغرب والأندلس، القاهرة، دار الإسلامية التوزيع والنشر، ط١، ٢٠٠٥م، ص١٤٩.

دائماً على المسلمين في الأندلس، لكن وفاة الخليفة عبد المؤمن بن علي سنة (٥٥٨هـ / ١١٦٣م) وانشغال أهل بيتهِ أوقف مخططهُ لفترة، ولما استتب الأمر لابنهِ أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الملقب أمير المؤمنين، أرسل عدة جيوش الى الأندلس لإيقاف غارات الإسبان، ثم خرج بنفسهِ لقتالهم سنة (٥٦٦هـ / ١١٧٠م) وحتى سنة (٥٧١هـ / ١١٧٦م) ثم خرج ثانية إلى الأندلس سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) وتوفى فيها، خلفهُ ابنهُ أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور الذي كرس اهتمامهِ بالأندلس، وخرج مرتين إليها وانتصر على الإسبان في معركة الأرك سنة (٥٩٣هـ / ١١٩٥م).

لكن هذا التفوق الموحدي لم يستمر، بسبب الفتن الداخلية والصراع على السلطة فتراجعت قوة الموحدين أمام الإسبان الذين شددوا الضغط لاسترجاع الأندلس، وانهزم الموحدون في معركة العُقابِ سنة (٦٠٩هـ / ١٢١٢م)، وكانت بداية النهاية بالنسبة للوجود الاسلامي في الأندلس، إذ سقطت قرطبة بعد ذلك سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٦م) وتبعتها إشبيلية سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، وضعفت دولة الموحدين وتجزأت الى دويلات عدة، في الأندلس والشمال الافريقي، إلى أن زالت نهائياً سنة (٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)[١].

دعت حالة الحرب مع الإسبان وروح الجهاد الموحدية للاهتمام ببناء الحصون وتسوية المدن في المغرب العربي الإسلامي والأندلس، كما فعل الأيوبيين في المشرق[٢]، فوجهوا نشاطهم إلى العمارة العسكرية ذات الطابع الموحدي، وعمدوا إلى بناء سورين، سور داخلي وآخر خارجي يحتوي بدوره على أبراج ومشربيات ومختلف وسائل الدفاع[٣].

بدايةً اهتم الموحدون (٥٤٢_٦٦٧هـ / ١١٤٧_١٢٦٩م) ببناء الأسوار حول المدن ذات الطابع الإسلامي الخالص، وقد تبقت أجزاء كثيرة منها بمدن الأندلس كتلك التي مازالت قائمة في مدينة «ألْمِيريْة» من سور خَيْرَان العَامِري، وفي «قَاصْرِيش» هناك أجزاء من سورها الموحدي، وفي «بَطلِيُوس» بعض الأجزاء من السور الموحدي[٤]، فقد اهتم عبد المؤمن بن علي ببناء قلعة حصينة بجبل طارق سنة (٥٥٦هـ / ١١٦٠م) لتكون نقطة ارتكاز قوية لعملياتهِ الجهادية في

١- الريحاوي: العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٣٦٢_٣٦٣.

٢- الريحاوي: العمارة في الحضارة الإسلامية، ص٣٧٧.

٣- العطار (نادر): "العمارة الأندلسية في عصر الموحدين"، مجلة الحوليات الأثرية، ١٩٦٠م، المجلد العاشر، ص٥٣.

4- Navarro Palazon; Jiménez, « El Castillejo de Monteagudo: Qasr Ibn Sa‘d », in Casas y palacios en al-Andalus, Siglos XII Y XIII, Grenade, Fundación El Legado Andalusí, pp. 117-118.

الأندلس[١]، كما استخدموا العمارة لتخليد انتصاراتهم، فقد بنى يعقوب بعد انتصار الموحدين في معركة الآرك منارة اشبيلية تخليداً لذلك[٢].

مع قيام دولة الموحدون تحولت تقنية استخدام مواد البناء العسكري إلى استخدام نوع من الطين المخلوط بالحصى والرمل والجير الذي يدك في ألواح الخشب ليصبح صلباً كالحجر، وهو الذي يعرف بالمغرب العربي الإسلامي باسم "الطابية"[٣]، استعمل الموحدون القرميد على نطاق واسع في البناء رغبة منهم في السرعة بالعمل والاقتصاد في النفقات، وجمال الزخارف القرميدية[٤].

كما اهتم الموحدون بالعمارة الدينية ومن أبرزها في الأندلس الجامع الكبير بإشبيلية[٥]، وأدخل يعقوب المنصور بناء المدرسة في المغرب العربي الاسلامي والأندلس في نهاية (القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي)، وكان بناء المدرسة من طابقين وفي وسطهِ صحن مكشوف فيه حوض ماء، وكانت بعض المدارس متصلة بالمساجد المجاورة لها، بينما صممت بعدها بشكل منفصل[٦]، المنارات في العصر الموحدي قد تختلف في حجمها لكنها متشابهة في هيكلها حيث يصعد إليها بواسطة طريق مائل تدور حول قاعات مغطاة بالقبب[٧]، وتعتمد الزخرفة الزخرفة على الكتابة الكوفية والأشكال الهندسية كالأقواس أو الرسوم التي تحاكي الزهور والنخيل والصدف[٨].

اشتهر الموحدون بتشجيع وتطوير صناعة السفن بكافة أنواعها وبخاصة السفن الحربية منها[٩]، وقد أرسل صلاح الدين الأيوبي، الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين، رسوله الى يعقوب المنصور الموحدي، للتحالف معهُ ضد الصليبين ولطلب المساعدة من الأسطول

١- بالباس: الفن المرابطي والموحدي، ص٣٧.

٢- المنونى (محمد): حضارة الموحدين، الدار البيضاء، دار بوبقال، ط١، ١٩٨٩م، ص١٦٣.

٣- عبد الحميد: العمارة والفنون في دولة الإسلام، ص٥٠٣.

٤- العطار: "العمارة الأندلسية في عصر الموحدين"، ص٦٧.

٥- أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٤٠؛ العطار: "العمارة الأندلسية في عصر الموحدين"، ص٥١.

٦- فاجة (جمعة): موسوعة فن العمارة الإسلامية، دمشق، دار الملتقى، ٢٠٠٠م، ص٢٨٩.

7- Marçais, G., La arquitectura musulmana de Occidente, 1954. pp. 23-24.

8- Torres Balbas « Monteagudo y el Castillejo en la vega de Murcia », in Al-Andalus, t. II, pp. 52.

٩- المنونى: حضارة الموحدين، ص١٧٦.

الموحدي لصد هجمات الصليبيين، لكن صلاح الدين لم يلقب حاكم الموحدين في خطابهِ بأمير المؤمنين، ولهذا لم تتم المحالفة ضد العدو المشترك[١]، كما أنهم اشتهروا بالآلات الحربية وبخاصة المنجنيقات ذات الأبراج، وشاع استخدام الآلات القاذفة التي تقذف الكرات الملتهبة[٢] ويعتقد أن الموحدين أول من استعمل البارود في تلك الكرات[٣].

وعلى الرغم من أن الموحدون اعتنوا بالعمارة العسكرية بشكل خاص نظراً لأنهم كانوا في حالة حرب مستديمة مع الإسبان، فإن دراسة تحصيناتهم من أصعب ما يدرس في مخلفاتهم وآثارهم، وذلك بسبب خلوها من الزخارف والنقوش التي كانت تجلب اهتمام الباحثين والعلماء بشكل خاص، ولتهدم قسم كبير منها منذ قرون دون أن تعمد السلطات الإسبانية إلى ترميمها، دون أن يبقى لنا أي وصف فني أو تحليل هندسي[٤]، إضافة لذلك فإن أغلب الكتب التخصصية التي تتكلم عنها هي باللغة الإسبانية.

١- أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص٣٤١؛ المنونى (محمد): العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، الرباط، دار المغرب، ط٢، ١٩٧٧م، ص٢٥٤.

٢- المنونى: حضارة الموحدين، ص١٧٧.

٣- المنونى: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص٢٦٠.

٤- العطار: "العمارة الأندلسية في عصر الموحدين"، ص٦١.

قلعة جابر (Castillo de Alcalá de Guadaíra)

أولاً_ لمحة تاريخية.

دخل وسيطر ملك قشتالة فرناندو الثالث (٥٩٥_٦٥٠هـ / ١١٩٩_١٢٥٢م) على الأندلس خلال (القرن السابع الهجري / الربع الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي)، بين عامي (٦٢٢_٦٤٦هـ / ١٢٢٥_١٢٤٨م)، وفي هذا العام احتلت إشبيلية سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م)، حيث كانت عاصمة الموحدين في الأندلس في تلك الاثناء. تعد قلعة جابر من الأمثلة الموحدية الرئيسية للعمارة العسكرية الدفاعية في جنوب غرب إسبانيا (الشكل، ٣٦). بفضل الأبحاث التي أجريت منذ أواخر سنة (١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م)، قدمت لنا المعرفة حول التطور التاريخي لقلعة جابر في الكالا، حيث وفرت تلك الأبحاث التأريخ ومعلومات حول التطورات التاريخية التي رافقت بناء القلعة[١]، ولكن التنقيبات الحديثة لابد من أن تسلط الضوء حول حقائق مهمة متعلقة بتاريخ القلعة وجوانب أخرى. حتى (القرن الرابع عشر الهجري / منتصف القرن العشرين الميلادي) إن جميع الأبحاث ركزت حول التسلسل الزمني لأسوار القلعة، وحول الأصل الأندلسي الإسلامي لبناء الحصن، على الرغم من التعديلات الواسعة النطاق التي جرت خلال أواخر العصور الوسطى، بالمقام الأول في النواة المركزية للقلعة المعروفة حالياً بالقصبة حيث تتمركز في الجزء الغربي، كما تشير إلى أبحاث أشهر الكتاب على مستوى الآثار الاندلسية الإسلامية تورس بالباس[٢].

حصن جابر هو نتيجة لعملية مستمرة من التراكمات والتحولات على مدى عدة عصور، التي تبدأ من السويات الأيبرية الأولى٣. أما خلال الفترة الإسلامية يمكن تمييزها في منطقة القلعة من سويتان أثريتان على الأقل، على الرغم من تحفظات العديد من المختصين، السوية الأولى تعود

1- García Fitz, F. “Notas sobre la tenencia de fortalezas: los castillos del concejo de Sevilla en la Baja Edad Media”, Historia, Instituciones, Documentos, n 17: 1990: pp. 53-54.
2- Torres Balbás, “Dos obras de arquitectura almohade: la mezquita de Cuatrohabitan y el castillo de Alcalá de Guadaira”, pp.204.
3-García Fitz, F. “Notas sobre la tenencia de fortalezas: los castillos del concejo de Sevilla en la Baja Edad Media”, Historia, Instituciones, Documentos 17, 1990, pp. 82.

إلى (القرن الثالث الهجري / القرن التاسع الميلادي)، على الرغم من عدم تنقيب سويات هذه المرحلة بطريقة علمية[1]. (الشكل، ٣٧)

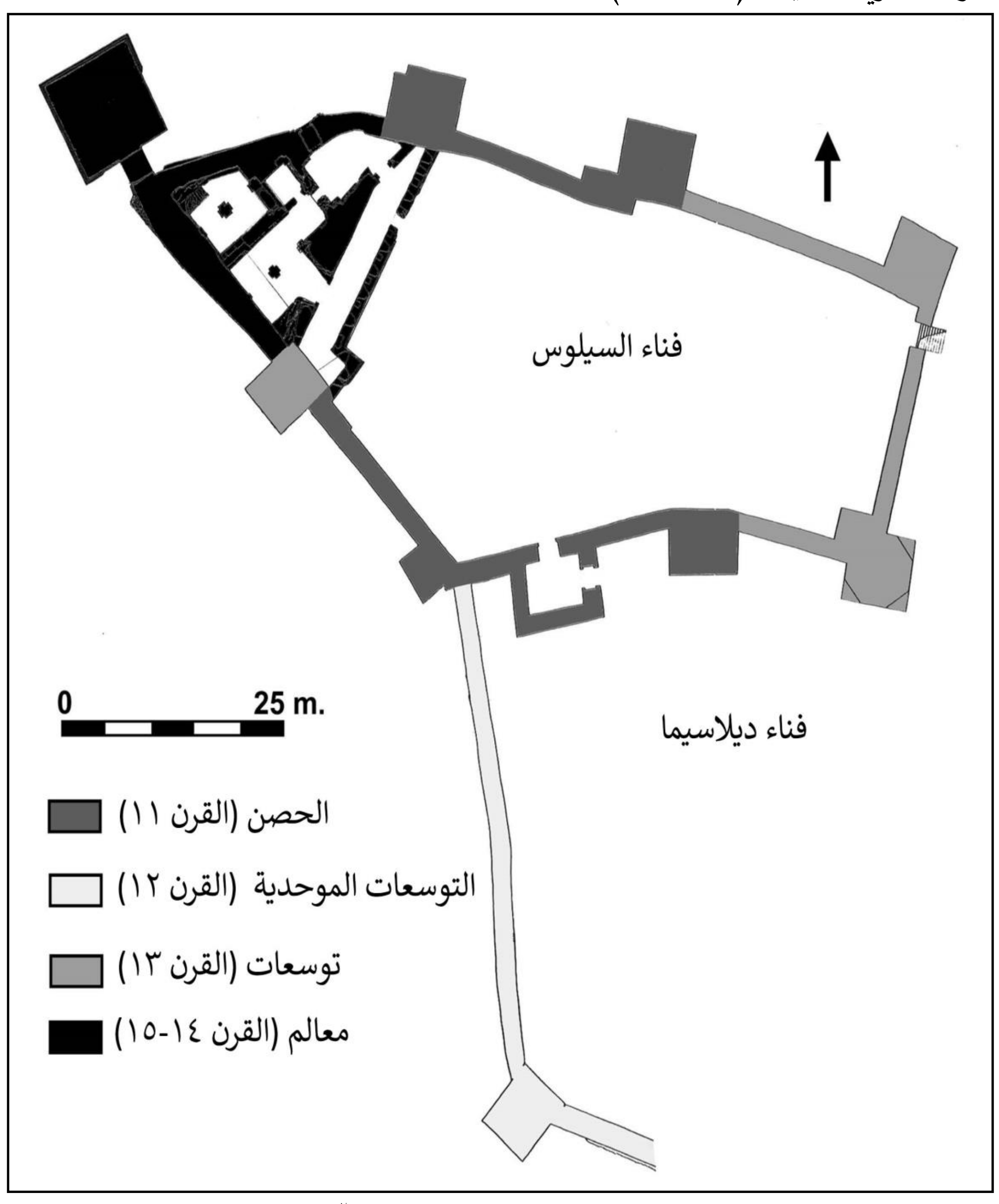

الشكل (٣٦) تأريخ قطاعات قلعة جابر[2].

1- Campos Carrasco, J. Memoria y gestión de las actividades arqueológicas de la provincia de Sevilla. El castillo de Alcalá de Guadaira, 1990, pp. 25.

2- Domínguez Berenjeno, E. Arqueologia y Territorio. Anuario A rquelogico de Andalucia, Sevilla, 2000: fig, 5.

لا يوجد أي شك في أن تاريخ القلعة يعود الى (القرن السادس الهجري / النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي والثلث الأول من القرن الثالث عشر الميلادي)، على وجه التحديد، بين عامي (٥٥٧_٥٦٧هـ / ١١٦٢_١١٧٢م)، ويرتبط تاريخ القلعة ارتباطاً وثيقاً بأبي يوسف يعقوب، طيلة فترة حكمه[١].

وقد كانت قلعة جابر أيام الموحدين من أهم النقاط الدفاعية الشرقية حول إشبيلية، وكان الموحدون قد أقاموا حول إشبيلية _ وهي قاعدة حكمهم في الأندلس_ سلسلة من الحصون القوية كانت قلعة جابر من أضخمها وأمنعها. فلما سقطت قلعة جابر في يد النصارى، غدت بدورها مركزاً للدفاع عن إشبيلية، عاصمة قشتالة الجديدة، ضد هجمات المسلمين[٢]. (الشكل، ٣٧)

منذ (القرن السابع الهجري / منتصف القرن الثالث عشر الميلادي إلى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي) أخذت القلعة شكلها النهائي، وكانت الغاية الأساسية من بنائها الدفاع عن إشبيلية والسهول المحيطة بها لحماية الطريق الوحيد الذي يصل بين إشبيلية مع مملكة غرناطة.

ووفقاً لأحدث البيانات الموثوقة، التوسع الحقيقي للقلعة تم سنة (٦٤٤هـ / ١٢٤٦م) واستمر حتى (القرن الثامن الهجري / حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي)[٣]، وهي بمثابة مدينة حيث يوجد فيها مسجد وخزانات مياه وقصر[٤].

1- Campos Carrasco, J. Memoria y gestión de las actividades arqueológicas de la provincia de Sevilla. El castillo de Alcalá de Guadaira. 1990, p. 25.

٢- عنان: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص٧٠.

3- Collantes de Terán Delormé, F. Los Castillos del Reino de Sevilla. Diputación Provincial de Sevilla, 1952, p. 78.

٤- بهنسي: موسوعة التراث المعماري، المجلد الأول، ص١٤١.

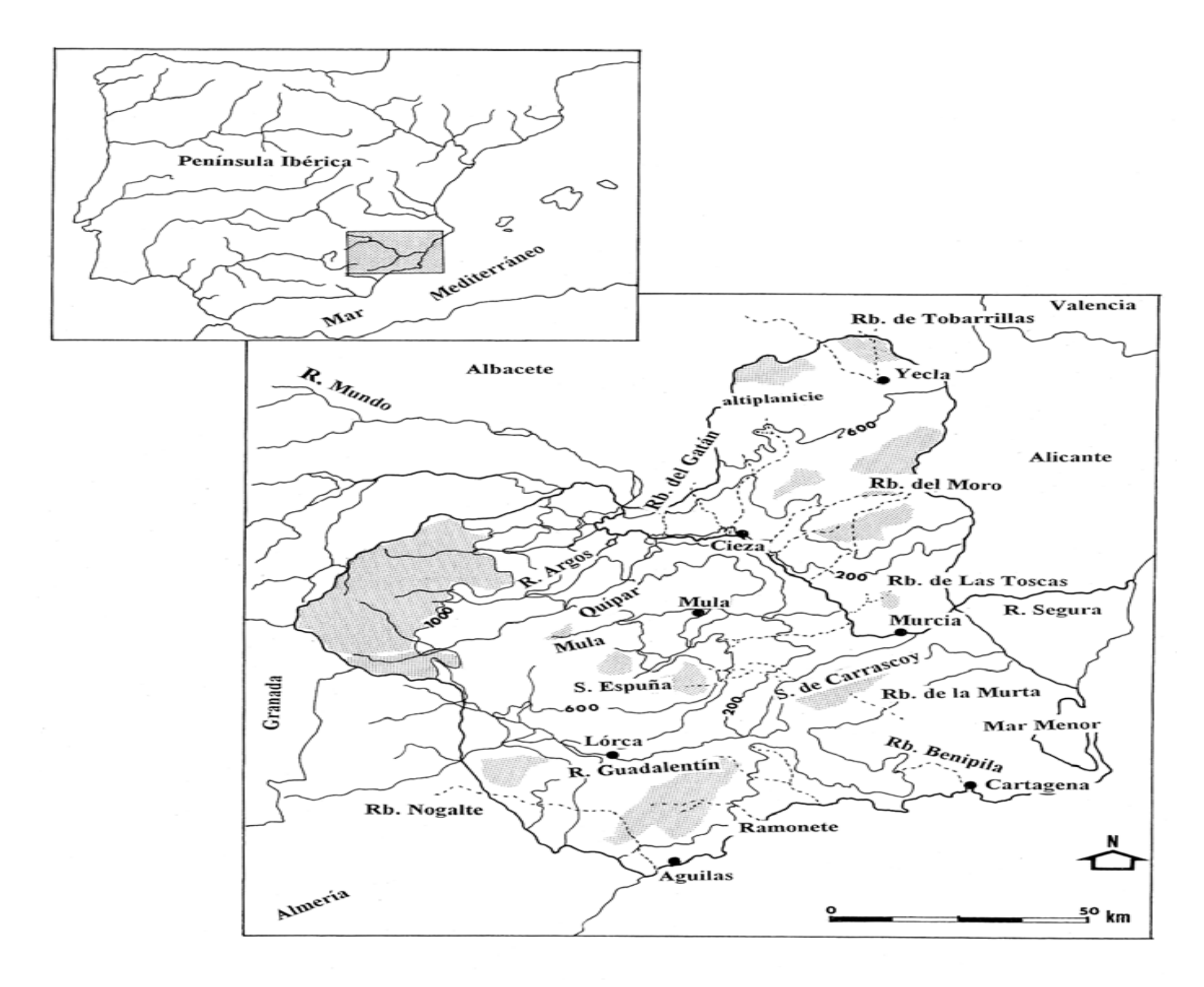

الشكل (٣٧) موقع مدينة مورسية (اسبانيا)[1].

بين عامي (٨٧٥_٨٨٤هـ / ١٤٧١_١٤٧٧م) أجريت العديد من الإصلاحات والتعزيزات للقلعة، تلك المرحلة المعروفة بعد احتلالها من قبل رودريغو بونس دي ليون من قادس[2]، حيث أصبحت القاعدة الرئيسة للعمليات ضد مدينتي إشبيلية وخيريز، من ذلك التاريخ بالتحديد بدأت القلعة بالتدهور تدريجياً وتفقد وظيفتها الدفاعية، وذلك لظهور نقاط دفاعية ذات أهمية أكثر بأماكن أخرى، لذلك هُجرت حصونها من (القرن العاشر الى الثالث عشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي إلى القرن التاسع عشر الميلادي)، من ثم تعرضت لأعمال التنقيبات

1- García Fitz, "Notas sobre la tenencia de fortalezas: los castillos del concejo de Sevilla en la Baja Edad Media", Historia, Instituciones, Documentos, p. 63, fig. 13.

2- Fernández Gómez, M. "Nuevos datos y documentos sobre la repoblación de Alcalá de Guadaíra (1280-1335)", Historia, 2004, Instituciones, Documentos 31, pp.167-168.

الأثرية، ثم عدلت المعالم المعمارية للقلعة في (القرن الرابع عشر الهجري / منتصف القرن العشرين الميلادي) وذلك لتحتضن حالياً مهرجان معروف جداً على المستوى المحلي للبلدة[1].

ثانياً_ أهم العناصر الدفاعية ضمن القلعة:

١_ الموقع:

تقع القلعة في الجهة الغربية من البلدة التي تسمى الكالا، ويتم الوصول إليها عن طريق قديم يعود في الأغلب للعصور الإسلامية، تغطي مساحة حوالي ٩ هكتارات، الاستيطان الأول في هذا الموقع يعود للعصر البرونزي الأوسط، ومن خلال المعطيات الأثرية للقى الفخارية التي ظهرت في أرضية القلعة تبين أن البناء الأول للقلعة يعود للحقبة ما قبل الرومان أي (القرن الأول الميلادي)

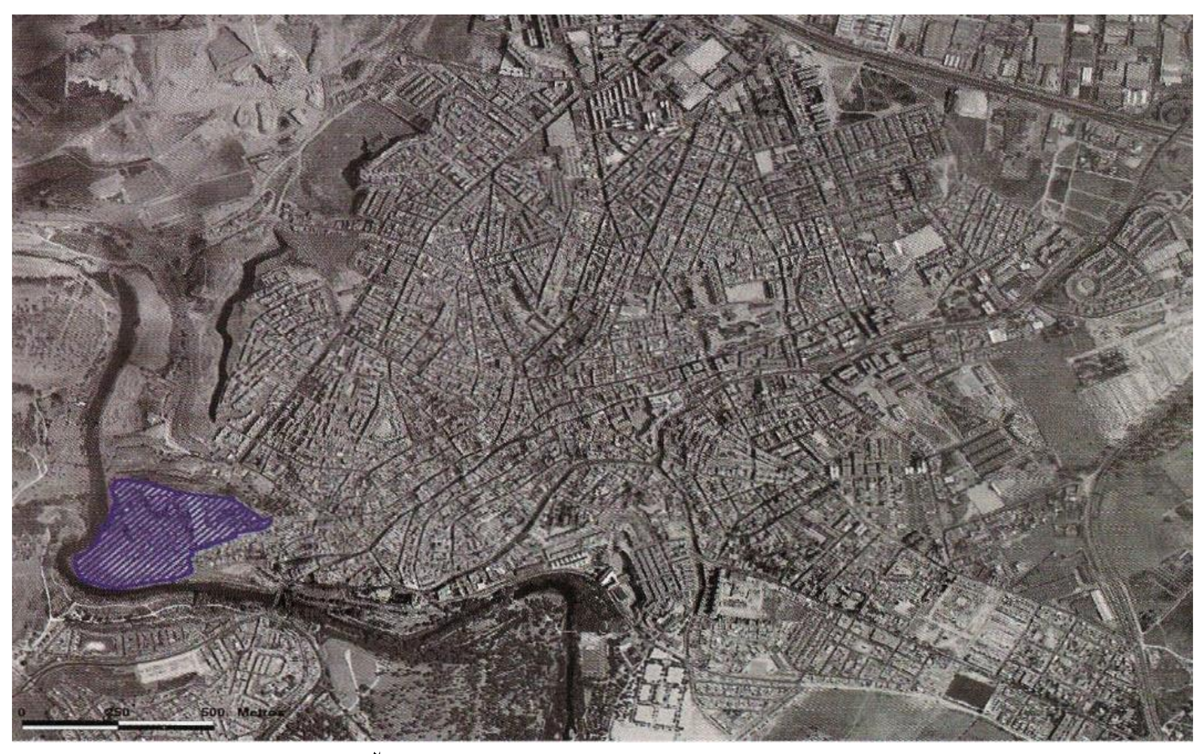

الشكل (٣٨) موقع قلعة جابر ضمن بلدة الكالا[2].

1- Fernández Ruiz, R.; Vera Reina, M. El Castillo de Alcalá de Guadaira: Campaña de 1988_ 1990, p.403.

2- Navarro Palazon; Jiménez, «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, p, 434, fig. 1.

مما يعطي هذا الصرح المعماري الأهمية التاريخية التراثية. بداية الدراسات الآثرية والتاريخية بهذه القلعة تعود لبداية (القرن الثالث عشر الهجري / القرن التاسع عشر الميلادي)، حتى ذلك الحين، كانت القلعة تعد حصن دفاعي لا أكثر ولا أقل، هذه النظرة التاريخية الأثرية للقلعة سادت عدة عقود، دون الأخذ بعين النظر الدمار الذي حل بالقلعة جزئياً سنة (١٢١٥هـ / ١٨٠٠م) نتيجة الحروب المحلية وأصولها وتطورها التاريخي[١]. (الأشكال، ٣٧_٣٨_٣٩)

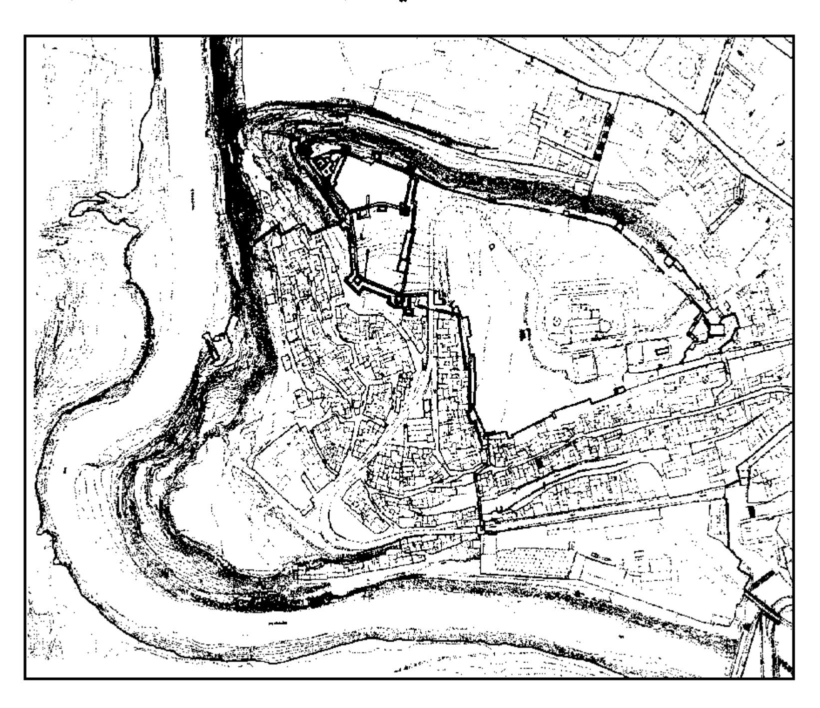

الشكل (٣٩) قلعة جابر[٢].

تعد قلعة جابر من أهم القلاع في مقاطعة إشبيلية وهي تقع على بعد ١٢كم غربي إشبيلية[٣]، (الأشكال، ٣٨_٣٩_٤٠)، فهي بناء دفاعي أمامي عن الجهة الشرقية لإشبيلية[٤] والسهول المحيطة بها لحماية الطريق الوحيد الذي يصل بين إشبيلية ومملكة غرناطة، تبعد عن إشبيلية

1- García Martínez, A.: “Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)”, en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, 1998, Ayuntamiento de Alcalá de Guadaíra, 1998, pp. 49-50.

2- Navarro Palazon; Jiménez, «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, p, 434.

٣- بهنسي: موسوعة التراث المعماري، المجلد الأول، ص١٤١.

٤- عنان: الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، ص٦٩.

١٠ أميال في الطرف الغربي من قرية الكالا حيث تقع في جنوب شرقها، ويحدها نهر المعروف بنفس اسم القلعة المسورة أو الأسوار المحصنة، ويقع ضمن مجمع محصن واسع في جبل سيرو

الشكل (٤٠) اقسام قلعة جابر[١].

ديل كاستيلو، وتضم مساحات مختلفة، من الغرب إلى الشرق. بنيت مدينة الكالا على رأس تلة ارتفاعها ٨٢ متراً، وتحيط بها من الجنوب والغرب من نهر غوارديا. منحدرات التل الشرقية تشكل مدخل سهل باتجاه القلعة. بنيت القلعة على أعلى نقطة من التل تتكون من ثلاث مرفقات، وفي القسم الشرقي للتل يتشكل مرفق آخر محاط بالأسوار من المحتمل أنه جزء أساسي من مركز القلعة الأساسي[٢].

1- Navarro Palazon; Jiménez, «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, p, 434, fig. 2.

2- García Martínez: "Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)", en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, pp. 50.

٢ _ الأبراج:

تتميز بوجود التراسات الدفاعية ضمن البناء، ودمرت جزئياً في الجهة الشمالية، تتكون القلعة من أحد عشر برجاً، تضم الأسوار التي تصل كل برج بالآخر (الشكل، ٤٠)، فمجموع أبراج القلعة احدى عشر برجاً اثنان منهم متعددي الأضلاع والتسعة الباقين متنوعين الأشكال، ضمن البناء نميز وجود ثلاث أقسام للمبنى منفصلة تماماً ومتميزة عن بعضها الآخر[١]. (الشكل، ٤١).

الشكل (٤١) صورة جوية لقلعة جابر[٢].

بدايةً القسم الأول ويسمى الباحة (دي لا سيما)، وهي تقع جنوباً على طول القسم الثاني أو الباحة (دي لوس سيلوس)، ويتصل القسمان عبر ممر في الزاوية، ويحدها ستة أبراج من الجوانب، ثلاثة منها هي أيضاً جزء من القسم الثاني للمبنى. أما القسم الثاني، محدد من قبل سبعة أبراج، بالإضافة إلى الصوامع الخاصة التي تحتوي على بقايا أدراج للوصل للقسم العلوي من المبنى، حيث كان يضم على الأرجح بقايا أجزاء المطابخ والمخازن المتصلة بها، أما القسم الأخير الثالث، فهو أصغر حجماً ويقع في القسم الغربي للبناء، ويحدها ثلاثة أبراج، واحدة منها

1- Navarro Palazon; Jiménez, «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, p, 434.

2- Navarro Palazon; Jiménez, «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, p, 434, fig. 5.

تحتلها الانشاءات السكنية المختلفة ذات الطابع الفخم، وكان الوصول إليها سابقاً من القسم الثاني للمبنى[1]. (الشكل، ٤٠_٤١)، البرج المعروف (مونشا)، يقع في الطرف الشرقي للبناء المحصن، وقد كانت معروفة بالقصبة لغايات دفاعية لحماية بوابة القديسة ماريا التي كانت المدخل المباشر للقلعة من جهة البلدة، هذه البوابة تعرضت للعديد من التغيرات المعمارية على مر العصور المختلفة للقلعة، حيث تتداخل فيها العناصر المعمارية المختلفة[2]. (الشكل، ٤٢)

ونلاحظ بأن وظيفة أبراج قلعة جابر تلقي الرسائل والمراقبة الطرقات والسهول المحيطة بالقلعة وذلك لندرة الوسائل الدفاعية كالمنجنيق والفتحات الجدارية التي كانت تستخدم لإطلاق السهام،

الشكل (٤٢) القسم الشمالي من قلعة جابر[3].

1- García Martínez: “Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)”, en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, pp. 50.

2- García Martínez: “Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)”, en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, pp. 51.

3- García Martínez: “Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)”, en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, pp. 50.

ولترسيم الطريق القديم للبلدة. في هذا القسم هناك برجين، واحدة منهم استخدم كمركز لتحويل الرسائل للقلعة. الجزء الشرقي من هذا القسم، بجانب البرج الأخير أنف الذكر، لديها بنية معمارية أكثر تعقيداً من سابقاتها، منها أنه من الممكن التمييز بين المنحدر من حدائق فيلا سان خوسيه تصل الأسوار المحصنة، في المنطقة المجاورة للبرج قد تكون المقاطع الأولى من الجدار التي تتوافق مع الاسوار الدفاعية (الأشكال، ٤٠-٤١-٤٢)، الذي يتاخم الآن فيلا سان خوسيه نفسها، مع امتداد الذي ينتهي في البرج الذي يحيط الطريق إلى بوابة سانتا ماريا[١].

على امتداد الجدار الفاصل بين بوابة سانتا ماريا والبرج يوجد جدار منخفض لمهام دفاعية على الأرجح، على الرغم من التضاريس هذه النقطة للقلعة. في هذا القسم هناك برجين، من واحدة منها يبدأ جزءاً من الجدار حتى بوابا سانتا ماريا، حيث اثنين من الأبراج التي تشكل جزءاً منه للوصول بدوره الى فناء القلعة[٢]. (الأشكال، ٤٣_٤٤_٤٥)

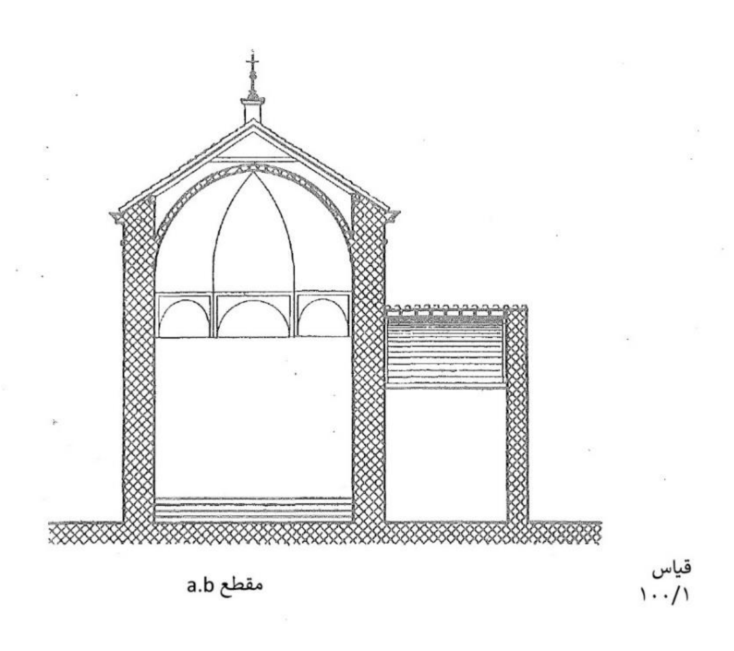

الشكل (٤٣) قلعة جابر (مقطع جانبي)[٣].

1- Torres Balbás, L. “Dos obras de arquitectura almohade: la mezquita de Cuatrohabitan y el castillo de Alcalá de Guadaira”, 1941 Al-Andalus VI: pp.200.

2- Torres Balbás, “Arte Almohade. Arte Nazarí. Arte Mudéjar”, en Arts Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispánico IV, p. 161.

3- García Martínez: “Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)”, en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, pp. 50.

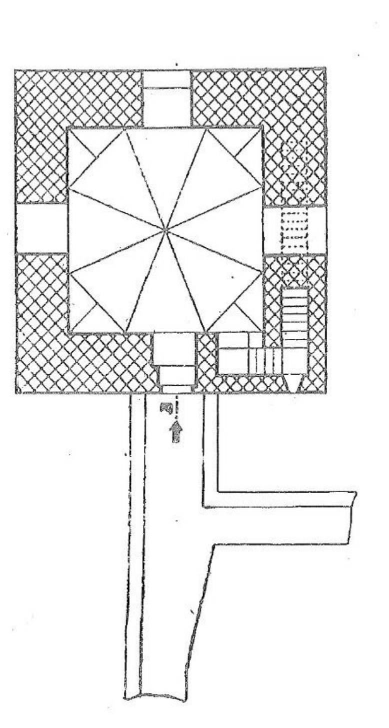

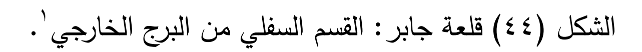

الشكل (٤٤) قلعة جابر: القسم السفلي من البرج الخارجي[1].

1- Torres Balbás, “Dos obras de arquitectura almohade: la mezquita de Cuatrohabitan y el castillo de Alcalá de Guadaira”, pp.205.

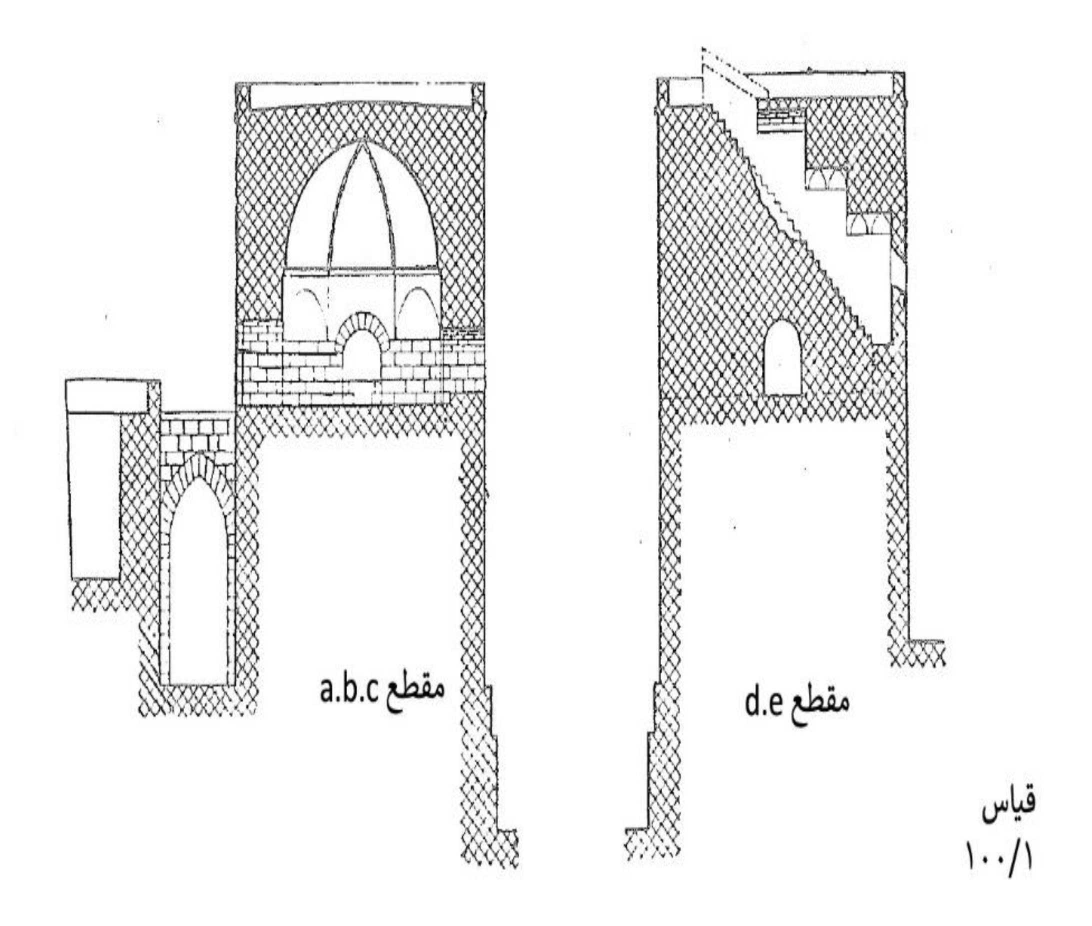

الشكل (٤٥) قلعة جابر[١].

مما لا شك فيه الطابع التاريخي لقلعة جابر، حيث يشكل موقع القلعة المحصن قيمة فريدة كدليل على الهوية المحلية. بل ويعد الحيز الحضري للمنطقة ولكن بصعوبات جمة للوصول إليه نتيجة الزحف العمراني ونقص الخدمات، حيث تشكل هذه النقطة أحد الإشكاليات الأساسية التي تواجه عملية الدراسة.

٣_ الأسوار:

بين القلعة والبرج المعروف (مونشا) يرتفع الجدار، وفي بعض الحالات، يوجد جدار أصغر

1- Torres Balbás, “Arte Almohade. Arte Nazarí. Arte Mudéjar”, en Arts Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispánico IV, p. 161.

الشكل (٤٦) أسوار قلعة جابر[1].

بجانب الجدار الكبير لغايات دفاعية في أغلب الأحيان، وسماكة الجدران متران، كما أننا نلاحظ بأن نوع التراسات الدفاعية الموحدية (البربكانة باللغة الاسبانية) هي مشهورة جداً في الأندلس وخاصة في أغلب القلاع التي تعود لفترة الموحدين، والتي تتميز بوجود سور خارجي صغير بمحاذات السور الخارجي الأساسي الكبير وهذا السور لا يتعدى ارتفاعه حوالي مترين. كما

1- García Martínez: "Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)", en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, pp. 51.

نلاحظ بأن السور كان عامودياً وإن ارتفاع الأبراج حوالي ١٥ متر بينما ارتفاع الأسوار ١٠ أمتار[1].(الشكل، ٤٦).

٤_ الخندق:

نتيجة تموضع القلعة على هضبة مرتفعة نسبياً والتضاريس المحيطة بالقلعة، وموقعها الجغرافي الطبيعي الحصين، نلاحظ عدم وجود خنادق.

٥_ مرامي السهام:

ومن خلال الاطلاع على المصادر والمراجع، ومن خلال الصور المتوفرة بين أيدينا لم نلاحظ وجود هذا العنصر المعماري الدفاعي الهام، إلا بشكل قليل جداً.

٦_ السقاطات والرواشن:

ومن خلال الاطلاع على المصادر والمراجع، ومن خلال الصور المتوفرة بين أيدينا لم نلاحظ وجود هذا العنصر المعماري الدفاعي الهام إلا بشكل نادر وغير واضح. (الشكل، ٤٧)

الشكل (٤٧) السقاطة التي تظهر ضمن البراج قلعة جابر[2].

1- Torres Balbás, “Dos obras de arquitectura almohade: la mezquita de Cuatrohabitan y el castillo de Alcalá de Guadaira”, p.205.

2- Navarro Palazon, J., Jiménez, P. « El Castillejo de Monteagudo: Qasr Ibn Sa‘d », in Casas y palacios en al-Andalus. Siglos XII Y XIII., Grenade, Fundación El Legado Andalusí, 1995, 1995, p. 75, fig. 5.

٧_ الشرافات:

في الجزء الغربي من القلعة نلاحظ من خلال (الشكل، ٤٧) وجود بعض الشرافات التي لها مهمة دفاعية وتزيينية في نفس الوقت.

٨_ مواد البناء:

استخدم في بناء أسوار القلعة وأبراجها والقلعة بشكل عام الجص المخلوط بالحجارة الصغيرة بالإضافة إلى الحجارة الصغيرة المجذبة الملساء وذلك لإعاقة تسلق المهاجمين على القلعة. ومن خلال (الأشكال،٤٤_٤٥_٤٦_٤٧_ والأشكال السابقة) نلاحظ أن التوسعات المعمارية كانت شبه دائمة في هذا الحصن، فهي تمتد من (القرن الخامس الى التاسع الهجريين / القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر الميلاديين).

حالياً يمكن تقسيم القلعة إلى الأجزاء التالية:

الكتلة الغربية:

حيث تشكل النواة الأساسية للقلعة، وتقع شمال غرب: فناء السيلو، الباحة الصوامع، الباحة دي لا سيما والقصر الملكي[1].

حرم سانتا ماريا:

يقع على الهضبة العليا من التل، شرقي القلعة، ويشمل المنطقة القديمة والتعديلات الحديثة لبناء القلعة تحديداً قسم سانتا ماريا، حيث يشكل حالياً موقع الكنيسة التي تحمل اسم سانتا ماريا

1- Martínez Enamorado, “Antequera”. (Eds.) AA.VV: Itinerario Cultural de Almorávides y Almohades, Magreb y Península Ibérica. p. 376.

أيضاً، حيث تشكل مدخل من الجهة الشرقية (بوابة سانتا ماريا، القلعة الحالية لبرج موكا) ومن الجهة والجنوب الغربي (بويرتا دي سان ميغيل)[1].

سان ميجيل:

يقع عند منحدرات جنوب غرب سيرو ديل كاستيلو، جدرانه تشمل الأرض التي كانت تقع بين العصور الإسلامية (الوسطى) والعصر الحديث وقسم سان ميغيلمن الجهة الجنوبية الشرقية تشكل مدخل الى الاركيو دي سان ميغل، ومن الجنوب الى بوابة باركتة[2].

جميع المصادر التاريخية تشير على أن بداية تحصين القلعة خلال (القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي)، ولكن الأدلة الأثرية تشير أنه خلال (القرن السادس الهجري / القرن الثاني عشر الميلادي)، بدأت عمليات التوسع للقلعة، أي أثناء عملية توسع الدولة الموحدية في بلاد الاندلس.

القلعة حالياً قبل كل شيء، تشكل أحد أحياء المدينة. وهذا يعني أنها داخل جدرانه، في موقع سان ميغيل، وليس في سانتا ماريا، منذ نهاية القرن الماضي تتكشف عمليات التعدي المعمارية على بنية القلعة المعمارية. الدراسات الاجتماعية والديموغرافية في السنوات الأخيرة تظهر جلياً وبشكل واضح كيف أن أحياء البلدة بدأت بالتأثير مباشرة في أسوار القلعة، أضف الى ذلك نقص الخدمات. وتجدر الإشارة الى أن القلعة في العصر الحديث تم ترميمها على عدة مراحل ويبدو ذلك واضحاً وجلياً في القواعد الاسمنتية أسفل السور.

1- Navarro Palazon, J., Jiménez, P. « El Castillejo de Monteagudo: Qasr Ibn Sa‘d », in Casas y palacios en al-Andalus. Siglos XII Y XIII., Grenade, Fundación El Legado Andalusí, 1995, p. 76.

2- Torres Balbás, “Arte Almohade. Arte Nazarí. Arte Mudéjar”, en Arts Hispaniae, Historia Universal del Arte Hispánico IV, p. 161.

تتميز المدن الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبرية من خلال وجود العديد من المعالم المعمارية التي تشكل الجوهر الحضاري للمدن، القلاع والحصون تعد كجزء من التطور الطبيعي للمدينة، كانت الأندلس مركز دائم للحضارة العربية الإسلامية، منذ بداية العهود الإسلامية والأبعد عن النواة الأساسية للخلافة العربية الإسلامية في الشرق. من الملاحظ أن العمارة في الأندلس كانت أخذة في التطور على مر القرون. وقد أدى توافد المهندسين المعماريين والحرفيين من كل حدب وصوب الى المساهمة في هذا التطور، وذلك بفضل قدراتها وتوافر المواد الخام الأساسية في البناء بالإضافة إلى الظروف الجغرافية التي أدت إلى الابتكار والتطوير. كان للبقايا الأثرية الإسلامية في إسبانيا الدور الأكبر لجذب اهتمام المؤرخين والباحثين على مر العصور. حيث أنه لا يوجد مدينة أو قرية في الأندلس تخلو من شواهد العصر الإسلامي. وبشكل عام، نستطيع أن نميز ثلاثة أنواع أساسية من الهندسة المعمارية في المدن الأندلسية: العمارة المدنية، العمارة الدينية والعمارة الدفاعية في معظم المدن الأندلسية، يمكننا أن نرى نماذج مثيرة للاهتمام لكل نوع من الأنواع الثلاثة التي ميزت العمارة في الأندلس. وضع المسلمون بصمتهم في إعادة بناء العديد من المدن الأندلسية.

الدراسة المقارنة لأنظمة الدفاع وتقنيات البناء ما بين العمارة العسكرية الأيوبية في بلاد الشام والعمارة العسكرية المرابطية والموحدية في الأندلس.

من خلال دراسة أهم العناصر المعمارية الدفاعية خلال الفترة الأيوبية في بلاد الشام والمرابطية والموحدية في الأندلس، تبين لنا مجموعة من الحقائق والمعطيات البارزة وخصوصاً في مجال استفادة المعماريين الإسلاميين من التجارب المعمارية السابقة، وإبداعهم الحقيقي في العناصر المعمارية الدفاعية شرقاً وغرباً.

ومن أهم النقاط التي تم ملاحظتها للأنظمة الدفاعية هي:

١ـ لعبت **البيئة الجغرافية** دوراً كبيراً في اختيار مكان بناء القلعة:

فمن خلال الأمثلة المدروسة نجد أن القلاع الأيوبية في بلاد الشام بنيت على أرض منبسطة كقلعة دمشق وقلعة بصرى، على عكس قلعة حمص التي بنيت على تل يبلغ ارتفاعه ٣٠ متر. يرجح السبب وراء ذلك أن قلعة حمص كانت جزءاً من منظومة دفاعية متكاملة في المنطقة، فهي تعد نقطة تواصل مع بقية القلاع المنتشرة في المنطقة على رقعة جغرافية لا تتعدى ٣٠ كم بين كل منشئة دفاعية مرتبطة معها. في حين أن قلعتي دمشق وبصرى لم تكونا نقطة تواصل مع قلاع أخرى بل أنه كانتا مركز دفاعي قائم بحد ذاته للدفاع عن المدينة والقلعة، علماً أن أغلب القلاع والمنظومة الدفاعية الأيوبية بنيت فوق تلال مرتفعة طبيعية أو اصطناعية.

أما في الأندلس من خلال الأمثلة المدروسة للعمارة المرابطية والموحدية نجد القلاع كانت مبنية على تلال مرتفعة نوعاً ما، قد تصل إلى حوالي ١٥٠ متر كقلعة منتقوط في مدينة مرسيه و٨٢ متر قلعة جابر ويدل هذا الارتفاع على أنه كانتا جزءاً من منظومة دفاعية متكاملة في المناطق المذكورة.

٢ـ الأبراج:

منذ أن بدأ المسلمون باستخدام المآذن كعنصر معماري مميز للمساجد والجوامع، جعلوا من الأبراج نظام دفاعي مهم لهم، ففي العصر الأيوبي في بلاد الشام (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، اختلفت مقاييسها وأشكالها وبعضها كانت مستطيلة ومربعة ودائرية الشكل كما أنها تتصف بالضخامة، تضم أكثر من طابق تصل الى ٣ طوابق، وبعضها الاخر على شكل حرف

L، أما في العمارة المرابطية والموحدية في الأندلس (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، أيضاً كانت الأبراج متعددة الأشكال والمقاييس، ولكن كانت في بعض الأحيان في هذه المرحلة الأبراج مقسمة لعدة طوابق، ويمكن أن تكون الغاية من ذلك لغايات مختلفة ليست للمراقبة وايصال الرسائل، وفي بعض الأحيان كانت الأبراج قريبة من بعضها البعض من خلال التوزع.

٣_ الأسوار:

حافظت الأسوار على أشكال معينة خلال الفترة الأيوبية فلم يتجاوز عرضها في أغلب الأحيان من ٤ الى ٥ أمتار في حين إن ارتفاعها كان يصل في بعض الأحيان الى ١٠ أمتار، كما تميزت بارتفاعها وحجمها الكبير وضخامة حجارتها التي يغلب عليه النوع البارز كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً. وإذا انتقلنا الى العمارة الأندلسية المرابطية والموحدية حيث اتبع المرابطون نظام الأسوار الكثيرة الزوايا المنكسرة الداخلية والخارجية، وضمن السور ممشى لسهولة حركة المقاتل تعلوه شرافات لحمايتهِ من الأعداء، إضافة لذلك كان هناك نوع من التراسات الدفاعية (Barbacana البربكانة باللغة الإسبانية) التي تتميز بوجود سور خارجي بمحاذاة السور الداخلي، ولم يتعدى ارتفاعه حوالي مترين بعرض مترين وقد كان عامودياً، أملس وذلك لعرقلة دخول الغزاة الى القلعة، أما بالنسبة للسور الداخلي فقد يصل ارتفاعه من ٥ أمتار الى ١٠ أمتار وعرضه الى مترين، حيث كانت من مميزات العمارة العسكرية الموحدية، كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً، وفي أحيان أخرى كانت الأسوار مستطيلة الشكل ومستقيمة كتلك التي موجودة في مدينة قرطبة.

٤_ الخندق:

في العمارة الأيوبية في بلاد الشام (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، استخدمت الخنادق كعنصر دفاعي متقدم عن القلعة يملئ بالماء أثناء الحصار ويبقى جاف أغلب الأحيان، وتختلف مقايسهِ حسب الطبيعة الجغرافية للقلعة، وتتراوح مقاييسه بين ٥ إلى ٦ أمتار عرض، و ٢٠ إلى ٣٠ كطول وبعمق قد يصل بعض الأحيان إلى ٦ أمتار، ولم يبق من هذه الخنادق أي أثر نتيجة التوسع العمراني حول القلاع في حمص ودمشق، في حين أنه يمكن ملاحظة بقايا هذا الخندق حالياً في قلعة بصرى. أما بالنسبة للعمارة المرابطية والموحدية في الأندلس (من خلال الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، فلم نلاحظ وجود للخنادق هذا العنصر الدفاعي المتقدم، ويرجح أن البربكانة استخدمت كبديل عن الخندق.

٥_ مرامي السهام:

إن استخدام هذا العنصر الدفاعي الهام كان أساسياً، فالمسافة بين الأبراج الموجودة في الأسوار كانت تتحدد بمدى وصول السهام المنطلقة من خلال هذه الفتحات وذلك لحماية السور وقد استخدمت مرامي السام في أعلى جدار السور وضمن الأبراج وفي الشرافات، لأجل وظيفة دفاعية وأخذت عدة أشكال، حيث كانت مجوفة من الداخل لكي يتمكن المقاتل من التحرك بسهولة وفي جميع الاتجاهات ففي العمارة الأيوبية في بلاد الشام (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، فقد وجدت بكثافة في القلاع الأيوبية ضمن الأبراج، وقد تميزت بأنها من النوع الدقيق جاءت على شكل أزميل طولها من الخارج حوالي متر، وعرضها حوالي ٨ سم، أما بالنسبة للعمارة المرابطية والموحدية في الأندلس (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، فقد استخدمت بكثافة في القلاع المرابطية والموحدية ضمن الأبراج ولكن بحجم أصغر.

٦_ السقاطات:

إن السقاطات عنصر معماري دفاعي، وقد أكدت أبحاث العديد من العلماء وخصوصاً (كريزول) أنها عربية إسلامية المنشأ والأسلوب، واستخدمت لعرقلة دخول المهاجمين إلى داخل القلعة في حالة تغلبهم على التحصينات الخارجية، أما في العمارة الأيوبية في بلاد الشام (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، فقد استخدمت السقاطات بشكل واسع في الأبراج والأسوار وذلك لرمي الزيت المغلي وكرات اللهب وعند البوابة الرئيسية، بالنسبة للعمارة المرابطية والموحدية في الأندلس (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، لم يسجل أي وجود للسقاطات فيها، ويرجح ذلك أن فترة الصراعات المرابطية والموحدية في الأندلس مع النصارى في الشمال، كانت عبارة عن حروب جهادية هجومية مباشرة نحو الشمال، أكثر منها عملية دفاع.

٧_ الشرافات:

إن استخدام الشرافات يعود بجذوره الى العمارة الرافدية والفارسية، وقد استخدمت الشرافات في أعلى جدار السور لأجل وظيفة دفاعية وأخذت عدت أشكال، أما في العمارة الأيوبية في بلاد الشام (كما في الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، فقد وجدت بكثافة في القلاع الأيوبية ضمن الأبراج، وقد تميزت بأنها من النوع الدقيق جاءت على شكل أزميل طولها من الخارج حوالي متر، وعرضها حوالي ٨ سم، أما بالنسبة للعمارة المرابطية والموحدية في الأندلس (كما في الأمثلة التي

ذكرناها سابقاً)، فقد استخدمت بكثافة في القلاع المرابطية والموحدية ضمن الأبراج ولها عدة أشكال.

٨_ مواد البناء:

في العمارة الأيوبية في بلاد الشام (من خلال الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، اختلفت المواد الأولية من مكان الى أخر، فقد كانت المادة الأولية عبارة عن حجارة كلسية وحجارة بازلتية ملساء ومشذبة وذات حجم كبير كما تلك الموجودة في قلعة دمشق كما تم استخدام أحجار الأبنية الرومانية القديمة ذات الأحجام الكبيرة، علماً أن المحاجر التي تم استخدامها لاستخراج تلك الحجارة كانت من ريف دمشق، أما في قلعة حمص فقد كانت الأحجار بازلتية سوداء ومشذبة، فقد اشتهرت حمص بتلك الحجارة، أما الحجارة البيضاء فيعتقد مصدرها ريف حمص من مدينة الرستن، أما في بصرى كذلك كانت حجارة بازلتية سوداء، وقد تم استخراجها من الأبنية الرومانية الموجودة في المدينة القديمة. وقد تميزت بشكل عام باستخدام الحجارة الكبيرة ويعود ذلك للتقشف نتيجة الحروب واتصافها بالمتانة والقوة، أما بالنسبة للعمارة المرابطية والموحدية في الأندلس (من خلال الأمثلة التي ذكرناها سابقاً)، فقد استخدم الجص المخلوط بالحجارة الصغيرة والتي عرفت بالطابية، وكان ذلك بهدف التقشف، والزهد مع مراعاة الابتعاد عن أي نوع من الزينة باستثناء الكتابة بخط كوفي إما لتخليد اسم الحاكم أو لكتابة آية قرآنية، بالإضافة للحجارة الصغيرة المشذبة الملساء، واستخدم أيضاً حجارة المرمر والجبس، وكذلك الحجر الخراساني، وفي أحياناً قليلة استخدم الحجر البازلتي الأسود ذو السطح النافر، وكانت مواد البناء متوافرة بشكل جيد في الأندلس.

الخاتمة

لقد شهد (القرن الخامس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي)، أحداثاً دامية في العالم الإسلامي على شقيه في المشرق العربي الإسلامي والمغرب العربي الإسلامي، ففي المشرق العربي الإسلامي عانى من الحروب الفرنجية (الصليبية) والتي امتدت لأكثر من مئتي عام، كذلك كان الحال في المغرب العربي الإسلامي وبخاصة على جبهة الأندلس، حيث بدأت القوات الإسبانية انطلاقتها لما عرف بحروب الاسترداد، في فترة كانت الأندلس مفتتة بين قوى ضعيفة متصارعة فيما بينها تميل لحياة الترف واللهو غير قادرة على مواجهة هجمات الإسبان القادمة من الشمال، حتى ظهرت حركة دينية إصلاحية في المغرب العربي الإسلامي تحولت فيما بعد لحركة سياسية عسكرية جهادية والتي عرفت بدولة المرابطين، فجاء طلب النجدة والمساعدة من المعتمد بن عباد لأمير دولة المرابطين يوسف بن تاشفين، لحماية الأندلس من هجمات الإسبان القادمة من الشمال، فلبى النداء وتم اجتياز الأندلس في أربع جوازات، ففي الجواز الأول والثاني استطاع التصدي للإسبان وهزيمتهم، أما الجواز الثالث والرابع فكان موجهاً لحكام دول الطوائف في الأندلس لتعاون بعضهم مع الإسبان من جهة ولتشتتهم، فقد أراد توحيد الأندلس مع المغرب العربي الإسلامي، وبذلك أصبحت الأندلس ولاية مرابطية تابعة لسلطة المغرب العربي الإسلامي، ولم تدم طويلاً هذه الدولة الجهادية والتي انتهت من قبل دولة جهادية ثانية أخذت مكانها ودافعت عن الأندلس والوجود العربي الإسلامي فيها وعرفت باسم دولة الموحدين، والتي بدأت كحركة دينية إصلاحية ثم تحولت إلى حركة سياسية عسكرية جهادية قضت على دولة المرابطين وسيطرة على الأندلس ووحدته مع المغرب العربي الإسلامي وبذلك أصبحت الأندلس ولاية موحدية، استطاعت من الحفاظ على الوجود العربي الإسلامي في الأندلس.

كذلك في المشرق العربي الإسلامي أدت حروب الفرنجة وسيطرتهم على بيت المقدس والشريط الساحلي لبلاد الشام، إلى قيام دولة الأتابكة ورفعها راية الجهاد التي حملها عماد الدين زنكي ومن بعده ابنه نور الدين محمود، الذي تم في عهده توحيد دمشق مع حلب والقضاء على الخلافة الفاطمية في مصر، إلا أن وفاة نور الدين وصغر عمر ابنه، فتح المجال أمام صلاح الدين الأيوبي للقضاء على الدولة الزنكية، وتأسيس الدولة الأيوبية فكانت دولة مترامية الأطراف ضمت مصر وبلاد الشام وأعالي الجزيرة والموصل والحجاز واليمن حتى حدود المغرب العربي

الإسلامي، لتحمل على عاتقها مسؤولية الدفاع عن البلاد أمام الخطر الصليبي فكانت بداية النهاية للوجود الصليبي في المشرق العربي الإسلامي.

وهكذا نرى في ضوء هذا البحث أن العمارة العسكرية الإسلامية ارتبطت بالتاريخ السياسي ارتباطاً وثيقاً، فعندما شهدت بلاد الشام ومصر الحملات الصليبية والغزو المغولي، فقد حظيت بلاد الشام بعدد هائل من القلاع والأسوار المحصنة والتي شيدت لدرء الخطر الصليبي عن المقدسات الإسلامية، ولتأمين طرق التجارة والمواصلات، تفنن المسلمون في بناء تحصيناتهم وأنظمة دفاعهم لحماية البلاد ولمجابهة أعدائهم، كذلك الأمر عندما كان المرابطون يجتازون إلى الأندلس بهدف التصدي للإسبان ومهاجمته والعودة للمغرب لم يهتموا بالتحصينات العسكرية حتى حادثة الرينسول، أما الموحدون فعندما كانوا في مواقف الهجوم على الاسبان لم تكن التحصينات العسكرية إحدى أهدافهم على عكس مراحل دفاعهم فتفننوا بالأسوار المحصنة، فكانت الأنظمة الدفاعية للعمارة العسكرية جزءاً من سلاح الأمة الإسلامية في تحرير البلاد والدفاع عنها.

من خلال هذه الأمثلة المقدمة والتي تظهر مدى قدرة الهندسة المعمارية الإسلامية على بناء التحصينات مثل القلاع وعناصرها الدفاعية، والتحصينات العربية الإسلامية تدل على البراعة الهندسية التي يتمتع بها المهندس العربي الإسلامي، حيث وضع كل الجزئيات والتفصيلات المعمارية بشكل دقيق يؤدي كل منها وظيفتهُ بشكل متناسق مع العناصر المعمارية الأخرى، مراعياً السياسة المتبعة، فقد اعتمد المعماري المرابطي والموحدي على الأسس الدينية التي قامت عليه الدولة المرابطية، وبخاصة من ناحية التقشف فاستخدمت الطين في البناء ثم تم خلطهُ مع الحجارة الصغيرة والجص ليتصف بالمتانة والصلابة واستخدم الحجارة الصغيرة مبتعداً عن الترف المستخدم أيام ملوك الطوائف، لكن تميزت أسوار الموحدين بالتراسات أي استخدام سورين أحدهما خارجي والآخر داخلي في حين كان المشهد منعكس عند المرابطين السور مميز بممشى داخلي لسهولة انتقال المقاتلين ورميهم السهام، حيث امتازت العمارة العسكرية الأيوبية بالضخامة والقوة والإتقان بالتخطيط، كما غلب عليها طابع التقشف وعدم الإسراف بالزخرفة بسبب حالة الحرب التي كانت تعيشها، وكان الاعتماد على الحجر مادة أساسية في البناء، ويمكننا النظر إلى فن التحصين المتمثل في العمائر الأيوبية نهاية مراحل التطور وقمة تطور العمارة العسكرية الإسلامية، حيث لم يظهر أي تجديد ملحوظ في العهود اللاحقة، فقد كانت النماذج الأيوبية

نموذجاً لأرقى ما وصل إليه هذا الفن على المستوى العالمي، ثم أدى اختراع البارود والمدافع إلى تغيير وسائل الدفاع والهجوم، وضعف أهمية الأسوار ودورها الدفاعي شيئاً فشيئاً.

مما سبق يتضح أن تحصين المدن الإسلامية كان معياراً حضرياً أساسياً في تكوينها المادي لما يوفر من أمن لساكنيها، وكانت الأسوار والقلاع، وما تشمل عليه من أبراج من أهم وسائل التحصين المتبعة، وأضيفت إليها المحارس والمناظر وأبراج المراقبة في الحصون وفي المدن التي فرضت طبيعة موقعها وجود هذه التكوينات الحربية، واختلفت الظروف التي أدت إلى الاهتمام بإنشائها وترميمها والمحافظة عليها، وتطوير أساليب بنائها من عصر إلى آخر.

SUMMERY

During the (fifteenth century AD / eleventh AH), the Muslim world had witnessed some of the most gruesome events to ever have befallen either its Arabic eastern, or western (Al-Maghreb) sides. To the east, the region fell subject to the Christian Crusades, a period that lasted for over two hundred years. And to the west, and after the powers in Al-Maghreb had managed to achieve great strides in Andalusia, the Spanish expeditions was soon to launch with the goal of retrieving territory from the Muslims (in what is known as "the Granada War").

During a time when Al-Andalus was torn between feeble, conflicting lordships more concerned with the life of hedonistic lavishness than with retaining control. A religious movement surged calling for societal reform, later taking a political-militaristic aspect under the name "Al-Moravids". This movement took over Al-Andalus and reigned for around four decades, warding it against the Spanish encroachments from the northern borders, and uniting the regions of Al-Maghreb and Al-Andalus under a single banner, ending the state of disarray that was the rule of Al-Taifas.

But this state didn't last, and was soon to be taken by another militaristic movement, which is Al-Mohad's, whom took the mantle of defending Al-Andalus from their antecedents; a movement which had previously called, as with Al-Moravids, for religious reform, only to later shift into a militaristic, and political revolt that swept down Al-Moravid authority, and took control over their territory, proclaiming it as their own.

In the eastern side of the Arabic lands, the incessant militaristic activities of the Atabeg gave rise to the Ayyubid dynasty, which took the forefront of the military, and political scene, uniting Damascus and Aleppo beneath the shadow of the Zanki state, and later playing a pivotal role in the fall of the Fatimid Caliphate. However, The Zankis stood firmly between the Ayyubis, and the establishment of a grand nation that included Egypt, the Levant, Yemen, Al-Hejaz, and Al-Maghreb under their authority.

The military architecture in the Arab world evolved as a natural reaction to all the conflicts that has swept the nation during that era. Much attention was poured into developing defense systems by either Al-Ayybid in the Levant, and Al-Moravid in Al-Maghreb, all of which playing an integral role in the warding of enemy conquests at the time.

Models of the Ayyubi military architecture still remains in multiple places like Damascus, Homs, and Al-Basra. The city of Damascus, to this day, retains most of its landmarks, in a seamless blend between culture and heritage, as the ancient structures stood the test of time with their resilience, efficiency, and splendor intact. And while the same could be said about the majority of the remains in Al-Basra and Homs, regrettably a massive portion of the fort located in the city of Homs collapsed.

Some assets of this architecture were, also, carried over to Al-Andalus by Al-Moravids, present in the palace of Al-Haqbaryah, and castle Manquot in Zaragoza.

Another example of such architecture is the castle of Jaber in Seville, similar in its endurance and economy, and in the materials used in construction, namely mud mixed with gravel and fine aggregate.

Those models has all been carefully studied in term of the location, the walls and baileys, towers, the towers, the barbicans, the portcullises, the arrow slits, and construction materials.

In the end, a comparison between the defense systems of both the Moravid and Mohad in Al-Andalus, and the Ayyubi in the Levant has been possible due to models available today.

قائمة المصادر والمراجع

١ _ قائمة المصادر العربية:

١- القرآن: سورة الأنفال، الآية ٦٠.

٢- ابن أيبك الدواداري (أبو بكر بن عبد الله، ت ٧٣٦هـ / ١٣٣٦م): كنز الدرر وجامع الغرر _الدر المطلوب في أخبار بني أيوب_، تح: سعيد عاشور، ٨ جزء، القاهرة، المعهد الألماني للآثار الإسلامية، ١٩٧٢م.

٣- ابن الأبار (محمد بن عبده القضاعي، ت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م): الحلة السيراء، تح: حسين مؤنس، ٢ جزء، القاهرة، الشركة القومية للطباعة، ١٩٦٣م.

٤- أبو البقاء (عبد الله بن محمد، من علماء القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي)، نزهة الأنام في محاسن الشام، بغداد، المكتبة العربية، ١٩٢٣م.

٥- البكري (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز، ت ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م): المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، دي سلان للنشر، ١٩١١م.

٦- البيدق (أبي بكر بن علي الصنهاجي، ت ٥٥٩هـ / ١١٦٤م): أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط، دار المنصور، ١٩٧١م.

٧- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، ١٦ جزء، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٢م.

٨- ابن تومرت (محمد بن عبد الله، ت ٥٢٤هـ / ١١٣٠م): أعز ما تطلب، تح: عمار طالبي، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٥م.

٩- التيجاني (عبد الله بن محمد بن أحمد التيجاني، ت ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م): الرحلة التيجانية، قدمها: حسن عبد الوهاب، تونس، المطبعة الرسمية، ١٩٥٨م.

١٠- ابن الأثير (علي بن أحمد، ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م): التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تح: عبد القادر طليمات، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ١٩٦٣م.

١١- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، تح: أبو الفداء عبد الله القاضي، مراجعة: مجمد يوسف الدقاق، ١١ مجلد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٤، ٢٠٠٣م.

١٢- الحموي (ياقوت بن عبد الله، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م): معجم البلدان، ٥ أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٧٧م.

١٣- الحميري (محمد بن عبد الله بن عبد المنعم، ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٥م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت، مكتبة لبنان، ط٢، ١٩٨٤م.

١٤- ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الخطيب، ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م): الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عنان، ٥ أجزاء، القاهرة، مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٤م.

١٥- ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني الخطيب، ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م): شرح رقم الحلل في نظم الدول، تح: غسان درويش، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠م.

١٦- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ١٠ أجزاء، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١م.

١٧- ابن خلكان (أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء ابناء الزمان، تح: احسان عباس، ٨ أجزاء، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨م.

١٨- ابن أبي دينار (محمد بن أبي قاسم القيرواني، ت ١١١٠هـ / ١٦٩٨م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، بيروت، دار المسيرة، ط٣، ١٩٩٣م.

١٩- ابن أبي زرع (علي بن عبد الله الفاسي، ت ٧٤١هـ / ١٣٤٠م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط، دار المنصور، د. ت.

٢٠- الزركشي (محمد بن إبراهيم، ت ٨٩٤هـ / ١٤٨٨م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح: محمد ماضوي، تونس، المكتبة العتيقة، ط٢، ١٩٦٦م.

٢١- ابن الزيات التادلي (يوسف بن يحيى، ت ٦١٧هـ / ١٢٢٠م): التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، الرباط، منشورات كلية الآداب، ط١، ١٩٨٤م.

٢٢- ابن سعيد (علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد اليحصبي، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م): المُغرب في حُلى المغرب، تح: شوقي ضيف، ٢ جزء، القاهرة، دار المعارف، ط٣، ١٩٥٥م.

٢٣- ابن شداد (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٥م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية في سيرة صلاح الدين، تح: جمال الدين الشيال، القاهرة، مطبعة الخانجى، ط٤، ١٩٩٦م.
٢٤- ابن شداد (عز الدين محمود علي بن إبراهيم، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م): الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تح: يحيى زكريا عبارة، ٣ أجزاء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩١م.
٢٥- أبو شامة (عبد الحمن بن إسماعيل، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م): الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تح: محمد حلمى محمد أحمد، مر: محمد مصطفى زيادة، ٢ جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٢، ١٩٩٨م.
٢٦- ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي، ت ٥٩٤هـ / ١١٩٧م): المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، تح: عبد الهادي التازي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط٣، ١٩٨٩م.
٢٧- الضبي (أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م): بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، تح: ابراهيم الأبياري، ٢ جزء، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط١، ١٩٨٩م.
٢٨- ابن طولون (محمد بن علي، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م): الشمعة المضيئة في أخبار القلعة الدمشقية، دمشق، مكتبة الترقي، ١٩٤٨م.
٢٩- ابن عذاري (أحمد بن محمد، ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م): البيان المغربي في أخبار ملوك الأندلس والمغرب "تاريخ الموحدين"، ٤ أقسام، تطوان، دار كريماديس للطباعة، ١٩٦٠م.
٣٠- ابن عذاري (أحمد بن محمد، ت ٧١٢هـ / ١٣١٢م): البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تح: احسان عباس، ٤ أجزاء، بيروت، دار الثقافة، ط٣، ١٩٨٣م.
٣١- ابن العماد (أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٧ أجزاء، بيروت، دار المسيرة، ط٢، ١٩٧٩م.
٣٢- ابن العميد (المكين جرجس، ت ٦٧١هـ / ١٢٧٣م): أخبار الأيوبيين، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠١٠م.
٣٣- أبو الفدا (إسماعيل بن علي، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م): التبر المسبوك في تواريخ الملوك، تح: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٩٩٥م.
٣٤- ابن القطان (علي بن محمد بن عبد الملك، ت ٦٢٨هـ / ١٢٣١م): نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح: محمود علي مكي، الرباط، المركز الجامعي للبحث العلمي، د. ت.

٣٥- ابن القلانسي (حمزة بن أسد، ت ٥٥٥هـ / ١١٦٠م): تاريخ دمشق، تح: سهيل زكار، دمشق، دار حسان، ط١، ١٩٨٣م.
٣٦- القلقشندي (أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ١٤ جزء، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٢م.
٣٧- ابن كثير (إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، القاهرة، ٢١ جزء، دار هجر، ط١، ١٩٩٨م.
٣٨- المراكشي (محي الدين أبي حميد عبد الواحد بن علي التميمي، ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح: محمد سعيد العربان، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ط١، ١٩٤٩م.
٣٩- المراكشي (محي الدين عبد الواحد التميمي، ت ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م): وثائق المرابطين والموحدين، تح: حسين مؤنس، القاهرة، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ٢٠٠٦م.
٤٠- المقري (أحمد بن محمد التلمساني، ت ١٠٤١هـ / ١٦٣١م): نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ٣ أجزاء، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٩م.
٤١- المقريزي (أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط الآثار المعروف بالخطط المقريزية، تح: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي، ٣ جزء، القاهرة، مكتبة مدبولي، ط١، ١٩٩٨م.
٤٢- المنصوري (بيبرس بن عبد الله، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م): مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تح: عبد الحميد صالح، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ط١، ١٩٩٣م.
٤٣- مجهول (المؤلف، من كتب القرن السادس الهجري / القرن الحادي عشر الميلادي): الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، مصر، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م.
٤٤- مجهول (المؤلف) مفاخر البربر: تح عبد القادر بوباية، الرباط، دار أبي قراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.
٤٥- ابن منظور (محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور الأنصاري، ت ٧١١هـ / ١٣١٢م): لسان العرب، ١٥ جزء، بيروت، دار صادر، ط٣، ٢٠١٠م.

٤٦- الناصري (أحمد بن خالد، ت ١٣١٤هـ / ١٨٩٧م): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري_ محمد الناصري، ٩ أجزاء، الدار البيضاء، دار الكتاب، ١٩٩٧م.
٤٧- ابن نظيف (محمد بن علي بن نظيف الحموي، ت: نحو ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م): التاريخ المنصوري "تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزمان"، تح: أبو العبد دودو، دمشق، مطبعة الحجاز، ١٩٨١م.
٤٨- النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تح: محمد جابر عبد العال وآخرون، ٣٣ جزء، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.
٤٩- الوزاني (حسن بن محمد الزياتي، ت ٩٥٩هـ / ١٥٥٢م): وصف إفريقية، تر: عبد الرحمن حميدة، مر: علي عبد الواحد، القاهرة، مطابع الهيئة المصرية، ٢٠٠٥م.
٥٠- الونشريسي (أحمد بن يحيى، ت ٩١٣هـ / ١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، تح: محمد الحجي، ١٣ جزء، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف المغربية، ١٩٨١م.

٢_ قائمة المراجع العربية:

١- الأتاسي (نوار): توظيف مفردة معمارية في حمص القديمة، جامعة البعث، منشورات مطبعة جامعة البعث، ٢٠٠٠م.

٢- أحمد (علي): تاريخ المغرب القديم والإسلامي، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٦_٢٠٠٧م.

٣- أسعد (عيسى): تاريخ حمص، ٢ جزء، حمص، مطبعة مطرانية الروم الأرثوذكس، ط١، ١٩٤٠م.

٤- أكبر (جميل عبد القادر): عمارة الأرض في الإسلام، جدة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٩٩٥م.

٥- إسماعيل (مقدم محمد): المهدي، الإسكندرية، الدار العالية، د. ت.

٦- الباقوري (عبد العال): صفحات من تاريخ الحروب الصليبية _حطين طريق الانتصار_، المينا مصر، دار الهدى، ط١، ١٩٩٨م.

٧- بدر (أحمد): تاريخ المغرب والأندلس، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٨١_١٩٨٢م.

٨- البستاني (بطرس): معارك العرب في الأندلس، لبنان، دار مارون عبود، ١٩٧٨م.

٩- بلميلود (ناصر)، دحدوح (كريم): الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، جامعة ألكي محند أولحاج – البويرة، ٢٠١٥م.

١٠- بهنسي (عفيف): الفن الإسلامي، دمشق، دار طلاس، ط٢، ١٩٩٨م.

١١- بهنسي (عفيف): موسوعة التراث المعماري، ٢ مجلد، دمشق، دار نبيل، المجلد الأول، ٢٠٠٤م.

١٢- بيضون (إبراهيم): تاريخ بلاد الشام، بيروت، دار المنتخب العربي، ١٩٩٥م.

١٣- بيومي (علي): قيام الدولة الأيوبية، القاهرة، دائرة المعارف الإسلامية، ١٩٥٢م.

١٤- جاموس (بسام): المسارح في سورية، تر: ريما الحكيم، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ط١، ٢٠١٢م.

١٥- الجمل (محمد عبد المنعم): قصور الحمراء، الإسكندرية، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٤م.

١٦- الجهني (محمد): إطلالة على العمارة الحربية في شرق العالم الإسلامي، القاهرة، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط١، ٢٠٠٧م.

١٧- جواد الله (فاطمة): سورية نبع الحضارات تاريخ وجغرافية أهم الآثار السورية، دمشق، دار الحصاد، ١٩٩٩م.

١٨- حاكمي (الحبيب): الإسهام العلمي للبربر في الأندلس على عهد الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، جامعة وهران، ٢٠١٠م.
١٩- الحايك (منذر): مملكة حمص في العصر الأيوبي، دمشق، دار طلاس، ط١، ٢٠٠٠م.
٢٠- الحجي (عبد الرحمن علي): التاريخ السياسي من الفتح حتى سقوط غرناطة (٩٢_٨٧٧هـ / ٧١١_١٤٩٢م)، دمشق، دار القلم، بيروت، مطبعة المنارة، ط٣، ١٩٨٧م.
٢١- حركات (إبراهيم): المغرب عبر التاريخ، ٣ أجزاء، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ٢٠٠٠م.
٢٢- حسن (ابراهيم حسن): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ٤ أجزاء، بيروت، دار الجيل، ط١٤، ١٩٩٦م.
٢٣- حسين (حمدي عبد المنعم محمد): تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م.
٢٤- الحمصي (أحمد فائز): روائع من العمارة العربية الإسلامية في سورية، قدمهُ: محمد الخطيب، مر: حسن كامل، دمشق، منشورات وزارة الأوقاف السورية، ١٩٨٢م.
٢٥- حموش (عبد الحق): ابن تاشفين، الدار البيضاء، دار الكتاب، د. ت.
٢٦- حومد (أسعد): محنة العرب في الأندلس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢، ١٩٨٨م.
٢٧- الحويري (محمود): بناء الجبهة الإسلامية المتحدة وأثرها في التصدي للصليبيين، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٢م.
٢٨- خربوطلي (شكران)، مصطفى (فوزي)، علي (عبد الكريم): الحضارة العربية الاسلامية آثار وفنون، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٨م.
٢٩- خضر (سيفر): التاريخ السياسي لدول المغرب الإسلامي، ٢ جزء، الجزائر، الأمل للدراسات، د. ت.
٣٠- الخضر (عبد المعطي): تاريخ العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، حلب، منشورات جامعة حلب، ١٩٩٠م.
٣١- خليفة (حامد محمد): يوسف بن تاشفين موحد المغرب وقائد المرابطين ومنقذ الأندلس من الصليبيين، دمشق، دار القلم، ط١، ٢٠٠٣م.
٣٢- أبو خليل (شوقي): الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، دمشق، دار الفكر، ١٩٧٩م.
٣٣- خماش (نجدة): دراسات في الآثار الإسلامية، دمشق، مطبعة رياض، ١٩٨٢م.

٣٤- دندشي (عصمت عبد الطيف): الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٨٨م.
٣٥- ديوب (طالب): تاريخ العمارة في العصور الوسطى العمارة الإسلامية والأوروبية، جامعة البعث، منشورات جامعة البعث، ٢٠٠١م.
٣٦- رزق (عاصم محمد): معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، دمشق، الناشر مكتبة مدبولي، ط١، ٢٠٠٠م.
٣٧- أبو رميلة (هشام): علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، الأردن، دار الفرقان، ط١، ١٩٨٤م.
٣٨- الريحاوي (عبد القادر): قلعة دمشق تاريخ القلعة واثارها وفنونها المعمارية، دمشق، مطبوعات هيئة تدريب القوات المسلحة في الجيش العربي السوري، ١٩٧٩م.
٣٩- الريحاوي (عبد القادر): العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سورية، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٧٩م.
٤٠- الريحاوي (عبد القادر): العمارة في الحضارة العربية الإسلامية، جدة، دار العالمي، ط١، ١٩٩٠م.
٤١- الريحاوي (عبد القادر): العمارة الإسلامية، دمشق، دار البشائر للطباعة والنشر، ١٩٩٩م.
٤٢- الريحاوي (عبد القادر): قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفني، ٢ جزء، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠٠٠م.
٤٣- الريحاوي (عبد القادر): قلعة دمشق، تقديم وضبط: خيري الذهبي، دمشق، الهيئة العامة السورية للكتاب وزارة الثقافة، ٢٠٠٨م.
٤٤- زبيب (نجيب): الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تقديم: أحمد بن سودة، ٤ أجزاء، بيروت، دار الأمير، ط١، ١٩٩٥م.
٤٥- الزركلي (خير الدين): الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ٨ أجزاء، بيروت، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م.
٤٦- زغروت (فتحي): الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين "المغرب والأندلس"، القاهرة، الدار الإسلامية للتوزيع والنشر، ط١، ٢٠٠٥م.
٤٧- زكار (سهيل)، الكلاس (فايزة): تاريخ الأندلس، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ٢٠٠٥م.

٤٨- زكار (سهيل)، جوني (وفاء)، إسماعيل (اكتمال): حروب الفرنجة الصليبية، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ط٣، ٢٠٠٨م.
٤٩- الزهراوي (نعيم سليم): العمارة الأبلقية والتراثية بحمص، تح: محمد غانم ناصيف مكي _عبد المسيح عشي، حمص، مطبعة جامعة البعث، ٢٠٠٦م.
٥٠- السائح (حسن): الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٦م.
٥١- ساطع (أكرم): القلاع والحصون في سورية، دمشق، دار طلاس، ١٩٧٥م.
٥٢- سالم (عبد العزيز): تاريخ المغرب الكبير، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٦٦م.
٥٣- السرجاني (راغب): قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ٢ جزء، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ط١، ٢٠١١م.
٥٤- السويدان (طارق): الأندلس التاريخ المصور، الكويت، شركة الإبداع الفكري، ط١، ٢٠٠٥م.
٥٥- السيد (محمود): تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٨م.
٥٦- السيد (محمود): تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٩م.
٥٧- شعث (شوقي): قلعة حلب، حلب، دار القلم العربي، ط١، ١٩٩٤م.
٥٨- شعيب (علي عبد المنعم): المختصر في تاريخ مصر، بيروت، دار ابن زيدون، ط١، ١٩٣٤.
٥٩- الشيال (جمال): مجموعة الوثائق الفاطمية وثائق الخلافة وولاية العهد والوزارة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٢م.
٦٠- شيخاني (محمد فيصل): حمص عبر التاريخ، مر: هشام سعيد الحلاق، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ٢٠١١م.
٦١- شيخة (جمة): الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي، تقديم: محمد الطالبي، ٢ جزء، تونس، المطبعة المغاربية، ط١، ١٩٩٤م.
٦٢- صارم (وفاء)، حسن (غادة): الحضارة العربية الإسلامية آثار وفنون، جامعة تشرين، منشورات جامعة تشرين، ٢٠١٦م.

٦٣- الصلابي (علي محمد): صفحات من التاريخ الإسلامي "دولة الموحدين"، عمان، دار البيارق للنشر، ١٩٩٨م.
٦٤- الصلابي (علي محمد): الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، القاهرة، الدار الإسلامية للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣م.
٦٥- الصلابي (علي محمد): دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، القاهرة، مؤسسة اقرأ، ط١، ٢٠٠٦م.
٦٦- الصلابي (علي محمد): تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، بيروت، دار المعرفة، ط٣، ٢٠٠٩م.
٦٧- الصواف (حسن زكي): دمشق الأسطورة والتاريخ، دمشق، دار المكتبي، ط١، ٢٠١٠م.
٦٨- ضيف (شوقي): المعجم الوسيط، القاهرة، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠٠٤م.
٦٩- عاشور (سعيد): الناصر صلاح الدين، القاهرة، المؤسسة العامة المصرية للتأليف والنشر، ١٩٦٥م.
٧٠- عاشور (سعيد): تاريخ أوربا، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٧٢م.
٧١- عاشور (سعيد): الحركة الصليبية، ٢ جزء، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٨٦م.
٧٢- عاشور (سعيد): الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٦م.
٧٣- العبادي (أحمد مختار): تاريخ الأيوبيين والمماليك، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٩٥م.
٧٤- عبد الحميد (سعد زغلول): العمارة والفنون في دولة الإسلام، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٨٦م.
٧٥- عبد الحميد (سعد زغلول): تاريخ المغرب العربي، ٤ أجزاء، القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٩٥م.
٧٦- عثمان (محمد عبد الستار): المدينة الإسلامية، القاهرة، المجلس الوطني للثقافة والآداب، ١٩٨٨م.
٧٧- عثمان (نجوى): العمارة الإسلامية في الأندلس، حلب، مكتبة المنار، ١٩٩٨م.
٧٨- العجي (أدمون): أعمال ترميم وتأهيل قلعة دمشق المرحلة الأولى، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ٢٠٠٧م.

٧٩- العريني (السيد الباز): مصر في عصر الأيوبيين، القاهرة، مطبعة الكيلاني الصغير، ١٩٦٠م.
٨٠- العريني (السيد الباز): المماليك، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٧م.
٨١- العريني (السيد الباز): الأيوبيون، القاهرة، دار النهضة العربية،١٩٩٣م.
٨٢- العسلي (بسام): الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية، بيروت، دار النفائس، ط٣، ١٩٩٣م.
٨٣- العسلي (بسام): قادة الحروب الصليبية "المسلمون"، بيروت، دار النفائس، ط١، ٢٠١٢م.
٨٤- علام (عبد الله): الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، الجزائر، المكتبة الوطنية، ٢٠٠٧م.
٨٥- عمران (هزار)، دبورة (جورج): قلعة دمشق، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٨م.
٨٦- عنان (محمد عبد الله): دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٢، ١٩٦٩م.
٨٧- عنان (محمد عبد الله): تراجم إسلامية شرقية وأندلسية، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٢، ١٩٧٠م.
٨٨- عنان (محمد عبد الله): دولة الإسلام في الأندلس، ٥ أجزاء، القاهرة، الناشر مكتبة الخانجي، مطبعة المدني، ط٢، ١٩٩٠م.
٨٩- عنان (محمد عبد الله): الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال، القاهرة، مكتبة الخانجى، ط٢، ١٩٩٧م.
٩٠- عواد (خالد): معالم وأعلام من حمص، تعليق: نبيل صافي، حمص، دار طه، ٢٠١٠م.
٩١- غالب (عبد الرحيم): موسوعة العمارة الإسلامية، بيروت، المطبعة العربية، ط١، ١٩٨٨م.
٩٢- الغنيمي (عبدالفتاح مقلد): مأساة الفردوس المفقود، بيروت، دار الكتب القومية، ١٩٩٣م.
٩٣- فاجة (جمعة): موسوعة فن العمارة الإسلامية، دمشق، دار الملتقى، ٢٠٠٠م.
٩٤- الفقي (عصام الدين): تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٤م.
٩٥- فيلالي (عبد العزيز): العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس ودول المغرب، القاهرة، دار الفجر للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٩٤م.

٩٦- قباني (صباح): سورية، دمشق، منشورات وزارة السياحة، ٢٠٠٦م.
٩٧- قصاري (سكورة)، سوداني (نعيمة): عبد المؤمن بن علي ودوره في الدولة الموحدية، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر، جامعة أكلي محند أولحاج – البويرة، ٢٠١٥م.
٩٨- القططي (عبد الرؤوف جبر): السجون في مصر وبلاد الشام في الدولتين الأيوبية والمملوكية، رسالة ماجستير، اشراف د رياض مصطفى شاهين، غزة، الجامعة الإسلامية، ٢٠١٢م.
٩٩- قلعجي (قدري): صلاح الدين الأيوبي، بيروت، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٢م.
١٠٠- الغناي (مراجع): سقوط دولة الموحدين، ليبيا، منشورات جامعة قاريونس، ٢٠٠٨م.
١٠١- ماجد (عبد المنعم): صلاح الدين الأيوبي، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧م.
١٠٢- مرسي (ايناس يحيى أحمد): فن العمارة العربية وأشهر معالمها، مر: أمينة الصباح، الكويت، دار الصباح للنشر، ط١، ٢٠٠١م.
١٠٣- مصطفى (شاكر): الأندلس في التاريخ، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، ١٩٩٠م.
١٠٤- أبو مصطفى (كمال السيد): تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مركز الاسكندرية للكتاب، ١٩٩٧م.
١٠٥- المطوي (محمد العمروسي): الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٢م.
١٠٦- مقداد (دريد): الأماكن الأثرية في بصرى، بيروت، المكتبة العصرية، ط٤، ٢٠٠٥م.
١٠٧- مكي (محمود علي): وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٤م.
١٠٨- المنونى (محمد): العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، الرباط، دار المغرب، ط٢، ١٩٧٧م.
١٠٩- مؤنس (حسين): نور الدين محمود سيرة مجاهد صادق، القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩م.
١١٠- مؤنس (حسين): موسوعة تاريخ الأندلس "فكر تاريخ حضارة وتراث"، ٢ جزء، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٩٩٦م.
١١١- مؤنس (حسين): سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأمامهم من الأندلس، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، ٢٠٠٠م.
١١٢- مؤنس (حسين): معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، دار الرشاد، ٢٠٠٤م.

١١٣- موسى (عز الدين عمر أحمد): دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، القاهرة، دار الشروق، ط١، ١٩٨٣م.

١١٤- الموصلي (محمد ماجد): تاريخ مدينة حمص وآثارها، حمص، مطبعة الروضة، ١٩٨٤م.

١١٥- المومني (سعد محمود): القلاع الإسلامية في الأردن، عمان، دار البشير، ط٢، ٢٠٠٨م.

١١٦- المنونى (محمد): حضارة الموحدين، الدار البيضاء، دار بوبقال، ط١، ١٩٨٩م.

١١٧- النجار(عبد المجيد): تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، فرجينية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٩٩٥م.

١١٨- نصر الله (سعدون عباس): دولة المرابطين في المغرب والأندلس، بيروت، دار النهضة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٥م.

١١٩- الهرفى (سلامة): الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف بن تاشفين، رسالة ماجستير غير منشورة، مكة، جامعة أم القرى، ١٩٨٢م.

١٢٠- الهرفي (سلامة): دولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، مكة، دار الندوة الجديدة، ١٩٨٥م.

٣_ قائمة المراجع المعربة:

١- أشباخ (يوسف): تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، ٢ جزء، الرباط، المعهد الخليفي للأبحاث المغربية، ١٩٤٠م.

٢- أشباخ (يوسف): تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، تر: محمد عبد الله عنان، القاهرة، مؤسسة الخانجي، ط٢، ١٩٥٨م.

٣- بائين (خيرو نيمو): المرابطون والموحدون المسالك الثقافية، تر: عاصم باشا، الرباط، مؤسسة التراث الأندلسي، ٢٠٠٠م.

٤- باشا (ضيا): الأندلس الذاهبة، تر: عبد الرحمن ارشيدت، ٢ جزء، المملكة الأردنية الهاشمية، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، ط١، ١٩٨٩م.

٥- بالباس (ليوبولدو توريس): الفن المرابطي والموحدي، تر: سيد غازي، الإسكندرية، دار المعارف، ١٩٧٦م.

٦- دوزى (ينهرت): المسلمون في الأندلس، تر: حسن حبشي، ٣ أجزاء، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

٧- زاك (دور وتيه): دمشق تطور وبنيان مدينة مشرقية وإسلامية، تر: قاسم طوير، مراجعة: نزيه كواكبي _ أريانا أحمد، دمشق، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ٢٠٠٥م.

٨- زكي (محمد أمين): تاريخ الكرد، تر: محمد علي عرتي، القاهرة، مطبعة السعادة، ١٩٣٩.

٩- سوفاجيه (جان): دمشق الشام، تر: فؤاد أفرام البستاني، تح: أكرم العلبي، دار الوارف، بيروت، ١٩٨٩م.

١٠- سيمينوفا (ليديا): صلاح الدين والمماليك في مصر، تر: حسن بيومي، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م.

١١- فينر (فولفغانغ مولر): القلاع أيام الحروب الصليبية، تر: محمد وليد الجلاد، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، ط١، ١٩٨٢م.

١٢- ليونز (ملكوم كامرون) جاكسون (و. د. أ. ب): صلاح الدين، تر: علي ماضي، تح: نقولا زيادة، فهمي سعد، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٨م.

١٣- مورينو (مانويل جوميث): الفن الإسلامي في اسبانيا، تر: لطفي عبد البديع _ السيد عبد العزيز سالم، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٦م.

١٤- هاملتون (السير. آ. رجب): صلاح الدين الأيوبي، تر: يوسف ابيش، بيروت، بيسان للنشر والاعلام، ط٢، ١٩٩٦م.

٤ _ قائمة المجلات العربية والمعربة:

١- ابل (أي): "القلعة الأيوبية في بصرى أسكى شام"، تر: بشير زهدي، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد٦، دمشق، ١٩٥٦م.

٢- البني (عدنان): "قلعة دمشق"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلدان٤_٥، دمشق، ١٩٥٤_١٩٥٥م.

٣- زهران (ربيع): " أنظمة الدفاع وتقنيات البناء في مدينة حمص منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية العصر العثماني"، مجلة جامعة دمشق، العددان ١١٩-١٢٠، دمشق، ٢٠١٣م.

٤- الشاطر (محمد)، الحمودي (منذر): "حمص قلعتها أسوارها أبوابها"، مجلة البحث التاريخي، العدد الثاني، حمص، ١٩٧٩م.

٥- العبادي (أحمد مختار): "الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين"، مجلة جامعة الاسكندرية، العدد ٢١، الاسكندرية، ١٩٦٧م.

٦- عبد الباقي (محمد): "مصطلحات صنعت تاريخ مصر"، مجلة الآثار المصرية، العدد١، القاهرة، ٢٠١٥م.

٧- عبد الحق (سليم عادل): "مدينة حمص وأثارها"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، حمص، ١٩٦٠م.

٨- عبد الحق (سليم عادل): "مسرح بصرى وقلعتهُ"، مجلة الحوليات الآثرية السورية، المجلد١٤، دمشق، ١٩٦٤م.

٩- عبد الرحمن (عمار): "العمارة الإسلامية في دمشق"، مجلة جامعة دمشق، عدد خاص عن دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق، ٢٠٠٨م.

١٠- العطار (نادر): "فن العمارة الإسلامية"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، المجلد٣، دمشق، ١٩٥٣م.

١١- العطار (نادر): "العمارة الأندلسية في عصر الموحدين"، مجلة الحوليات الأثرية، المجلد العاشر، دمشق، ١٩٦٠م.

١٢- عمران (هزار): "قلعة دمشق في نهاية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي"، مجلة الحوليات الأثرية السورية، مجلد٤٤، دمشق، ٢٠٠١م.

١٣- الفاسي (محمد): "الأعلام الجغرافية الأندلسية"، مجلة البينة، العدد٣، الرباط، ١٩٦٢م.

١٤- مفتاح (محمد): "مفهوم الجهاد والاتحاد في الادب الأندلسي"، مجلة عالم الفكر، المجلد١٢، العدد٤، الرباط، ١٩٨١م.

١٥- ميلر (دورس): "بصرى في بلاد العرب"، تر: شوقي شعث، مجلة الحوليات الأثرية السورية، مجلد ٣٦، دمشق، ١٩٨٦م.

٥_ قائمة المراجع الأجنبية:

1. Azuar, R.: «Las técnicas constructivas y la fortificación almohade en al–Ándalus», Los almohades, Su patrimonio arquitectónico y arqueológico en el Sur de al–Andalus, Sevilla, 2004.
2. Biel Ibáñez, M. "Nuevas noticias sobre el palacio de la Aljafería", Guillermo Fatás (dir.) Guía histórico–artística de Zaragoza, Zaragoza City Council, 2008.
3. Bosch Vilá, J.; Molina López, E. Los almorávides, 1990, Granada.
4. Borrás Gualis, G. "La ciudad islámica". Guillermo Fatás (Dir.) Guía histórico–artística de Zaragoza, Zaragoza City Council, 1991.
5. Campos Carrasco, J. Memoria y gestión de las actividades arqueológicas de la provincia de Sevilla, El castillo de Alcalá de Guadaira, 1990.
6. Cabañero Subiza, B. La Aljafería. I, Zaragoza, Cortes de Aragón, 1998.
7. Collantes de Terán Delormé, F. Los Castillos del Reino de Sevilla, Diputación Provincial de Sevilla, 1952.

8. Chueca Goitia, F. Historia de la arquitectura occidental, VI El siglo XX, las fases finales y España, Madrid, Editorial Dossat, 1980.

9. Domínguez Berenjeno, E. Arqueologia y Territorio. Anuario A rquelogico de Andalucia, Sevilla, 2000.

10. Eslava Galán, J. ¨Los almorávides¨, Cuadernos de prehistoria, 1984, Nº. 198.

11. Fernández Gómez, M. "Nuevos datos y documentos sobre la repoblación de Alcalá de Guadaíra (1280-1335)", Historia, 2004, Instituciones, Documentos 31.

12. Fernández Ruiz, R.; Vera Reina, M. El Castillo de Alcalá de Guadaira: Campaña de 1988_ 1990.

13. García Fitz, F. "Notas sobre la tenencia de fortalezas: los castillos del concejo de Sevilla en la Baja Edad Media", Historia, Instituciones, Documentos 17, 1990.

14. García Martínez, A.: "Alcalá de Guadaíra en las crónicas castellanas medievales (siglos XIII-XVI)", en Actas de las V Jornadas de Historia de Alcalá de Guadaíra, Ayuntamiento de Alcalá de Guadaíra, 1998.

15. Gallardo, F. La gerencia de urbanismo del Ayuntamiento de Sevilla estudia la situación del Castillo,Sevilla, 1984.

16. Heinrich G.; Ernst Díez. Arte del Islam, (Madrid–Barcelona–Buenos Aires, 1932.

17. 16 – Heinrich G.; Ernst Díez. L'Art hispano–mauresquei: des origines au XIII[e] siCcle, par Henri Terrasse, París, MCMXXXII, 1950.

18. Henri T. Consequences d'une invasion berbere: le role des Almoravides dans l' histoire de l' Occident, apud Melanges d' Histoire du Ivioyen Age dedies a la memoire de Louis Alphe, Paris, 1950.

19. José Hernández D.; Antonio Sancho C.; Francisco Collantes T, Crónica arqueológica de la España musulmana, Sevilla, 1939.

20. Jiménez Castillo, P.; Navarro Palazón, J. «Génesis y evolución urbana de Murcia en la Edad Media», Murcia ayer y hoy, Murcia, 2000.

21. Manuel Gómez, M. Monumentos arquitectónicos de España, Granada ,Madrid, 1907.

22. Marçais, G., La arquitectura musulmana de Occidente, París, 1954.

23. Manzano Martínez, José A. Fortificaciones islámicas en la huerta de Murcia: sector septentrional, memoria de las actuaciones realizadas, Memoria de Arqueología, 1998.

24. Navarro Palazon, J.; Jiménez, P., «Aproximación al estudio de Monteagudo y otros monumentos de su entorno », in Memorias de Arqueología, vol. 4, 1989, Murcie, Servicio regional de patrimonio histórico, Editora regional de Murcia, 1993.

25. Navarro Palazon, J., Jiménez, P. « El Castillejo de Monteagudo: Qasr Ibn Sa'd », in Casas y palacios en al-Andalus, Siglos XII Y XIII, Grenade, Fundación El Legado Andalusí, 1995.

26. 25_ Navarro Palazon, J, Jiménez, P, « Arquitectura mardanisí », in La arquitectura del Islam occidental, Barcelone, Lunwerg Editores, 1995.

27. Sebastián, E. La Aljafería de Zaragoza. Zaragoza: Cortes de Aragón, 2006 .

28. Ramírez del Río, J, "Pueblos de Sevilla en época islámica. Breve recorrido histórico-político", Philologia hispalensis 13,1999.

29. Terrasse, H. L' art bispano-mauresque des origines att XII/e siecle ,Paris, 1932.

30. Torres Balbás, L, *Ciudades hispanomusulmanas*, Instituto Hispano-árabe de Cultura, Madrid, 1985.

31. Torres Balbas, L. Arte almohade, arte nazarí, arte mudéjar, «artes Hispania», vol. IV ,Madrid, 1949.

32. Torres Balbas, L. Los zócalos pintados en la arquitectura hispanomusulmana ,Al-Ándalus, VII, 1942.

33. Torres Balbás, L. "Dos obras de arquitectura almohade: la mezquita de Cuatrohabitan y el castillo de Alcalá de Guadaira", Al-Andalus VI, 1941.

34. Torres Balbas. L.: "Paseos arqueológicos por la Espmia musulmana ", en Boletín del Museo Provincial de Bellas Aries, Núm.: XI-XII. Murcia, 1934.

35. Torres Balbas, L. :« Monteagudo y el Castillejo en la vega de Murcia », in Al-Andalus, t. II, 1934.

٦_ مواقع انترنت:

1_ https://twitter.com/aboulfeda/status/525747797778518017.

٧_ زيارات ميدانية:

١_ قلعة دمشق.

٢_ المديرية العامة للآثار والمتاحف بدمشق.

٣_ قلعة حمص.

٤_ دائرة الآثار بحمص.

٥_ دائرة المساحة بحمص.

٦_ أرشيف لجنة التراث الهندسي، نقابة المهندسين، فرع حمص.